الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم اللغة العربية

رقم التسجيل: .....

الرقم التسلسلي: .....

ترتيب المادة البلاغية في البيان والتبيين عند الجاحظ وأثرها في الدراسات النقدية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في النقد الأدبي

إعداد الطالبة:

رانيا جابر

إشراف الأستاذ الدكتور:

رابح دوب

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د ع الوهاب بوشليحة	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	رئيسا
أ.د رابح دوب	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	مشرف ومقررا
أ.د موسى شروانة	أستاذ	جامعة قسنطينة1	عضوا مناقشا
د. زينب بوصبيعة	أستاذ محاضرة	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 1434-1435هـ/ 2013-2014 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علّمه البيان، والصّلاة والسّلام على أفصح من نطق بالضاد سيدنا محمد النبي الأميّ الذي ميزه الله بالفصاحة،و آتاه جوامع الكلم،و أيّده بمعجزة القرآن الخالدة الناطقة بصدق رسالته وبعد:

لقد استأثرت البلاغة العربية بنصيب وافر من جهود المهتمين بالتراث العربي محاولة منهم لإقحامها في حقل العلوم الأدبية، وإبراز فعاليتها ودورها البالغ في ممارسة الأدب ونقده، لتعود إليها مكانتها السابقة، فالعرب أمة معروفة في الميادين العلمية والأدبية بقدرتها في مسائل الفصاحة والبلاغة والبيان، وهذه مفردات صناعتهم؛ ويكفي أن يأتي القرآن الكريم نموذجا على النسج.

و يظل تراثهم الأصيل الخالد شاهد صدق على مقدرتهم البيانية، لأنه ينبع من أعماق تلك الأمة، ويصور حياتها خاصة الفكرية منها والثقافية أحسن تصوير.

وقد كانت آثار أبي عثمان الجاحظ جزءا من ذلك التراث، الذي عبر عن وجدان الأمة العربية أحسن تعبير ومثلها أروع تمثيل.

إذ يعد **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ** من أوائل الذين اهتموا بفن القول،كما يعتبر أبرز أديب عبّر عن الثقافة العربية بأروع أسلوب وأرقى تعبير، فقد عرفت الفترة التي عاش فيها عددا من التحولات الهامة والمنعرجات الحاسمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وفيما كتب شهادة حية عما يمكن أن يعبّر عن أعمق تلك التحولات.

كما وضع للمتأدبين معالم بها يهتدون، وقد أجمع المهتمون بالتراث البلاغي والنقدي للجاحظ وأقروا بشهادة القدماء والمحدثين له بالسبق والتفوق، وعلى أنه صانع مفهوم الأدب عند العرب، ومؤسس البلاغة العربية والأب الشرعي لها، و أنه أول من أرسى قواعدها الأساسية.

كما أجمع النقاد والدارسون على أن كتابه ***"البيان والتبيين"*** هو قطب التأليف الأدبي عنده ومعدن تفكيره البلاغي وملاحظاته البيانية،فقد ضمّنه الكثير من الفنون الأدبية حتى اختلط فيها الأدب بالبلاغة بالنقد، وصار هذا المؤلّف أشبه بمنجم من المعادن الثمينة التي يعز على ناشدها الاهتداء إليها بيسر.

و يرجع هذا إلى شخصية الجاحظ الموسوعية، التي تشربت مختلف ثقافات عصره؛ حتى إنه يعد المؤسس الأول للبيان العربي دون منازع، اتخذه البلاغيون أساسا يشيدون عليه صرح البلاغة

العربية.

ونظرا لما تحتله البلاغة من هذه الأهمية، ولما يتمتع به الجاحظ من مكانة رفيعة أردت كما أحببت البحث في الدرس البلاغي وخصصت البحث حول التفكير البلاغي عند الجاحظ باعتباره المؤسس الفعلي للبلاغة العربية كما سبق القول؛فقد كانت البلاغة قبله مجرد إرهاصات وعندما أسس لها وأرسى قواعدها صار كل من يأتي بعده يغترف من معينه الذي لا ينضب على تفاوت بينهم. وانصبت دراستي على "البيان والتبيين" كأنموذج باعتبار إجماع جل الدارسين على أنه قطب التأليف البلاغي عنده؛ استطاع الجاحظ من خلاله أن يكون ذا رأي أدبي يجمع حوله الأمة العربية في مستوياتها المتعددة وطبقاتها المختلفة، إذ يمكن القول بأنه جامعة ثقافية سياستها ***البيان***، وذلك في معرفة سمات الأديب ونفسية المتلقي ومستوى الخطاب بينهما.

فجاءت دراستي موسومة بترتيب المادة البلاغية في البيان والتبيين عند الجاحظ وأثرها في الدراسات النقدية.

وقد حكم جل الدارسين لأدب الجاحظ أن المادة البلاغية عنده جاءت مشتتة متناثرة لا رابط بينها، فهل فعلا ما ذكره الدارسون هو الحقيقة أم أنه جانب الصواب؟

وإذا افترضنا جدلا وسلمنا بما قال الدارسون، هل يمكن إعادة تنظيم هذه المادة وربط حبل الأسباب بينها وبين ما ورد في بعض مؤلفاته الأخرى في المشعل نفسه، خاصة الحيوان، الرسائل البخلاء؟ عسانا ندرك الهيكل العام لآرائه البلاغية،و ذلك بالاعتماد على منهج يناسب العصر ويتماشى مع تطوراته.

وتندرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من الإشكالات الفرعية الأخرى منها:

هل فعلا بالرغم من موسوعية الجاحظ وثقافته المتنوعة وعلاقاته المختلفة لم يكن على وعي بضرورة ترسم منهج معين يمكّنه من إخضاع مادته والتحكم فيها؟ أم الأمر بخلاف ذلك؟

وهل يمكن القول إن النزعة الاستطرادية والخصلة الموسوعية للجاحظ في الجمع والتقصي وتأليف المتنافر تعد تجسيما لتصور ثقافي ونظرية في المعرفة ومؤشر حضاري أم أنه لم يخضع لمنهجية واضحة وبناء محكم ؟ أم أن الدارسين حاكموه بمفهومهم اليوم للمنهج والنظام؟ ثم ما مدى إخضاع المنهج دون الأخذ بعين الاعتبار لمعيار الزمن؟

ثم ما هي الحدود البيانية لثلاثية البيان، الفصاحة والبلاغة عند الجاحظ؟ و ما هي العلاقة بينها؟ هل هي علاقة ترادف أم علاقة خصوص وعموم؟ وكيف استطاع الجاحظ الانتقال ببعض المصطلحات البلاغية من الاستعمالات اللغوية عند الدارسين قبله إلى المعاني الاصطلاحية في مدونته؟ وما هي المعايير والأسس التي اعتمدها في ذلك؟

ثم كيف انتقل الجاحظ بمفهوم البيان من العناية بأسس تحليل الخطاب إلى أسس إنتاجه.أما عن الأسباب التي دفعتني إلى اختيار الموضوع، فإنها تتمثل في ميولي للدراسات

البلاغية عامة، ورغبتي في البحث حول مثل هذه الموضوعات، إضافة إلى انبهاري بشخصية الجاحظ، فأردت أن أكشف بعض جوانب هذه العبقرية التي بذّ بها أقرانه، وتجاوز بها عصره وانعكست فيما بعد على إنتاجه المعرفي؛ فوسمته بالسعة والإنسانية، والصلة بمفهوم الجماعة وحاجات الفرد، وقرّبته من المفاهيم الحديثة في مصطلحاته ومعاييره النفسية. إضافة إلى محاولتي توسيع معارفي حول التفكير البلاغي عند الجاحظ من خلال هذا البحث المتواضع عن طريق استقراء بعض آرائه البلاغية ومحاولة الربط بينها وبين سياقاتها النصية الواردة فيها، علّني أصل بهذا إلى الإجابة عن بعض التساؤلات في خاطري، وأساهم في الوقت نفسه في تصحيح بعض التصورات الخاطئة في أذهان بعض الدارسين.

أيضا محاولتي لمّ شتات المادة البلاغية في مدوّنة ***"البيان والتبيين"***، التي جاءت في صورة ملاحظات وتعليقات، خدمة للسياقات الواردة فيها، فأردت تجميعها مع مراعاة السياق الواردة فيه،حتى يسهل على الدارس الإطلاع عليها والاستفادة منها مجتمعة بكل حيثياتها. إضافة إلى عدم وجود دراسة شاملة في حدود علمي واطلاعي ترتّب هذه المعطيات في نسيج تنقاد إليه المادة وينتظم به التشتت وتنكشف به أسس النظرية البلاغية عند الجاحظ، فجلّ من درس البحث البلاغي عنده جعل الحديث عن خصائصه جزئيا،مقتصرا على المشهور من آرائه ونصوصه، وأهم من هذا كله فاصلا بينها وبين السياقات التي تحتويها، والتي تساعد الباحث على كشف الغامض وتصحيح الخاطئ.

و إذا كانت الدراسات السابقة تناولت آثار الجاحظ من زوايا مختلفة، فإن هذه الدراسات على كثرتها وتنوعها إلا أنني لم أقف في حدود علمي واطلاعي على دراسة مخصصة حول هذا الموضوع بهذا العنوان،غير دراسة قام بها الدكتور***"أحمد مطلوب"*** الموسومة"**بالبلاغة عند الجاحظ**"

وهذه الدراسة على وجاهتها وقيمتها إلا أن صاحبها اكتفى بمجرد فصل المادة لبلاغية عن بقية العلوم الأخرى: اللغوية والنقدية والأدبية عند الجاحظ دون تبويب ولا تعليق. إضافة لهذا هناك دراسة قام بها الدكتور المغربي***"الشاهد البوشيخي"*** والموسومة "**بمصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيّن للجاحظ**"،و هذه أيضا دراسة قيمة ومعتبرة،إلا أن صاحبها لم يفصل بين مصطلحات النقد والبلاغة،كما اكتفى بإيراد المصطلح وتعريفه لغويا،ثم نقل كل التعاريف الاصطلاحية التي أوردها الجاحظ في كتابه دون تعليق ولا ترجيح لأحدها.

إذن على كثرة الدارسين لأدب الجاحظ، يجد الباحث جديدا يديره في كتاباته لسعتها وإنسانيتها وتعديها حدود القومية.

أما عن الإضافة التي أردتها من خلال دراستي هي أن أفصل المادة البلاغية عن غيرها من العلوم الأدبية الأخرى، ثم أعمل على ترتيب هذه المادة وتبويبها وفق منهج منظم دون الفصل بينها وبين سياقاتها الواردة فيها.

إضافة إلى الإجابة عن بعض التساؤلات التي تمّ الإشارة إلى بعضها في إشكالية البحث. وبخصوص معالجة هذا البحث ارتأيت أن أتبنى *المنهج* الفني الذي يبدو لي أنسب مع الاستئناس ببعض المناهج الأخرى، كالمنهج الاستقرائي الذي يظهر في تتبع المادة البلاغية المبثوثة في ثنايا كتاب "البيان والتبيين" وجمعها،مع الاستعانة ببعض رسائل الجاحظ،و كتابه"**الحيوان**" فالجاحظ يذكر مسألة في مكان ويتمها في آخر، ويذكر قضية مجملة في موضع ويفصل فيها في آخر، ولإدراك الهيكل العام لآرائه البلاغية يجب الاعتماد على منهج مناسب. كما اعتمدت آلية التحليل التي لجأت إليها عند الحاجة إلى تحليل بعض الأقوال الواردة في السياق وأثناء التعليق على المادة البلاغية واستنباط آراء الجاحظ.

أما المنهج المقارن فقد أملته علي طبيعة الدراسة، ويظهر جليا عند مقارنة المادة البلاغية بالمفاهيم التي ظهرت فيما بعد، هل تغير المصطلح أم لا ؟هل تغيرت دلالته أم اسمه فقط؟ أم أطلق على دلالة أخرى؟ أم بقي على وضعه الأول؟و غيرها.

وبناء على هذا المنهج جاءت خطة البحث على الشكل الآتي: مقدمة.

ومدخل: وفيه تناولت الحديث عن عصر الجاحظ من حيث الحياة السياسية والاجتماعية

والأدبية والفكرية، وما شهده العصر من حركة علمية ثرية واسعة النطاق، كان لها بالغ الأثر في تكوين شخصيته الفكرية والأدبية، وبعد ذلك تطرقت إلى حياته مبرزا مولده ونشأته، وصفاته، وعلمه وأدبه، إضافة إلى بعض آثاره التي شكلت موسوعة الفكر والأدب للعصر العباسي.مع الوقوف على منزلته في العلم والأدب بين معاصريه.

وأما الفصل الأول فقد تطرقت فيه للبيان عند الجاحظ بين الغاية الإبلاغية والصيغة الإبداعية، وقد حاولت فيه أن أضبط مفهوم البيان عند أبي عثمان انطلاقا من المفهوم العام العادي الذي يكون لغرض تحقيق الغاية التواصلية والكشف عن المعنى بإحدى الدلالات الخمس وصولا إلى المعنى الخاص الذي تكتسب فيه اللغة سمات فنية نوعية تخرجه من جاري الاستعمال لتحقيق غايات فنية جمالة.

وتحدثت في الفصل الثاني عن مقومات المتكلم عند الجاحظ وما ينبغي للمتكلم الذي يتصدر لمقامات البلغاء من شروط، إضافة إلى ذلك فقد حاولت أن أوضح المكانة الهامة التي تحتلها نظرية المواضع في تفكير الرجل البياني.

و خصصت الحديث في الفصل الثالث عن مقومات الكلام عند الجاحظ وحاولت فيه تنظيم المادة البلاغة عنده وربطها بالسياقات الواردة فيها للتمكن من فهم نظريته البلاغية فهما سليما.

و أنهيت البحث بخاتمة حرصت فيها على تلخيص الموضوع المعالج تلخيصا تركيبيا لأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

هذا وقد اعتمدت في انجاز هذا البحث على عدد من المصادر والمراجع.

و على العموم إني في غنى عن الإقرار بأن البحث العلمي جهد وعناء؛ لهذا فقد صادفتني بعض الصعاب، واعترضت سبيلي بعض العقبات، لعل أهمها تلك المتعلقة بالمصادر والمراجع.

و لكني استطعت بعون الله عزّ وجلّ ورعاية أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور **رابح دوب** الذي لم يدّخر جهدا في سبيل توجيهي توجيها سديدا،و تشجيعي لإنهاء هذا البحث الذي آمل أن أكون قد وفقت في أدائه بالشكل الذي يستجيب للبحث العلمي ويرضي أعضاء لجنة المناقشة الموقرين ويبرز جليا ترتيب المادة البلاغية في البيان والتبيين عند الجاحظ وأثرها في الدراسات

النقدية.

و إني لأتشرف بوضع هذا البحث بين أيدي السادة الأساتذة الموقرين، أعضاء لجنة المناقشة وألتمس استفادة توجيهاتهم وملاحظاتهم للارتقاء بمستواه إلى ما هو أحسن وأفضل.

و لا يسعني في الختام إلا أن أمتثل للأصول، فأشيد وأنوه بجهود كل من ساعدني على انجاز هذا البحث،و أخص بالذكر خالي المحترم.

أما الأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور **رابح دوب** الذي يرجع إليه الفضل في احتضان البحث منذ أن كان فكرة فإني أثني على أسلوبه التربوي الحكيم وتوجيهه العلمي الرشيد.

و إني لا أستطيع مهما جمعت عبارات الشكر والتقدير أن أرقى إلى إيفائه حقه.

لهذا فإني لا أملك إلا أن أتوجه إلى الله أن يجزيه عني وعن بحثي خير الجزاء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مدخل:

عصر الجاحظ، ترجمته، وحضوره البلاغي

أولا: لمحة حول الحياة العامة في عصره :

1ـ الحياة السّياسية والاجتماعية.

2ـ الحياة الاقتصادية.

3ـ الحياة العلمية والثقافية.

ثانيا: ترجمة الجاحـــظ:

1ـ سيـرتـه وحيـاتـه.

2ـ صنعته وأسلوبه.

3ـ آثـاره، وبعض الآراء فيه.

ثالثا: كتاب البيـان والتبييـن:

1ـ تعريـفـه.

2ـ تأليفـــه.

3ـ مضمـونه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: لمحة تاريخية حول الحياة العامة في عصر الجاحظ:

تقتضي دراسة الجاحظ القيام بجولة تاريخية مقتضبة، نرسم فيها صورة العصر العباسي الذي ولد فيه الجاحظ ونشأ، ونوضح معالمه، ودوره التاريخي، فنتعرف إلى البيئة الجديدة التي تصارعت فيها الأفكار وتباينت الرؤى، واختلطت الأجناس والذهنيات، وامتزجت في داخلها العادات، ممهدة لقيام نهضة فكرية وعلمية واسعة.

فالنظرية القائلة بأن الإنسان هو ابن بيئته تجد تطبيقا حيا لها في الجاحظ ودائرة معارفه المتنوعة؛إذ صوّر لنا مجتمعه بكل تفاصيله، برؤية عميقة وعقلية فريدة، فجاء نتاجه ثمرة العصر العباسي الأول والربع الأول من العصر العباسي الثاني، بمختلف فعاليته السياسية وبكل ما تميز به من سلوكيات وثقافات، وبما كان عليه من مفاهيم فكرية وقيم ثقافية وكانت كتاباته عاملا مهما ورئيسا في رسم خارطة لواقع الحياة برمّته، وفي تقديم وثيقة واقعية شاملة عن الحياة والناس، مما يعد مرجعا هاما لقراءة كثير من أوجه العصر السياسية، الاجتماعية، العلمية،والثقافية .

1-الحياة السياسية والاجتماعية:

عاصر الجاحظ أعظم دولة قامت في التاريخ الإسلامي وهي الدولة العباسية« فقد امتدت حياته سحابة العصر العباسي الأول ومطلع العصر العباسي الثاني، وهي حقبة تعد أزهى الحقب وأخصبها عطاء، إذ تمكنوا فيها أن يقطعوا أشواطا بعيدة في مضمار الرقي، وأن يبنوا حضارة عريقة وأن ينجبوا نوابغ في مختلف العلوم والآداب» [1].

كما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في هذا العصر وانفتحت على غيرها من الشعوب وبلغت من الحدود ما لم يقدر على مجاوزته «باسطة حكمها من جبال البرنان وجبل طارق إلى الهند، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال الصحراء، وصار معظم آسيا خاضعا لسطان الخلفاء الممتدة من جزيرة العرب إلى تركستان، ومن وادي كشمير إلى جبال طوروس، وعبدت بلاد فارس، وصار ملوك بابل وجميع أمراء وادي السند يعطون الجزية، وأضحى العرب في أوروبا مالكين لإسبانيا ولجزر البحر المتوسط، وأضحوا في افريقيا مالكين لشمالها ولمصر»[2].

---

[1]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، دار الهلال، – بيروت–، ط1(2009م)، ص 52.

[2]-حضارة العرب: غوستاف لوبون، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مطبعة إحياء الكتب العربية، – نابلس – (د. ط) (د.ت.ط)، ص 143.

وقد قامت الدولة العباسية (**سنة 132 هـ**) على أنقاض الدولة الأموية التي استنفذت قواها في مقاومة الفتن والمؤامرات؛ فبينما كان دعاة الشيعة مشغولين في كسب التأييد لحزبهم الذي وجد في علي ﷺ وذريته الخلفاء الشرعيين الوحيدين للنبي ﷺ، فإن فرعا آخر من آل النّبي وهم العباسيون دخل الميدان وهو يضمر قلب أعمال العلويين لصالحه، وقد ورثوا عن جدهم "**العباس بن عبد المطلب**"(**ت 32هـ**) صفات الحذر،والظهور بمظهر الدين والحكمة،وهي الصفات التي تضمن النجاح السياسي[1]. وبعدما بويع لأبي العباس الملقب **بالسّفاح**[2] بالخلافة، «لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة (**132 هـ**)، بمدينة الكوفة، اتخذ من الهاشمية التي بناها بالعراق مقرا للخلافة» [3] وسعى إلى القضاء على الخليفة الأموي " **مروان بن محمد**" آخر خلفاء بن أمية، وقواته المرابطة في موقع استراتيجي عند " **الزاب** "[4]، ليضمن الأمان التام لدولته الفتية، ويحرص على استمرارها .

وبخسارة جيش " **مروان بن محمد** " المعركة النهائية، وانسحابه باتجاه الموصل، فالشام ففلسطين، وفي قرية " **بوصير** " في مصر، تم القبض على "**مروان بن محمد**"،وقتل وأرسل رأسه إلى الخليفة العباسي، وبمقتله انتهت الدولة الأموية[5].

«حكم " **أبو العباس** " قرابة أربع سنوات، وقد أسهم الفرس إسهاما فعالا في بناء الدولة

---

[1]-**ينظر**: السخرية في أدب الجاحظ:عبد الحليم محمد حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، – ليبيا –، ط1 (1397 ه، 1988 م)، ص 17. لمزيد من التفصيل.

[2]-**السفاح**: اشتهر بهذا اللقب لأنه دعا به نفسه في خطبة الخلافة:"... فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير " **ينظر**: تاريخ الطبري:ابن جرير الطبري راجعه وقدم له وأعد له فهارسه: نواف الجراح، دار صادر، – بيروت – ط1(1424هـ-2000م)،ج4،ص 1525. لمزيد من التفصيل.

ينظر: الكامل في التاريخ:ابن الأثير،راجعه وصححه:محمد يوسف الدقاق،دار الكتب العلمية، – بيروت –،ط4 (1424هـ-2003 م)، ج 5، ص 66. لمزيد من التفصيل.

[3]-صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت –، (د. ط)، (د.ت.ط)، ج 3، ص 269.

[4]-**الزاب**: الزاب الأعلى بين الموصل واربل، ينحدر من رأس جبل إلى واد، ويمتد حتى يفيض إلى دجلة، وهو شديد الحمرة، يسمى " الزاب المجنون "، لشدة جريانه، وكان فيه يوم " مروان بن محمد " وبني العباس. **ينظر**:معجم البلدان: ياقوت الحموي،دار صادر،– بيروت –،(د.ط)،(1957م)،ج03، ص 123. لمزيد من التفصيل.

[5]-موسوعة التاريخ الإسلامي – العصر العباسي –: خالد عزام، دار أسامة للنشر والتوزيع، – الأردن –، ط 1 (2003م)، ص 28، بتصرف.

العباسية، وصبغوها بصبغتهم المميزة من الناحيتين السياسية والاجتماعية، فجات الدولة أعجمية خراسانية، بينما كانت دولة بني أمية عربية أعرابية»[1].

وهذا نظرا لتغلغل الفرس في الدولة، وتقلدهم مناصبها، واستناد الخلفاء عليهم في أغلب الأمور، إلا أن نفوذهم في البداية كان محدودا، نتيجة لقوة الخلفاء وسيطرتهم على الوضع جيدا وبالرغم من أن البلاد في عهد السفاح كانت مضطربة، والنفوس ثائرة، والاستقرار غير مستتب إلا أنه اهتم بتركيز الدولة،ووضعها على أسس متينة[2] .

«توفي " **أبو العباس** " بالجذري، يوم الأحد لثلاث عشر خلت من ذي الحجة سنة ستة وثلاثين ومائة(**136**هـ) بالأنبار، وقام بالأمر بعده أخوه " **أبو جعفر المنصور**"» [3].

ويعتبر "**أبو جعفر**" المؤسس الفعلي للدولة العباسية؛ إذ نقل مركز الخلافة من الهاشمية إلى **بغداد**[4]؛ التي أشرف على بنائها بنفسه (**145 هـ**)، واتخذ منها عاصمة له.

ذلك أن الهاشمية كانت بنواحي الكوفة موطن الثورات والاضطرابات خاصة بعدما ثارت الراوندية[5] فيها؛ فكره سكناها،وأراد أيضا أن يدنو من بلاد فارس للانفتاح على عوالم التمدن والتحضر والرقي، حتى إن مدينة بغداد بنيت بأسلوب فارسي خالص أقرب إلى التعقيد الفارسي منه إلى البساطة العربية .

«مكث "**المنصور**" في الخلافة نحو عشرين عاما، مما هيأ له فرصة أكبر لإقرار الحكم وإرساء دعائم الدولة،وتثبيت ركائزها جيدا مما أدى بها إلى الاستقرار في أيامه، واستعان في هذا

---

(1)-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم،ص 52.

(2)-البلاغة الشعرية في كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ:محمد علي زكي صباغ، إشراف ومراجعة: ياسين الأيوبي المكتبة العصرية - بيروت -، ط1(1417 هـ- 1997 م)، ص 14، بتصرف.

(3)-تاريخ الطبري: ابن جرير الطبري، ص 1544.

(4)-**بغداد**: تعرف باسم بغدان، بغذاذ، اسم فارسي معناه عطية الله، سماها المنصور دار السلام أو مدينة السلام لأنها بنيت على نهر دجلة الذي يقال له وادي السلام، وسميت المنصورية نسبة الى بانيها، أو بالزوراء لإزوراء نهر دجلة عند مدور هبها، أو لإزوراء قبلتها، **ينظر**: معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج1، ص 467، لمزيد من التفصيل.

(5)-**الراوندية**: قوم من خراسان على رأي أبي مسلم، يقولون بتناسخ الأرواح والحلول.ظهرت سنة 141 هـ يزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك، وأن جبرائيل هو الهيثم بن معاوية، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور، وقد نكل بهم أبو جعفر.

ينظر:تاريخ الطبري:ابن جرير الطبري، ص 1557،الكامل في التاريخ": ابن الأثير:، ج5، ص 141،لمزيد من التفصيل.

بالفرس؛ إذ يعد " **أبو جعفر** " أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب»[1].

توفي " **أبو جعفر المنصور** " بطريق مكة، **ببئر ميمون** وهو محرم سنة ثمان وخمسين ومائة ودفن **بالحجون**[2].

«وقام الأمر بعده ابنه " **المهدي** " أبو عبد الله محمد، بويع له بالخلافة يوم مات أبوه بطريق مكة، وهو يومئذ ببغداد»[3].

وفي عهده ازداد الاعتماد على العناصر الفارسية والموالي،كما اشتد التأثر بالتقاليد الفارسية إذ حصل العباسيون بذلك على طاعة الإيرانيين وتأييد الأرستقراطية الفارسية، وقد ولى "**يحي بن خالد البرمكي** " ديوان الرسائل (**163هـ**)[4] .

توفي "**المهدي** " سنة (**169 هـ**) وبويع لابنه " **موسى الهادي** " في اليوم الذي مات فيه "المهدي"، وهو مقيم بجرجان يحارب أهل طبرستان، إلا أن مدة خلافته لم تدم سوى سنة وأربعة وأربعين يوما، إذا كانت وفاته ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة (**ت 170 هـ**)، في هذه الليلة بويع أخوه " **هارون الرشيد** " بالخلافة، وكان عمره حين ولي اثنتين وعشرين عاما[5].

ولما تعاظم نفوذ البرامكة واستبدوا بالحكم قام الرشيد بتصفيتهم،ويبدو أنه السبب الرئيس الذي دفع بالرشيد إلى تصفيتهم، تعصبهم للعنصر الفارسي ومحاولتهم إعادة مجد الفرس الذي انتهى على يد العرب،وتطلعهم إلى إحياء الدولة الساسانية وإحلالها محل العربية، وفي عام (**187هـ**) أمر "**الرشيد** " بقتل "**جعفر بن يحي البرمكي**" (**ت 187 هـ**) وأمر بحبس ولديه " يحي" و"الفضل" وأمر كذلك بتصفية أموالهم[6].

ولعل سقوط البرامكة دون حدوث ردود فعل عنيفة دليل على قوة الخلافة في عصرها الذهبي ؛ فقد بلغت بغداد في عهده درجة لم تصل إليها من قبل ؛ فأصبحت مركزا للتجارة

---

[1]-دراسات في تاريخ الدولة العباسية:حسن الباشا،دار النهضة العربية،- القاهرة -، (د. ط)، (1990م)، ص 23.

[2]-**الحجون**: جبل بأعلى مكة، عنده مدافن أهلها. ينظر:معجم البلدان:ياقوت الحموي،ج 2،ص 225.

[3]-صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، ص 269، بتصرف.

[4]-دراسات في تاريخ الدولة العباسية:حسن الباشا، ص 2، بتصرف.

[5]-الكامل في التاريخ:ابن الأثير، ص240، بتصرف.

[6]-**ينظر**: موسوعة التاريخ الإسلامي – العصر العباسي -:خالد عزام، ص 120.لمزيد من التفصيل.

وكعبة رجال الدين والأدب[1]. واتسعت أرجاؤها فكثر عطاؤها، وعظمت هيبتها، واشتد عودها دولة قوية ذات ركائز ثابتة وسياسة مطردة، وسلطان مهيب، وشأن عظيم. توفي "الرشـــيد" في "**سناباد**"[2]، ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة (**193 هـــ**).

وقام بالأمر بعده " **الأمين** " (**193 هـــ**) بالعهد من أبيه " **هارون الرشيد** "، وقتل لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة . ثم قام بالأمر بعده " **المأمون** " (**198 هـــ**).

و قد بويع له بالخلافة يوم قتل أخيه " **الأمين** " ببغداد، وبويع له البيعة العامة لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة . وتوفي بأرض الروم لثمان خلون من شهر رجب، سنة ثمـــاني عشرة ومائتين[3].

وكان عصرهما امتدادا لعصر الازدهار والسؤدد والمجد، الذي كان عليه عصـــر أبيهمـــا وتوالت الانتصارات العسكرية في خلافة "**المعتصم بالله**" «الذي بويع له بالخلافة يوم مات أخوه "**المأمون**"، وتوفي "بسامراء لثماني عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة سبعة وعشرين ومائتين (**227 هـــ**)» [4].

ولعل أهم إنجاز للخليفة "**المعتصم**" هو فتح **عمورية** الذي «يعد نقطة تحول في السياســـة الخارجية للدولة العباسية،إذ توقفت بعدها الأعمال الحربية لســـنوات عديـــدة بـــين المســـلمين والبيزنطيين،وربما عادت بعض المحاولات التي لم تتجاوز المناوشة في عهد " الواثق بالله" وقد كان فتح عمورية في رمضان من عام (**223 هـــ**)» [5].

إلا أن" **المعتصم**" أقدم عل عمل كان له أخطر الأثر على مستقبل الدولة العباسية، وهـــو استبداله العنصر الفارسي بالتركي، خاصة بعد ازدياد نقمة الفرس وتعاظم نزعتـــهم الشـــعوبية الحادة مما أدى إلى غلبة الأتراك على العسكر واستبدادهم بالخلفاء، وعبثهم بمقـــدرات الســـلطة والشعب[6].

---

[1]-البلاغة الشعرية في كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ:محمد علي زكي صباغ، ص 16.

[2]-سناباد: قرية من قرى طوس،بينها وبين طوس نحو ميل.**ينظر**:معجم البلدان: ياقوت الحموي،ج 03، ص 259.

[3]-صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، ص 270، بتصرف.

[4]-المصدر نفسه.

[5]-موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر العباسي -:خالد عزام، ص 158.

[6]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 61، بتصرف.

فقد كان الفرس أصحاب مدينة وحضارة بخلاف الترك الذين كانوا سكان قفار وصحار وحرب وجلاد،وبأس ومراس،فقد كانوا يركبون الخيل ويركضون بها في شوارع بغداد فتطأ بعض الشيوخ والنساء والأطفال، مما اضطر "**المعتصم**" أن يبني لهم " **سامراء**"[1] سنة(**221** هـ)، شمال بغداد وانتقل معهم إليها، بعدما ضج الناس من أذاهم .

إلا أن العنصر التركي في عهده ليس سوى موالي للخليفة، تضع الولاء للدولة العباسية فوق كل اعتبار،فضلا عن قوة الشخصية " **المعتصم**".

توفي "**المعتصم بالله** " بسامراء لثماني عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة سبع وعشرون ومائتين (**227 هـ**).وقام الأمر بعده ابنه " **الواثق بالله** "، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه "**المعتصم**" واغتيل بسامراء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين (**247** هـ)[2].

ولعل مقتل الخليفة المتوكل على يد الجند الأتراك، بعد أن حاول أن يحد من سيطرتهم يعد بداية ضعف الخلافة العباسية من الناحية السياسية ودليلا على تمكن الأتراك ومؤشرا لنهاية الخلفاء العباسيين الأقوياء وبداية الاعتماد الكلي على العنصر التركي.

و"قام بالأمر بعده ابنه" **المنتصر بالله**"، الذي بويع بالخلافة صبيحة قتل أبيه،وقد كان سفاكا للدماء؛ إذ اشترك في مؤامرة قتل أبيه، إلا أن خلافته لم تدم طويلا، إذ قتله القواد الأتراك سنة (**243هـ**)، ونصّبوا مكانه " **المستعين بالله**"[3] أحد أبناء المعتصم المغمورين، جاء به الأتراك حتى يتمكنوا من القبض على زمام الحكم[4].

وقد بويع بالخلافة لست خلون من شهر ربيع الآخر (**248 هـ**)،وخلع نفسه في المحرم من سنة (**252 م**)، وقتل في **شوال** من نفس السنة .

وقام بالأمر بعده "**المعتز بالله**"، وخلع سنة(**255 هـ**)ثم قتل بعد ذلك في نفس السنة،وقام

---

[1]-**سامراء**:مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة، فيها لغات: سامراء، سامرا، سرمن را /....، بها السرداب المعروف في جامعها الذي تزعم الشيعة أن مهديهم يخرج منه، وقيل هي مدينة بنيت لسام، فنسبت إليها وبالفارسية سامراه.**ينظر**: معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج 3، ص 173 – 178. لمزيد من التفصيل.

[2]-صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، ص 271.

[3]-**ينظر**:المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 74. لمزيد من التفصيل.

[4]-**ينظر**: موسوعة التاريخ الإسلامي – العصر العباسي :خالد عزام، ص 166.لمزيد من التفصيل.

بالأمر بعده" **المهتدي بالله** " بويع بالخلافة عندما خلع " **المعتز** " نفسه[1].

ثم استبد الخلفاء من بني العباس آخرا في هذا النطاق الضيق ما بين دجلة والفرات وأعمال السواد، وبعض أعمال فارس، إلى أن خرج التتار من مفازة الصين وزحفوا إلى الدولة السلجوقية وهم على دين المجوسية وزحفوا إلى بغداد فقتلوا الخليفة،و انقرض أمر الخلافة، وذلك سنة ست وخمسين وستمائة (**656 هـ**) [2]. وسقطت مدينة بغداد مهد الحضارة العربية.

وهكذا ظل فساد الترك يستشري في الدولة، إلى أن استولى البويهيون على الخلافة بعد خلع المستكفي بالله وزالت سلطة الترك من الحكم نهائيا .

وانقسمت بعدها الدولة العباسية إلى دويلات قزمية: "**الصفارية**" ثم " **السامانية** " في ايران و"**البويهية**" في غرب فارس، ثم "**الغزنوية**" في أفغانستان و"**الحمدانية**" في الشام و"**الفاطمية**" في مصر ... [3].

فتاريخ الجاحظ تاريخ قرن كامل هو زهرة الدولة العباسية،عشرة خلفاء من بني العباس عاصرهم الجاحظ وقرؤوا له، وشرف بالثناء عليه من أفواههم، وجالس وزراءهم، وضحك وتفكه أمامهم، وألف لهم، وقبل جوائزهم السنية، فهذه البيئة السياسية قد اكتنفت الجاحظ فأحدثت أثرا لا يجحد في حياته وعقليته. [4]

إذن قد عاصر الجاحظ الدولة العباسية في عصرها الذهبي، إذ انتقلت سدة الحكم من الشام أين توجهت شطر فارس، حيث الانفتاح على الجديد في نظم الحكم وأساليب الحرب وتنظيم شؤون الدولة وغيرها. ووجدت في خراسان أرضا خصبة وسندا قويا لمساندتها والمضي بها قدما نحو التحضر بقيادة أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة .

فقد نصرها الفرس وناصروها،ونفخوا فيها روحا حضارية ولقحوها بثقافات أجنبية متنوعة

---

[1]-تاريخ الطبري: ابن جرير الطبري، ص 2017-2028، بتصرف.

[2]-تاريخ ابن خلدون المسمى:كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر:ابن خلدون، دار الكتب العلمية، – بيروت –، ط2 (1424 هـ- 2003 م)، ج3، ص 346.

[3]-السخرية في أدب الجاحظ:عبد الحليم محمد حسين، ص 20، بتصرف.

[4]-الجانب الاعتزالي عند الجاحظ: بلقاسم الغالي،دار ابن حزم، بيروت، ط1(1420هـ - 1999م)، ص 18 -19 بتصرف.

حتى تمكنوا من الحصول على قسط كبير من السلطة، واحتلال منزلة رفيعة فيها، إذ أمسكوا بزمام الأمور الإدارية والعسكرية، وصار سائر رجال الدولة من الفرس، لكن هذا الوضع لم يدم طويلا إذ نكبهم العباسيون عدة نكبات خوفا من اتساع نفوذهم أكثر واستبدادهم بالحكم، أشـــهرها نكبة البرامكة (**187 هـــ**)على يد الرشيد .

إلا أن الدولة العباسية لم تتخلص من التدخل الأجنبي تماما، إذ ما لبث المعتصم أن استبدل الفرس بالترك – على اعتبار أن أمه تركية –، وقد كانوا وبالا على الخلافة إذ كانوا أصـــحاب صحار وقفار، ولا علاقة لهم بالمدينة والحضارة، فكان هذا الحدث مفتاح انهيار الدولة وبدايـــة سقوطها خاصة بعد ضعف الحكام المتأخرين أمام سيطرة القواد الأتراك.

إن التغير السياسي في المجتمع العباسي أعقبه تغير اجتماعي في تقسيم الطبقات الاجتماعيـــة وترتيب منازل فئاتها،تبعا لتغير الوظائف الاجتماعية التي تؤديها هذه الطوائف[1]. فبعد استقرار العرب في البصرة – مسقط رأس الجاحظ –، وفدت إليها أجناس مختلفة منهم الموالي،والإيرانيون والسنديون، والهنود الذين دعوا بالزّط، والزنج الذين كان يؤتى بهم رقيقا من الساحل الشرقي في إفريقيا، وقد ظلوا ملتصقين بالمزارع والحقول .

وعند قيام الدولة العباسية لم يقترب البصريون من أصحاب السلطة نتيجة تغلغل العناصر المناوئة للحكم في صفوف أبنائها ومنها الخوارج، والزنج،والمعتزلة .

وأدى هذا الاختلاط والاحتكاك بين الأجناس المختلفة، والذهنيات المتفاوتة إلى انفتـــاح العقول،وتقدم مضمار الحضارة، وتجلى بكثرة العلماء والمفكرين الذين أنجبتهم البصرة وبانتشـــار الجوامع والأندية، والإقبال على الجدل والمناظرة .

ففي هذه المدينة العجيبة قضى الجاحظ نصف عمره متنقلا بين أسواقها ومساجدها، مختلطا بأهلها من عرب،وعجم،وموال[2].

وانتقل الجاحظ إلى بغداد عاصمة الخلافة في مطلع القرن الثالث الهجري،«هذه المدينة التي زخرت بخليط عجيب من الأجناس، ومزيج يبعث على الدهشة والغرابة، فيما يتعلق بالثقافات التي

---

[1]-ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ: طيبة صالح شذر، دار قباء، – القاهرة –، (د، ط)، (1998 م)،ص37.

[2]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص 37- 38.

ظهرت في تلك الحقبة، وكان لها – من غير شك – كبير أثر في بنية المجتمع والإنسان، سواء فيما يتعلق بثقافة المجتمع ومفاهيمه، أو فيما له علاقة بحياة الناس وقيمهم» [1].

حيث نشأ أبناء هذا العصر في ظل حياة عباسية بكل ما تميزت به من سلوك ثقافي وانفردت به من تحلل اجتماعي نتيجة لتغير المجتمع من عربي السلوك إلى فارسي السمات ومن إقليمي العادات إلى مدني المترع .

«وبما أن المدينة معروفة بتزاحم سكانها، وضعف الرابطة بينهم، وكثرة الوافدين إليها حاملين معهم عاداتهم وتقاليدهم، هذا ما جعلها تتقبل أسباب الانحراف ومظاهر التحلل» [2].

وقد كانت عاصمة العباسيين مدينة بغداد قصبة العالم الإسلامي، ومدينة السلام هي أوضح نموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر .

وكانت هناك تغيرات واضحة أحدثها الفرس في المجتمع الإسلامي، في أساليب الحياة التي أصبحت الأساس الذي قام عليه المجتمع العباسي الجديد.

إذ مع غلبة الذوق الفارسي الذي قوي أمره بانتصار الثورة العباسية على اعتبار أن الفرس كانوا دعاتها،وأصحاب الفضل في نجاحها مما قوى نفوذهم، فملكوا زمام الأمور،وأشاعوا في الناس ثقافاتهم، فتفشى تيار اللهو والمجون،وكثرت مجالس الأنس والطرب، وانتشرت الإباحية والغزل بالغلمان .

وقد رسم لنا الجاحظ صورة عن المجتمع العباسي الذي تهالك على اللذات وانتشر فيه المجون،ولعبت القيان دورا هاما في الانحلال الخلقي،الذي يبدوا واضحا في رسالة اسمها " **القيان** "؛ إذ يصف فيها حركات القينة، وصفاتها كالغدر والخيانة، وما هي عليه من الإباحية والزنا،ويعود سبب ذلك برأي الجاحظ إلى سوء التربية البيئية، وفساد المجتمع يقول الجاحظ: «...وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون من الاجتماع،ويتغايرون عند الالتقاء، فتبكي لواحد بعين، وتضحك لآخر بالأخرى وتغمز هذا بذاك، وتعطي الواحد سرها والآخر

---

[1]-في الأدب العباسي – رؤى نقدية –: فاطمة الزهراء علي الموافى، مكتبة الآداب، – القاهرة –، ط1 (1429هـ-2008م)، ص 119.

[2]-حضارة العرب في العصر العباسي:حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات، – بيروت –، ط1 (1414هـ – 1994 م)، ص 13.

علانيتها، وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذي يظهر خلاف ضميرها ...» [1].

كما يظهر جليا الانحراف الخلقي الذي شاع في رسالة "**مفاخرة الجواري والغلمان**"؛ التي دار فيها حوار بين شخصين أحدهما يفضل الجواري والآخر يميل إلى الغلمان[2].

إضافة إلى هذا فقد فتحت قصور الخلفاء أبوابها لذوي النبوغ والأدب، وأجزلت لهم العطاء وكثر الظراف، بل وأصبح الظرف أسلوبا واسعا من أساليب الحياة[3].

ولو نظرنا إلى المجتمع العباسي لوجدناه يقوم على طبقة عليا، وطبقة وسطى، وأخرى دنيا؛فالأولى تغرق في النعيم، لأنها طبقة الخلفاء والوزراء، والولاة والقواد، وكبار رجال الدولة، والثانية تختلف أحوالهم بين الطبقتين العليا والدنيا، فقد كان منهم الصناع والعلماء والمغنون، والشعراء ورجال الجيش، والتجار، وموظفو الدواوين، والثالثة يقع عليها عبئ العمل كله في الزراعة والصناعات الصغيرة،وخدمة أرباب القصور[4].

عدا المجون والانحلال الخلقي عرف المجتمع العباسي – ولاسيما في بغداد – ظاهرة أخرى هي الشعوبية؛والتي تعني تعصب كل شعب لقوميته وحضارته ضد العرب، وقد نجمت عن تعدد الشعوب التي ضمها المجتمع العباسي، وبما أن العرب يمثلون الأمة الحاكمة فقد اتجهت الشعوبية ضدهم فحاول أبناء الشعوب الأخرى أن يثبتوا هويتهم للعرب، وذهبوا أبعد من ذلك فقالوا إنهم الأفضل.

وقد عكست لنا كتب الجاحظ هذه الظاهرة وخاصة كتابيه "**البيان والتبيين**" و"**الحيوان**" وكان الفرس أقوى الفئات شعوبية وأشدها تعصبا لقوميتها وتراثها؛ على اعتبار أن الدولة العباسية قامت على أكتافهم، وبسيوفهم انهارت الدولة الأموية[5].

---

[1]–رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة القيان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، – القاهرة –، ط1 (1399هـ - 1979 م)، ج2،ص 175.

[2]–**ينظر**: المصدر نفسه: رسالة مفاخرة الجواري والغلمان، ص 95. لمزيد من التفصيل.

[3]–**ينظر**: المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 42. لمزيد من التفصيل.

[4]–الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي:ابتسام أحمد حمدان، مراجعة وتدقيق: أحمد عبد الله فرهود دار القلم العربي،- حلب –، ط1 (1418هـ - 1997 م)، ص 95، بتصرف.

[5]–المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 41 – 42، بتصرف.

« وبجوار تيار اللهو والمجون كانت مساجد بغداد عامرة بالعباد والنّساك وأهل التقوى والصلاح والتحم الوعظ بالقصص للعظة والعبرة، وبجانب هؤلاء الوعاظ أمثال:"**عمرو بن عبيد**"(**ت143 هـ**) و"**ابن السماك**"(**ت344 هـ**)، وكثير من النّساك الذين يحيون حياة الزهد»[1].

وجملة القول؛ إن الدولة الإسلامية لم تبلغ قمة مجدها في التألق والثروة مرتبة أعلى مما بلغته في العصر العباسي، و لم تصل في تاريخها إلى عصر أزهى وأنضر؛ إذ استقرت دعائمها استقرار عظيما وأرسيت قواعدها على أساس قوي متين، فمنه أصبحت تفيض بحياة رفيعة يظلها الإسلام وتقوّمها لغة القرآن .

2 الحياة الاقتصادية:

إن الاستقرار السياسي في الدولة العباسية كان سببا قويا في ازدهار الحياة الاقتصادية في هذا العصر؛ إذ لم تبلغ الدولة الإسلامية في بذخها ورخائها ونهضة مختلفة الصناعات فيها، مرتبة أعلى مما بلغته في العصر العباسي؛إذ باتساع رقعة الدولة الإسلامية وكثرة ولاياتها وأمصارها المفتوحة،كثرت مواردها الاقتصادية، وزادت إيراداتها المالية «وقد ساعد موقع البصرة الاستراتيجي في حركة البذخ والرخاء الذي عرفه العصر، فهي ميناء ضخم من أعظم الموانئ العراقية، ترد عليه البضائع من أقاصي الصين والهند، كالحرير والمسك والخشب وغيرها من البضائع، كما تمتاز بشبكة مواصلات هامة بحرية ونهرية وبرية»[2]، إضافة إلى موقع بغداد نفسه «الذي يقع بين إيران والعراق وهو قريب من بابل واصطخر،كما أنها تقع في أرض السواد الخصبة، وتمر بها الطرق التجارية الرئيسية ومن السهل الوصول إليها عن طريق الأنهار من ساحل البحر كما أنها محمية من الصحراء» [3]. وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب والخراج، وقد ذهب المؤرخون أن الرشيد عندما استولى على " هرقلة " و"طوانة"

---

[1]-الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي: ابتسام أحمد حمدان،ص22.

[2]-الجانب الاعتزالي عند الجاحظ: بلقاسم الغالي، ص 19.

[3]-دراسات في تاريخ الدولة العباسية: حسن الباشا، ص 27.

وغيرهما من أمهات المدن أخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية[1].

وكان المال الذي يأتي من مختلف الموارد ينفق على مصالح الدولة، فتدفع منه رواتب القضاة والولاة والعلماء وباقي الموظفين، أضف إلى ذاك، رواتب الجند، وكراء الأنهار وحفر الترع للزراعة وكذلك النفقة على المساجين وأسرى المشركين وعلى المعدات الحربية،والعطايا والهبات والمنح التي يمنحها الخلفاء والوزراء والأمراء للشعراء والعلماء.

وقد قدر بعض المؤرخين أن «دخل الدولة العباسية بلغ في عهد الرشيد **272** مليون درهم وأن نفقة المأمون بلغت ستة آلاف دينار في كل يوم،ومع توافر موارد الدولة فاضت خزائنها حتى عمّ الرخاء وانخفضت أسعار الحاجيات»[2].

حتى قيل بأن «أيام المتوكل كانت في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها،وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أحسن من أمن السبيل،ورخص السعر،وأماني الحب وأيام الشباب»[3].

وخلاصة القول إن الخلفاء العباسيين اهتموا بكل المجالات الاقتصادية: الزراعة والصناعة والتجارة وحرصوا على تطويرها،فوفروا لها ما استطاعوا من الإمكانات مما أدى إلى انتعاش الحياة الاقتصادية في الدولة،وامتلأت خزائن الخلفاء وعمّ النماء والرخاء.

3 الحياة العلمية والثقافية:

خطت الأمة الإسلامية في العصر العباسي خطوة جديدة في حياتها العقلية، وحركاتها العلمية من نتاجها الفكري،وكان هذا نتيجة لازمة لما أحاط بالدولة من عوامل أسهمت في هذا التطور،لعل أبرزها الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي بين العرب وغيرهم من الأمم؛ إذ فتح الباب على مصراعيه للدخول إلى ميادين الحضارة بشتى وجوهها، ومعرفة أدواتها وعلى رأسها العلم وتحكيم العقل والتعرف على ما لدى الآخرين من انجازات حضارية والإفادة منها: فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها أخذها، ومن خلال التحصن بما اشتملت عليه تعاليم الإسلام، استطاع

---

[1]-البلاغة الشعرية في كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ: محمد علي زكي صباغ،ص 20، بتصرف.

[2]-حضارة العرب في العصر العباسي: حسين الحاج حسن، ص 42.

[3]-مروج الذهب ومعادن الجوهر:المسعودي، اعتنى به وراجعه: كمال حسن المرعي، المكتبة العصرية، - صيدا – (د.ط) (1428هـ - 2007م)،ج4، ص99.

العباسيون بناء حضارة زاهرة .

و في هذا الجو ازدهرت العلوم والآداب والفنون على اختلاف أنواعها، وراحت العقول الإسلامية تبحث وتنقب وتبتكر، وواصلت السير إلى أن بلغت الغاية في التسابق الحضاري.

ورأينا العلوم الدنيوية تفيض فيضا في الدولة الإسلامية، فتترجم الفلسفة اليونانية ويترجم تاريخ الأمم من فرس ويونان وروما وغيرهم.، ورأينا الإلهيات اليونانية تعرض ويعرض بجانبها الديانات الأخرى، ورأينا أرباب الديانات يتجادلون في أديانهم، ويقفون مواقف الهجوم والدفاع؛ كل هذا سبب حياة عقلية جديدة[1]. إذ كان لانتقال مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد،وفي اعتماد الخلفاء العباسيين منذ البداية على الفرس،الأثر الكبير في نشاط الجانب الحضاري،وفي الوقت نفسه اهتم المسلمون بالعلوم النقلية وعلوم العربية[2] إذ نظم العلماء أنفسهم فرقا، كل فرقة تغزو الجهل أو الفوضى في ناحيتها، حتى تخضعها لنظامها، فرقة للغة، وفرقة للنحو، وفرقة للحديث، وفرقة للكلام،وفرقة للتفسير، ...الخ .

وقد نشطت الحياة العلمية نشاطا ملحوظا في شتى جوانبها، نتيجة لما مرت به الدولة العباسية من تطورات، في مقدمتها تلاقح الأفكار، وامتزاج الثقافات نتيجة انفتاح العرب على الأمم الأخرى أدى بدوره إلى تطور العقل العربي، ونمو الوعي، وانتشار التعليم الذي شكل النواة الرئيسية لهذه الحركة العلمية . فتعددت معاهد العلم، وتنوعت العلوم .

و كما تنوعت العلوم، تباينت كذلك حلقات الدروس، فكانت حلقة الدروس، وحلقة الأدباء وحلقة النحاة،وحلقة الشعراء .

مثال حلقات النحو:ما حكاه"**ياقوت الحموي**"(ت**626**هـ) عن **الأخفش** قال: «وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائي وصليت خلفه الغداة، فلما انفلت من صلاته وقعد وبين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان، سلمت وسألته عن مائة مسألة، فأجاب بجوابات خطأته في جميعها...»[3].

وقد كثرت هذه المناظرات وازدهرت في العصر نتيجة الشغف العلمي الكبير الذي كان لدى العلماء وطمعا في عطايا الخلفاء، أو لنيل حظوة عندهم أو رغبة في الوصول إلى الحق أو غيرها .

---

[1]-ضحى الإسلام: أحمد أمين، دار نوبليس، بيروت، ط1 (2006)،ج3، ص 350، بتصرف.

[2]-التاريخ العباسي السياسي والحضاري : إبراهيم أيوب،دار الكتاب العلمي – بيروت – ط1(1989)،ص263، بتصرف.

[3]-معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1(1993)، ج4، ص143.

وقد كانت العصبية للبلاد وللنمط العلمي أهم وقود لإشعال نار تلك المناظرات واستمرارها .

و على كل حال كانت هذه المجالس والمناظرات سببا من أسباب الرقي العلمي؛ فقد حفزت العلماء للبحث والنظر، وحملتهم على الجد لتصفية المسائل.

وكان إلى جوار الروافد الثقافية السابقة رافد فاعل وهو المكتبات التي تعد أحد أهم الدعائم الأساسية التي تشاد عليها صروح العلم، وتتألق الثقافة، وتزهو الحضارة؛حيث مع نشاط حركة الترجمة والتأليف، وظهور الوراقين، كثرت المكتبات التي تعد انعكاسا لمدى تطور العرب بين الأمم، ودليل على سعة أفقهم العقلي، وزيادة تقدمهم الحضاري .

ومن أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي **بيت الحكمة** الذي يعتبر مؤسسة علمية من الطراز الراقي اهتمت بترقية الأبحاث العلمية والأدبية والفقهية والفلسفية، وتجردت للدراسات العليا،ويمكن القول إن هذه المؤسسة تحولت إلى أكاديمية بمعنى الكلمة[1].

و من الأسباب الهامة أيضا، استخدام الورق،الذي عمّ وانتشر وذلك«عندما طما بحر التأليف والتدوين وكثرت تراسم السلطان وصكوكه،و ضاق الرّق عن ذلك، أشار " **الفضل بن يحي البرمكي**"(**ت190 هـ**)، بصناعة الكاغد – الورق – وصنعه»[2]، فنشطت الكتابة ووفر الإنتاج الفكري والتأليف.

ونتيجة لكثرة المصنفات احتيج إلى النسخ وجاءت صناعة الوراقين، فصارت دكاكين الوراقين مراكز للنشاط العقلي، ومستودعا لما أنتجته القريحة العربية، ودليلا واضحا على خصوبة الفكر العربي، وقد ذكر " **ابن النديم** "(**ت375 هـ**)، أن الجاحظ كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر[3].

وفي الأخير: ذلك هو عصر " **الجاحظ** "، وتلك هي بيئته التي تفاعل معها،و فترته التي

---

[1]-**ينظر**:حضارة العرب في العصر العباسي:حسين حاج حسن، ص 38، لمزيد من التفصيل.

[2]-مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، تحقيق:درويش الجويدي، المكتبة العصرية،- بيروت-،(د.ط)،(1429 هـ-2008 م) ص 392.

[3]-الفهرست: ابن النديم، حققه وقدم له: مصطفى الشويمي، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر -، (د،ط) (2007م)، ص515، بتصرف.

عاصرها، والتي اشتدت فيها الصراعات الفكرية واحتد فيها حوار الحضارات والثقافات، وسعت خلالها الشعوب أن تبتلع القومية العربية، وفي لجة هذا الصدام تفاعلت الثقافات وتشعبت مناهج العصر، وكان الجاحظ قد انفتح على اهتمامات الفكر وكان للكلمة مفعولها في معترك العصـــر فكتب في مجمل تلك الاهتمامات،و أثرت على فكره وظهرت واضحة جلية في مؤلفاته التي تعد أصدق شاهد على عصره، ونظرا للطابع الإنساني لتراثه فإن الجاحظ ينبغي أن يحظى بالعالمية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: ترجمة الجاحظ:

1 سيرته وحياته:

عاش الجاحظ في عهدين متميزين: عصر بصري، استقبل فيه الحياة وأسبابها، وعهد بغدادي شاع فيه ذكره وعلا نجمه في المجالين: العلمي والأدبي .

وكان العهد الأول من حياته عهد تحصيل ومراقبة، فقد كانت البصـــرة – مســـقط رأس الجاحظ ودائرة نشأته – عاصمة الدنيا آنذاك، وفي هذه المدينة العجيبة قضى الجـــاحظ نصـــف عمره، متنقلا بين أسواقها ومساجدها، مترددا على مجالسها ومختلطا بأهلها من عـــرب وعجـــم وموال، أما العهد الثاني فقد كان عهد إنتاج وعطاء وشهرة، بعد أن تربع الجاحظ على عـــرش العاصمة .

فمن هو الجاحظ؟ وكيف كانت سيرة حياته؟

«هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني،البصري،المعتزلي،أبو عثمان،المعروف بالجاحظ» [1].

أما عن سنة ميلاده، فلم تحدد بالضبط، واختلف فيها الدارسون الذين اعتنوا بحياة هـــذا العلم البارز، فذهب الدكتور " **جميل جبر** " إلى أنه ولد بالبصرة، سنة **160هـ/776م** على الرغم من أن " **ياقوت الحموي**"(**ت 622هـ**)أورد قول" **الجاحظ** " الذي يؤكد فيه أنه ولـــد في أول سنة **150 هـ** إذ قال: " أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولد في أول سنة خمسين ومائة، وولدت في آخرها "[2]. إلا أن هذا القول يتعارض مع الآراء التي حددت ميلاد أبي نواس بســـنة **146 هـ**.

وهناك من يذهب إلى أنه أبصر النور سنة **155 هـ** وجعلها بعضهم **159هـ**، وارتقـــى آخرون إلى سنة **160 هـ**، وبلغ بها "**ابن خلدون**"(**ت 808هـ**)في " المقدمة" سنة**163هـ**.

و إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما أورده "**ياقوت الحموي**" في "معجـــم الأدبـــاء"، و"**ابـــن خلكان**"(**ت 681هـ**) في "وفيات الأعيان"، من أنّ الجاحظ قال "**للمبرد**"(**ت 285هـ**) عندما دخل عليه في آخر أيامه وسأله عن حاله: «كيف يكون من نصفه مفلوج، لو حزّ بالمناشير مـــا

---

[1]-معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت –، (د.ط)، (د.ت.ط)، ج8، ص 07.

[2]-معجم الأدباء:ياقوت الحموي، ج5، ص 2101.

شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذّباب بقربه لآلمه، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ...»[1].

و ما ذكره"**السيوطي**"(**ت 911هـ**) في " بغية الوعاة "، من أن الجاحظ توفي وقد جاوز التسعين .

يمكننا القول إن ميلاده على الأرجح – كان سنة **159 هـ**.

وكما اختلفت الأقوال بشأن سنة ميلاده، فقد تباينت آراء كتاب التراجم، ومحررو الأنساب حول أصله.

فقيل أنه كناني صليبة بني كنانة إحدى القبائل المضرية المشهورة، وقيل أن نسبته إلى كنانة نسبة ولاء فقط.

ويذهب "**ابن خلدون**" في "المقدمة"، و"**أحمد أمين**"(**ت 1373هـ**) في "ضحى الإسلام" "**وطه الحاجري**" في "الجاحظ حياته وآثاره وغيرهم"، إلى القول بأنه كناني بالولاء . وأن اسمه هو «عمرو بن بحر بن محبوب: أبو عثمان مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني أحد النسّاء»[2].

و قد اعتمد هؤلاء وغيرهم على قول "يموت بن المزرع" – ابن بنت أخت الجاحظ – الذي أورده ياقوت الحموي، إذ قال: «الجاحظ خال أمي، وكان جد الجاحظ أسودا، يقال له فزارة، وكان جمالا لعمرو بن قلع الكناني»[3].

و يذهب "**عمر رضا كحالة**"(**ت 1408هـ**) في "معجم المؤلفين" و"**ابن خلكان**" في "وفيات الأعيان" و"**محمد كرد علي**"(**ت 1953هـ**) في "أمراء البيان"، وغيرهم إلى القول بأنه كناني صليبة وأنه عربي صميم. وأن اسمه هو: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي [4].

ويعتمد هؤلاء وغيرهم – على الوقائع التاريخية التي حدثت في حياة هذا العلم البارز

---

[1]-معجم الأدباء: ياقوت الحموي،ج5، ص 2101.

[2]-المصدر نفسه.

[3]-المصدر نفسه.

[4]-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر،- بيروت-، (د.ط)،(د.ت.ط)،ج3 ص 471.

ووقوفه مع العرب بلسانه وقلمه،و تكريس جهده لخدمة العرب ووقوفه ضد الشعوبية والراجح عندنا على تضارب الآراء – الأخذ برأي الدكتور "**طه الحاجري**" الذي سلم فيه بولاء الجاحظ معتمدا على قول "**يموت بن المزرع**" الذي أورده "**ياقوت الحموي**" .

«و ولاء الجاحظ لا يمنعه من خدمة العرب والعربية، ولا يقف في وجه تزعمه لأكبر حركة قامت في وجه الشعوبية، لأنه ولاء ضعيف خفي، قدم عليه الزمان، وتوالت عليه الأجيال، وقد سبق القول إلى أنه ولاء يعود إلى قبل الإسلام بدهر – على اعتبار جده أحد النساء – وما أجدر هذا الزمان أن يهلهله، ويخفي آثاره، ويمزق الأسباب التي تربطه بأوليائه»[1].

أما عن الشكوك التي قد تثار حول عروقه، والتي قد تكون نقطة ضعف يهاجمه بها الخصوم، فإن الجاحظ قد شاع ذكره، وعلا قدره حتى أصبح أشهر من يتجرأ عليه نتيجة للمكانة التي رسمها لنفسه حتى صار يمثل ثقافة قرن، وحضارة أمة .

فقد ذكر "**ياقوت الحموي**"، أنه قيل "**لأبي هفان**" وقد طال ذكر الجاحظ له:

«لم لا تهجو الجاحظ، وقد ندد بك، وأخذ بمخنّقك فقال: أمثلي يخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة»[2].

أما كنيته، فأبو عثمان وكثيرا ما كان ينسى هذه الكنية، فقد روى "ياقوت الحموي"، قال «حدثت أن الجاحظ قال: نسيت كنيتي ثلاث أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بما أكنى؟ فقالوا: بأبي عثمان»[3].

و أما لقبه الذي غلب عليه واشتهر به فهو "الجاحظ"، فقد أجمعت المصادر أنه كان جاحظ العينين، بارزهما، ناتئهما، لذلك لقب بالجاحظ، والحدقي أيضا[4].

«وكان مع فضائله مشوه الخلقة، بشعا دميم الوجه، قصير القامة، ضرب المثل ببشاعته حتى قيل فيه:

---

[1]-الجاحظ،حياته وآثاره:طه الحاجري،دار المعارف،- مصر -،(د.ط)،(1962 م)،ص84.

[2]-معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج5، ص 2114.

[3]-المصدر نفسه،ص 2101.

[4]-وفيات الأعيان: ابن خلكان، ص 471.

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا * ما كان إلا دون قبح الجاحظ»** [1]

مما جعل "المتوكل" يصرفه عن تأديب ولده حين رآه، يقول الجاحظ في هذا الصدد: «ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني ...»[2] .

على أن بشاعته الخلقية اكتسبت نوعا ما من الدعابة الممزوجة بالجد، أنست الناس ما هو عليه فكان خفيف الروح، حسن العشرة، يتهافت الناس للاستماع لنوادره وأدبه.

فقد قال عن نفسه: «ما أخجلني إلا امرأتان: رأيت إحداهما في العسكر وكانت طويلة القامة وكنت على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت "انزلي كلي معنا" فقالت: "اصعد أنت حتى ترى الدنيا" – معرضة بقصره ...، وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي أليك حاجة وأنا أريد أن تمشي معي، فقمت معها إلى أن أتت بي صائغ يهودي، فقالت له: "مثل هذا" وانصرفت، فسألت الصائغ عن قولها، فقال: إنها أتت إلي بفص وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان، فقلت: يا سيدتي: ما رأيت الشيطان، فأتت بك ...» [3] .

ولد الجاحظ بالبصرة في أسرة متواضعة في منبتها وفي طبقتها الاجتماعية، فقد توفي والده منذ حداثة سنه، مما دفع به إلى مواجهة أعباء الحياة مبكرا، وكسب قوته بنفسه فباع الخبز والسمك "**بسيحان**" ليعين نفسه وأمه على أسباب الحياة .

وقد كان الجاحظ يتلمس من عمله رزقه اليومي ينبوعه الأدبي، فقد كان يكتسب من التجار الوافدين على مدينة البصرة، والذين كان يبيع لهم،خبرة كبيرة وتجربة واسعة.

أما أمه فلا يعرف عنها إلا أنها كانت فقيرة معدمة تعيش في ضنك، خاصة بعد موت زوجها، وإنفاقها على ابنها مما دفع بها في بداية الأمر أن تعرض عن مسألة العلم والتعليم وتضع لابنها بدل الإفطار كراسات على المائدة، لأنها تريد عيشة كريمة .

إذ حالت الأقدار بين هذا الطفل وحنان الأبوة وجمال الخلقة، إلا أنه ما لبث أن تخطى

---

[1]-الجاحظ ومجتمع عصره:جميل جبر، المطبعة الكاثوليكية، – بيروت –، (د.ط)، (1958 م)، ص 16.

[2]-مروج الذهب: المسعودي، ج04، ص 82.

[3]-الجاحظ ومجتمع عصره: جميل جبر، ص 17.

واقعه وعمل لمستقبله ونجح بعقل متفتح ورؤية عميقة، فأنسانا صورته الخارجية وأظهر لنا صورته الحقيقية، فأصبحنا أمام عقل مفكر، وأديب بارع وعالم مدبر ومحدّث فكه، فقد جعل الجاحظ من بشاعته جمالا ومن ضعفه قوة .

وبالرغم من حياته الصعبة، إلا أنه ابتدأ بتعلم القراءة والكتابة «ويظهر أنه أتيح له في ذلك العهد، عهد الكتاب،من المعلمين من كان في طبقة فوق طبقة عامتهم،فشحذ طبعه، وألهب تطلعه كأبي الوزير وأبي عدنان المعلمين»[1].

فقد أثرا فيه تأثيرا بليغا، وكان الجاحظ يكنّ لهما ودّا وتقديرا كبيرين، ولعل هذين هما اللذان أثارا فيه تلمس طريق مسجد البصرة ومربدها، أين يتلقى اللغة والفصاحة شفاها من الأعراب. «فقد كان هذا المسجد، وذلك المربد، يعملان على تخريج رجالات الدولة وزعماء الأدب وأئمة الدين ...إذ كانا من الأماكن العامة التي لا يخطر على أحد غشيانها والتلقي عنها»[2].

وهكذا أمضى الجاحظ الشق الأول من حياته مقبلا على التعلم، حريصا على التحصيل حتى أدمن على القراءة، وصار من شدة ولعه بها يكتري دكاكين الوراقين ليبيت فيها للنظر في مختلف العلوم، حتى إنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته .

و مع كل هذا السّعي الجاد نضجت شخصية الجاحظ العلمية، و لم تكن البصرة على رحابتها لتكفي تطلعات هذا العلم، ففتحت له بغداد ذراعيها ليتربع على عرش مجدها.

فأفاد كثيرا من وجوده فيها، وتابع دروسه في مجالس أعلامها، واتصل بأساطين اللغة وعظائمها، وتتلمذ على أساتذة كانوا زينة الدنيا، وغرة في جبين الدولة الإسلامية،أمثال:

إبراهيم بن سيار النظام(**ت231هـ**)، أبو الهذيل العلاف(**ت235هـ**)، بشر بن المعتمر (**ت210هـ**) ثمامة بن الأشرس(**ت 213 هـ**)، أبو زيد الأنصاري (**ت 326هـ**)، أبو عبيدة (**ت210هـ**)... وغيرهم. وإذا نهل "الجاحظ" من معين هؤلاء، فلا يعجب أن يتسنّم عصره ويكون ذا رأي حر وفكر عميق،و بديهة لماحة،و أن يبقى هذا الأدب،و ذلك العلم ومنارة

---

[1]-الجاحظ ومجتمع عصره: طه الحاجري، ص 93.

[2]-المرجع نفسه، ص94.

للسالكين.

و مما ساعد في تكوين شخصيته،انتشار المكتبات في سائر الدولة والتي حوت نفائس الكتب العلمية والفلسفية والأدبية بشتى اللغات،و لعل الجاحظ صاحب النفس الطلعة قد ارتاد هذه المكتبات،فشعت هذه الثقافة المتسعة،و كان الخصب والثراء والتنوع في نتاجه.

كما كانت حلقات المسجدين إحدى أهم العوامل التي ساهمت في رسم شخصيته، فقد كان الجاحظ يغشى المسجد كثيرا منذ نعومة أظافره، وقد شهد صراع المذاهب، وجدال الفرق وتأثر به، كما حضر مسائل العلم المتنوعة التي كانت تعقد فيه.

إضافة إلى المسجد، كان سوق المربد منبعا هاما تلقف منه الجاحظ اللغة حية، من أفواه الأعراب الخلص، فقد كان يرتاده الشعراء والأدباء والعلماء، وتعقد فيه المناظرات وتتم فيه المساجلات، وقد حرص الجاحظ أن يغدو عليه،و يأخذ منه العلم الوفير .

و قد ترك المربد في ثقافة الجاحظ علامة مميزة وبصمات لا تمحى من ذلك أشعار البادية المبثوثة في تضاعيف مصنفاته[1].

أيضا، كان للمجالس الأدبية والعلمية التي كانت تعقد في عصره إسهام كبير في تكوينه العقلي، وتوسيع آفاقه، وقد برز أثارها في نزوعه الفكري إلى الجدل والمناظرة[2].

كما كان للثقافات والآداب الأجنبية أثر لا ينكر على شخصيته ونتاجه ن فقد طعم تلك العلوم التي حصلها من الثقافة العربية بعلوم مستحدثة كالمنطق والفلسفة وغيرهما، حتى صار فكره خزانة علوم، ودائرة معارف نتيجة سعة إطلاعه .

تلك هي العوامل التي أسهمت في تكوين الجاحظ الفكري، وتركت بصمة واضحة فيه تجلت بوضوح في تنوع مصنفاته وكثرتها حتى صارت دوائر معارف .

أما عن مكانته بين كتاب عصره،فإن الجاحظ «يوضع على رأس كتاب العصر العباسي غير مدافع ولا منازع، باعتباره أحد رؤوس المعتزلة الذين اشتهروا إضافة إلى جدلهم وثقافاتهم

---

[1]-**ينظر**:الجانب الاعتزالي عند الجاحظ: بلقاسم الغالي،ص 71،لمزيد من التفصيل.

[2]-**ينظر**:المرجع نفسه، ص 72. لمزيد من التفصيل.

بفصاحتهم وبلاغتهم»[1].

ومهما يكن فقد «لقف الجاحظ في بيئته الجدلة اللسنة فصاحته وبيانه،و نحن لا نكاد نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد استوت له شهرة فائقة بين كتاب عصره»[2].

فقد كان الكتاب والأدباء في عصر أبي عثمان يتمايزون في ضروب العلم وأصنافه، وهم كل منهم الاختصاص بضرب واحد أو ضربين من العلوم والمعارف، فلما برز الجاحظ واستحكمت مواهبه لم تقف همته عند ضرب واحد، بل عاهد نفسه أن يبذ جميع من تقدمه أو عاصره من الكتاب والأدباء.

وفعلا استطاع ذلك؛ إذ جمع كل العلوم ومختلف الاختصاصات، حتى صار فكره دائرة معارف وكان أول من اتخذ التأليف صناعة يبرز بها نفسه، ويصنع بها مكانته الأدبية ولعل ذلك ما جعل المأمون يأمره بتأليف كتب تعالج موضوع الخلافة، فاستجاب له أبو عثمان، وصنف كتبا في الإمامة.

وكلف المأمون اليزيدي (**ت 202 هـ**) بالنظر فيها، وتقديم تقرير عنها[3]، ويستفاد من كلام الجاحظ في "البيان والتبيين" أن الخليفة وجد هذه الكتب على ما أمر به عندما اطلع عليها، من إحكام الصنعة وكثرة الفائدة وخدمة الغرض ونصرة العباسية.

و لا يخفى ما في هذا الرضا من أهمية، فهو يجعل صاحبه يتبوأ المنزلة الرفيعة، ويخلع عليه حال المجد والسؤدد؛ إذ لم يقتصر المأمون على مجرد إبداء إعجابه بكتب الجاحظ حول الإمامة، إنما عينه رئيسا لديوان الرسائل، غير أن الجاحظ لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام واستعفى فأعفى.

وقد كان سهل بن هارون يقول:«إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان، أفل نجم الكتاب»[4].

وهذا نتيجة عبقريته الفذة التي ترسل أضوائها اللامعة، ليشيع نور العلم والأدب على غيره.

وكأن الجاحظ الذي عاش الحرية بأجلى معانيها ومختلف أنواعها لم يستطع أن يظل أسيرا

---

[1]-الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط11،(د.ت.ط)، ص 156.

[2]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 56.

[3]-معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج5، ص2103.

[4]-المصدر نفسه.

لنظم الدواوين، وقوانين العمل بها، فما هي إلا ثلاثة أيام وإذا به يعود إلى حياته العادية وما ألفه من إدمان القراءة والمطالعة والعطاء.

وفي عهد المأمون أيضا عاصر الجاحظ محنة القول بخلق القرآن، واشترك في تفاصيلها وبهذا ينتهي عهده الأول في البصرة: عهد تحصيل العلم،و كسب الرزق، ويبدأ عهده الثاني في بغداد: عهد العطاء، والغنى والشهرة، الذي استمر نحو نصف قرن من الزمان،عاش فيه الجاحظ مقربا من قصر الخلافة حائزا على رضا أصحاب السلطان.

وكانت سنه متقدمة عندما أخذت الأيام تذوي قوته، فأثقله المرض، وألزمه الفراش في سامراء فعزم العودة إلى موطنه الأصلي البصرة،و لازم بيته وقطع فراغه للكتابة.

وقد كان الجاحظ مصابا بمرضين هما الفالج النصفي والنقرس، ويروى "ياقوت الحموي" عنه الجاحظ كان ب "**سر من رأى**" عندما دخل عليه "أبو معاذ عبدان المتطبب" يعوده وقد فلج،فلما أخذ مجلسه،أتى رسول المتوكل إليه فقال: «وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل؟ **!**» ثم أقبل علينا وقال: «ما تقولون في رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوّث،و أكثر ما أشكوه الثمانون» [1].

و يروى عن أبي العباس المبرد تلميذه وصديقه أنه قال: «دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب من قربه لآلمه، وأشد من ذلك ست وتسعون أنا فيها ثم أنشدنا:

أترجو أن تكون وأنت شيخ * كما قد كنت أيام الشباب**

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب * درس كالحديد من الثياب**

وكان يقول: «أنا من جانبي الأيسر مفلوج، لو قرض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن منقرس لو مر به الذباب لآلمه، وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون» [2]. وهذا القول يدل على مرض ثالث،وهو الرمل،أو تجمع الحصى في المجاري البولية.

و قد هبت رياح الموت على تلك الشعلة فأطفأتها،ومات الجاحظ سواء من قصة الكتب

---

[1]-معجم الأدباء: ياقوت الحموي:، ج5، ص 2116.

[2]-وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج3، ص 273.

التي وقعت عليه،أو من علته.وكانت وفاته في **المحرم** من سنة **255هـ** بإجماع المؤرخين[1].

2 – صنعته وأسلوبه:

كان التطلع إلى معرفة كل شيء أبرز الخصائص العقلية للجاحظ منذ صغره، وقد كان له أثر كبير في توجيه أدبه، وإضفاء صفات فنية مميزة على صنعته،ما جعل من مؤلفاته دوائر معارف؛فقد كتب في حجج النبوة والبيان، وفي الإنسان،و النبات والحيوان والقيان والجواري والغلمان وفي العشق والنساء، كما عالج مختلف مظاهر عصره، السياسية والاجتماعية بطوائفه الدينية وفرقه الكلامية .

«و إن في هذا ما يدل على أن الجاحظ قد خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن مختلف الموضوعات، بأسلوب رائع وبيان عذب» [2].

فلم يكن مجرد مقرر لمعارف ومظاهر عصره إنما كان أديبا متميزا يخرج ما يجمعه إخراجا طريفا،بأسلوب فني منفرد تتحلى فيه شخصيته الموسوعية وبراعته الفنية .

فجاءت كتاباته تعالج موضوعات محددة بأرقى أسلوب وأروع تعبير، فجمع بذلك بين الحسنيين؛ الشكل والمضمون، وقد صرح الجاحظ بذلك عندما قال: و«الأسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح،و اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح » [3].

إذن فقد كانت عناية أبي عثمان بألفاظه ومعانيه جميعا دون أن يجور أحدهما على الآخر هي الطابع العام الذي يغلب على كتاباته، إذ كان ينكر العناية المفرطة باللفظ والتي تؤدي بصاحبها إلى حفظ قوالب بعينها، يصوغ عليها أفكاره على اختلافها، ويبني عليها معانيه على تنوعها لدرجة أنه يصير يجر إليها المعاني جرا على حد تعبيره عندما قال: «شر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقا لذلك اللفظ، وشغفا بذلك الاسم، حتى صار يجر إليه المعنى جرا، ويلزقه به إلزاقا، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره » [4].

---

[1]–**ينظر**:المصدر نفسه، ج05، ص 474. لمزيد من التفصيل.

[2]–الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، ص 161.

[3]–رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ج 1، ص 262.

[4]–المصدر نفسه، رسالة المعلمين، ج3، ص40.ص34

إذن فقد اعتنى الجاحظ بأساليبه عناية فائقة، وراح يدقق في اختيار ألفاظه، كل معنى وما يشاكله،الشريف للشريف والخسيس للخسيس،مما أدى به إلى أن يلهج بفكرة لكل مقام مقال .

أما عن الصفات الفنية الأساسية التي تميزت بها صنعته، وطغت على كتاباته فتتمثل أولا في **الصدق والواقعية**[1]؛ إذ استطاع الجاحظ ببراعة في الأداء وروعة في الأسلوب أن يربط بين الأدب والحياة،إذ راح أبو عثمان يصف المجتمع بكل أحداثه ووقائعه بصورة موضوعية دقيقة، دون تستر ولا حرج ولا تمويه، فقد كان يسمي الأسماء بمسمياتها دون اللجوء إلى المجاز، ولا نزوع إلى الخيال والتلوين.

ويمكن القول إن الجاحظ قد سبق زعماء المدرسة الواقعية في أوروبا بعشرة قرون تقريبا،الذين أكدوا على أن مهمة الأدب هي وصف الحياة، فالأديب عليه أن يصف مجتمعه بموضوعية، ويعرض ما فيه من مساوئ ومحاسن على حقيقتها بطريقة مباشرة دون تزمت أو تستر أو خوف .

هذه الواقعية في كتابات الجاحظ حملته على التدقيق أكثر في انتخاب ألفاظه لدرجة أنه يحكي كلام العوام والمولدين كما هو،بما فيه لحن،حتى يصور الواقع كما هو بألفاظه ذاتها هذا ما جعل كتاباته تعد وثائق حياتية شاملة،اتسمت برؤية عميقة،و لغة سهلة،مميزة؛ إذ لم يترك جانبا من الحياة، أو نماذج من البشر ممن عايشهم أو سمع عنهم، إلا وضمن كتاباته نتفا من طبائعهم أو ميولهم أو أفكارهم،مما يعد قاعدة مهمة لقراءة كثير من أوجه الحياة: السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية في عصره .

و حتى لا يجعل الجاحظ قارئه يضيع في متاهات الخيال التي تبعده عن الواقع، عزف عن المجازات في أسلوبه،إلا ما جاء فيها عفو الخاطر،أو ما كان للإيضاح،فالكتابة عنده ليست زخرفا أو تحسينا إنما هي معان وتفسير وقائع معينة وبأسلوب عذب .

إذن فالجاحظ في كتاباته ينقل لنا الوقائع بكل تفاصيله ودقائقه بتصوير بارع وقص رائع. إضافة إلى الواقعية يعد **الاستطراد**[2] أحد أهم الخصائص التي ميزت كتابات الجاحظ فنراه يخرج من موضوع إلى موضوع، ومن خبر إلى خبر ومن جد إلى هزل، ومن خطبة طويلة إلى حكمة

---

[1]-**ينظر**:الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، ص 166، لمزيد من التفصيل.

[2]-**ينظر**: المصدر نفسه، ص 166-168، لمزيد من التفصيل.

قصيرة أو مثل بليغ،و من حقائق علمية جافة إلى نادرة لطيفة وفكاهة طريفة، ويعود سبب استطراداته الكثيرة إلى خوفه سآمة السامع وخشية ملل القارئ.

أيضا كان لمرضه أثر بالغ، في وسم أدبه بهذه الصفة، وخروجه من باب إلى باب. كما ساعدته ثقافته الموسوعية وإلمامه بمختلف ثقافات عصره من عربية وأجنبية على ظهور هذه النزعة الاستطرادية في كتاباته،إذ كانت هذه الثقافات تنطلق كأنها سيول جارفة .

وقد وصلت عناية أبو عثمان بأساليبه، ومحاولته إجادتها إلى اللجوء إلى ضرب **التقطيع الصوتي**[1] الذي كان يستعين عليه بصور مختلفة كالتكرار والترداد،هذين الضربين اللذين كانا شائعين في مناظرات المتكلمين.

و من هنا طغى " **الازدواج** " هذا اللون البديعي على مؤلفاته، فجاءت كل جملة مقابلة لأختها حتى يصل إلى الجرس الموسيقي، فالجاحظ كما يعني بالإجادة المعنوية يرمي أيضا إلى الإجادة اللفظية. أما ما ميزه عن غيره، وتفرد به، وبذ به أقرانه من كتاب عصره هو اعتماده على المنطق والفلسفة نتيجة تشربه للثقافات الأجنبية المستحدثة في عصره .

فقد تمكن الجاحظ من أن يجعل من هذه المحسنات المنطقية والفلسفية محسنات جمالية تزيد الأسلوب روعة وتألقا، ولعل هذا ما دفع إلى أن يجعل "**المذهب الكلامي**" أحد المحسنات البديعية،كما رأيناه يستعين بالمنطق في تضاعيف أسلوبه ونصرة فكرته، ويلونه بالحجاج الذي يقوم أساسا على مقدمات وأقيسة .

و هكذا تداخل التفكير المنطقي عند الجاحظ مع التفكير الفني، وحصلنا على نتاج جاحظي متفرد يجمع بين الجمال الفني، وبين جمال التفكير وروعة التعبير.

كما أن المتأمل في كتابات الجاحظ يجد أن له مترعا علميا يتجلى بوضوح في بعض إشاراته العلمية،و قد أشار إلى هذا الجانب من تفكيره "ياقوت الحموي"في قوله:«إن الجاحظ عالم مشهور وصاحب تصانيف في كل فن،و له مقالة في أصول الدين،و إليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية»[2].

---

[1]-**ينظر**: الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف،ص 168، لمزيد من التفصيل.

[2]-معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج05، ص 2101.

ولعله يمكننا القول أنه من خلال كتاباته «نلمح بوادر منهج علمي، وأسلوب معرفي متكامل مبني أساسا على الاستقراء والتجربة والاستنباط،مع نزعة الشك ودقة الملاحظة ويتجلى المترع العلمي عنده في المواضيع العلمية التي طرقها مثل: سيكولوجية الحيوان هجرة الطيور، الفعل المنعكس الشرطي ... »[1].

إذن على الرغم من استطرادات الجاحظ، وتنقله من موضوع إلى آخر، فلا يمكن أن ننكر عليه روحه العلمية،و احتفاله بالتبويب،و الشواهد على ذلك كثيرة في مؤلفاته، خاصة " الحيوان " حيث يتضح لنا المنهج المنطقي في معالجته لقضايا الكلامية والفكرية،و قدرته على الملاحظة والمعاينة الشخصية.

كان الجاحظ مزيجا هائلا من الطاقات العلمية والفنية، حيث ملأ الدنيا، وشغل الناس بملكاته النادرة، التي نقلت بواقعية وصدق صور الحياة في مجتمعه، في نمط جديد من الألفاظ والمعاني،و الأفكار والموضوعات، دامجا بين ثقافته الموسوعية وأسلوبه الفذ الرائع، مغذيا العقول بمضامينه، ومطربا الآذان بتلوينه وجرسه، كاشفا عن القلوب السآمة بخفة روحه ونوادره، صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات بطريقة عجيبة وجميلة .

3- آثاره وبعض الآراء فيه:

ورّث الجاحظ الأمة العربية وغيرها من الأمم آثارا في مختلف فروع الثقافة مابين كتب ورسائل والتي لا تزال منبعا خالدا من منابع الثقافة العربية، ومصدرا أصيلا من مصادرها إذ أسدت للعربية والفكر العربي الخير الكثير، وبسطت على ظلام المدنيات المتهافتة النور الوفير .

إذ لم يدع بابا إلا ولجه، ولا موضوعا إلا طرقه، حتى بلغ من التأليف درجة لم يضاهه فيها أحد، حتى قيل أنه بذ من سبقه، ومن لحقه،قال "**المسعودي**"(**ت 346 هـ**): «ولا يعلم أحد من الرواة، وأهل العلم، أكثر كتب منه، وكان له ورّاق اسمه ابن زكرياء »[2].

و قيل أيضا: « أربعة لم يلحقوا و لم يسبقوا: أبو حنيفة (**ت 150 هـ**) في فقهه، والخليل

---

[1]-الروح العلمية عند الجاحظ في كتاب الحيوان: صموئيل عبد الشهيد، دار الكتاب اللبناني – بيروت، ط 1 (1975م) ص35.

[2]-مروج الذهب: المسعودي، ج3، ص 157.

(**ت 175 هـ**)في أدبه، والجاحظ في تأليفه، وأبو تمام (**ت 231هـ**) في شعره ... »[1].

وهو على كثرة تآليفه، انقادت إليه اللغة انقيادا، وأطاعته ألفاظها فأحسن قيادها، حتى إنه لم تعرف العربية كاتبا فرض نفسه كما عرفت الجاحظ، مالئ الدنيا وشاغل الناس، حيث شق طرق المعرفة دون حدود، جمع فأوعى، فكان عبقرية شمخ الدهر بها وزها.

«وربما كان أكثر تأليفه راجع لامتداد عمره، ولقضائه شطرا من حياته مريضا فاضطر إلى ملازمة بيته، وقطع فراغه بالكتابة والتأليف،وربما كان سوء منظره سببا في انصراف الناس عنه،فعنى بصناعة الكتب، ليعرفوا أن وراء هذا الوجه المشوه نفسا جميلة، وروحا فكهة، وذهنا وقاد»[2].

قال "**ابن العميد**"(**ت360 هـ**) يصف كتبه: «كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا»[3] .

كما قال "**المسعودي**" واصفا إياها – على تشيعه وعثمانية الجاحظ : «وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور[4] تجلو صدأ الأذهان،وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم،ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل،ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة،وله كتب حسان منها:"كتاب البيان والتبيين " وهو أشرفها،لأنه جمع فيها بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار،ومستحسن الأخبار،وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به و"كتاب الحيوان"،و"كتاب الطفيليين"، و"كتاب البخلاء"،وسائر كتبه في نهاية الكمال»[5].

وقال عنه " **ابن خلكان** ": « ... العالم المشهور،صاحب التصانيف في كل فن،له مقالة في أصول الدين،وإليه تعرف الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة» [6].

وقد خرج الجاحظ عن زهاء **ثلاثمائة وستين** مؤلفا في ألوان شتى من المعرفة، كما ذكر

---

[1]–البلاغة الشعرية في كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ: محمد علي زكي صباغ، ص 43.

[2]–الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف،ص 161.

[3]–وفيات الأعيان: ابن خلكان،ج3،ص 473.

[4]–يريد ما كان عليه الجاحظ من الاعتزال وعداوة الشيعة،وكان المسعودي شيعيا.

[5]–مروج الذهب:المسعودي، ج 04، ص157.

[6]–وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج03، ص 471.

"**عبد السلام هارون**" محقق كتاب"الحيوان"في مقدمة الكتاب،ورأى أكثرها"**سبط بن الجوزي**" (**ت 654هـ**) في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد.

وذكر" **ياقوت الحموي** " في معجمه مائة وثمانية وعشرين مصنفا[1].

والعجب من تلك الأسفار التي عنى بها الجاحظ أنها لم تبر به، و لم تبادله الوفاء، فغدرت به وكان موته كما قيل بسقوط مجلدات العلم عليه .

وقد ضاع عدد كبير من تلك الثروة الكبيرة التي مثلت حضارة عريقة وفكرا قويما، وذلك بسبب الخمود الذهني،وهبوط الهمم،بالإضافة إلى الفوضى السياسية التي منيت بها الأمة الإسلامية في مسائلها الأول،والتي كانت قائمة في أكثرها على التدمير والتخريب.

ومن مصنفاته:" الحيوان "،"البيان والتبيين "،" البخلاء"،" حجج النبوة "، " نظم القرآن " "رسالة التربيع والتدوير"،" أخلاف الملوك"،"العشق والنساء"، " العرجان والبرصان " "مدح التجار وذم السلطان"،"رسالة المعلمين"،" ذم أخلاق الكتاب"،"سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف"،"تفضيل النطق على الصمت"،"تهذيب الأخلاق " ..... وغيرها.

وقد طرق الجاحظ في كتاباته أبوابا عجيبة،وتقرب إلى العامة،وحرص أشد الحرص على استرضائهم،و لم ينس في ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة في المعارف العالية والسياسات الرفيعة .

إذن تفجر عقل الجاحظ نبوغا،واحتل بكتاباته مكانة مرموقة بين مفكري عصره،وبلغ شأوا بعيدا،حتى صار لايشق له غبارا،وشغل الناس على تباين مستوياتهم .ومما قيل فيه: «أول من بحث في طبائع الأشياء كالحيوان والنبات والمعادن،وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار، ورحل في سبيل تحقيقه العلمي والطبيعي،إلى كثير من الأقاليم والأقطار،وهذه الطريقة هي مفخرة أوروبا وأمريكا وانجلترا في هذا العصر»[2].

وقال"**أبو الفضل بن العميد**":« ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس: أما الفقه فعلى أبي حنيفة لأنه دوّن وخلّد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيرا إليه ومخبرا عنه، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن فعلى أبي عثمان الجاحظ »[3].

---

[1]-**ينظر**:معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج5، ص 2118. لمزيد من التفصيل.

[2]-البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: محمد علي زكي صباغ،ص 105.

[3]-معجم الأدباء:ياقوت الحموي، ج 5، ص 2116.

وقال"**المرزباني**"(**ت384هـ**):قال أبو بكر أحمد بن علي:«كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام، وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا» [1].

وقال **ابن أبي داؤد**(**ت 316هـ**)لمحمد بن منصور،وكان حاضرا:«أنا أثق بظرفه،ولا أثق بدينه»[2].

«وحدث أبو سعيد السيرافي،وهمك من رجل،وناهيك من عالم،وشرعك من صدوق قال: حدثنا جماعة من الصابئين من أهل الكتاب أن " **ثابت بن قرة** " قال: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فإنه:

عقم النساء فلا يلدن شبيهه ** إن النساء بمثله عقم»[3].

وجعل ثالث هؤلاء " الجاحظ " بعد "عمر بن الخطاب" و"الحسن البصري"،وفي وصفه يقول: «خطيب المسلمين،وشيخ المتكلمين،ودرة المتقدمين والمتأخرين،إن تكلم حكى"سحبان" في البلاغة،وإن ناظر ضارع " النظام " في الجدال،(...)شيخ الأدب، ولسان العرب،كتبه رياض زاهرة،ورسائله أفنان مثمرة(...)الخلفاء تعرفه، والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه والخاصة تسلم به، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم وبين الرأي والأدب وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم(....)لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب»[4].

و قال أحمد أمين: «لو قلنا أن الجاحظ كان أوسع أهل زمانه معرفة لم نبعد، ولو بقيت كتبه كلها وجمعنا ما فيها ورتبناه أبجديا لخرج منها دائرة معارف شاملة وافية دالة على معارف عصر الجاحظ»[5].

إذن استطاع الجاحظ بأسلوب رائع أن يجعل من بشاعة خلقته جمالا، ومن قصر قامته شموخا، بذكائه النادر، وذهنه الوقاد، وعلمه الغزير، وظرفه الطريف، كما صوّر عصره أروع تصوير بأرقى أسلوب.

---

[1]-معجم الأدباء:ياقوت الحموي، ج 5، ص 2102.

[2]-المصدر نفسه، ص2104.

[3]-المصدر نفسه، ج5، ص 2112.

[4]-المصدر نفسه، بتصرف.

[5]-ضحى الإسلام: أحمد أمين، ج3، ص 131.

ثالثا: كتاب البيان والتبيين.

1- تعريفه:

يعد " البيان والتبيين " – بشهادة القدماء والمحدثين – أحد أبرز أمّهات الأدب وعيونه إذ يعتبر أهم مؤلفات أبي عثمان الأدبية،وأكثرها تداولا بين الأدباء والبلاغيين والنقاد؛فقد حرص فيه الجاحظ على استقصاء مختلف سبل القول محاولة منه التأصيل للبيان العربي مما جعله حافلا بمختلف المختارات الأدبية من ذاكرة هذا العلم البارز،من أدب وبلاغة وآيات قرآنية مجيدة،وأحاديث نبوية شريفة،وصفوة أشعار وحكم،إضافة إلى خطب للبلغاء ونوادر للظرفاء،ممزوجة ببعض آرائه الخاصة،وممارسات نقدية واعية للأبعاد الفنية لتلك النصوص الأدبية،أفرزت لنا مجموعة من المقاييس البلاغية،أضفت على الكتاب صفة مزدوجة: الأدب ونقده في آن واحد.

وقد ألف الجاحظ كتاب"الحيوان"في سنواته الأخيرة،أيام إصابته بالمرض،و قد ذكر في مقدمة الكتاب مصنفاته لكنه لم يذكر" البيان والتبيين "، مما يدل على أنه ألفه بعد "الحيوان".ومما يعضد هذا الرأي أننا نجد ذكرا لكتاب "الحيوان" في عدة مواضع من كتاب "البيان والتبيين" وهذا ما ذهب إليه الدكتور "عبد السلام هارون" محقق الكتاب في مقدمة " البيان والتبيين".

ويذهب الدكتور " طه الحاجري " إلى أن الجاحظ كان يؤلف الكتابين معا، وقد فرغ من كتاب " الحيوان" قبل كتاب "البيان والتبيين"[1].

وقد أجمع المتقدمون والمتأخرون من كبار الأدباء والعلماء على أن "البيان والتبيين" من أفضل ما وضع في الأدب والبلاغة والنقد .

يقول "عبد السلام هارون "محقق الكتاب:

«إنه ليس أديب نابه في العربية لم يسمع بهذا الكتاب، أو لم يفد منه، وقلما تجد أديبا من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب »[2]

وقال " **ابن رشيق القيرواني"(ت456هـ)** في عمدته:«وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ

---

[1]-**ينظر**: الجاحظ ومجتمع عصره:طه الحاجري، ص 92.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص14.

وهو علاّمة وقته الجهد ووضع كتابا لايبلغ جودة وفضلا،ثم ما ادعى إحاطة بهذا الفن لكثرته وإن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل»[1].

أما "**ابن خلدون**" فيبدي لنا رأي القدماء في هذا الكتاب إذ يقول عند كلامه على علم الأدب:« وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة،وكتاب الكامل للمبرد،وكتاب البيان والتبيين للجاحظ،وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروعا عنها»[2].

2- تأليفـــه:

«ألف" الجاحظ " كتاب "البيان والتبيين " وأهداه إلى القاضي " أحمد ابن أبي داؤد" فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار» [3].

كانت غاية الجاحظ إرضاء القاضي "ابن أبي داؤد" بعد الأحداث التي حصلت بينهما وأما غايته المستترة هي رغبته في وضع أسس البيان العربي الذي يعد الجاحظ واضع أسسه دون منازع،فالبيان قبل الجاحظ كان مجرد إرهاصات فجاء الحدث الجاحظي وكان معه التأسيس،وصار كل من يأتي بعده يتبعه ويغترف من معينه الذي لا ينضب .

وإضافة إلى الدافع الأدبي والفني، فالجاحظ ينطلق من دافع عرقي مذهبي، فقد وضع الكتاب للتصدي لمطامع الشعوبية الذين حاولوا الحطّ من قدر العرب والنيل من مقوماتهم؛إذ حاول إبراز عارضة العرب في البيان واللسن والخطابة ولهج بهذا بكل اعتزاز في كل الكتاب .

فما هي الأحداث التي حصلت بين "الجاحظ "و"القاضي ابن أبي داؤد"و دفعت الجاحظ إلى تأليف هذا الكتاب القيم وإهدائه له؟

كان الجاحظ ملازما "**لمحمد بن عبد الملك ابن الزيات**"(**ت 233هـ**) خاصا به وكان منحرفا عن "**أحمد بن أبي داؤد**" للعداوة بين" أحمد " و"محمد ".

---

[1]-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده:ابن رشيق القيرواني،تحقيق عبد الحميد هنداوي،المكتبة العصرية، بيروت (د.ط)، (د،ت،ط)، ج1، ص223.

[2]-المقدمة: ابن خلدون، ص554.

[3]-معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ج05، ص2109.

ولما قبض على " **ابن الزيات** " هرب " **الجاحظ** "، فقيل له: لم هربت؟ فقال:" خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور"، يريد ما صنع " **بمحمد بن أبي الزيات** "، وإدخاله تنور حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه، فعذب هو فيه حتى مات .

وعندما قتل "**ابن الزيات**" أمر "**ابن أبي داؤد**" بمثول " **الجاحظ** " أمامه مكبلا بالحديد فجيء بالجاحظ مقيدا ولّما نظر إليه " **أحمد بن أبي داؤد** " قال:" ما علمتك إلا متناسيا للنعمة كفورا للصنيعة،معددا للمساوئ،وما فتني باستصلاحي لك،ولكن الأيام لا تصلح منك إلا لفساد طويتك،ورداءة دخلتك،وسوء اختيارك،وتغالب طبعك ".

فقال الجاحظ:" خفّض عليك – أيّدك الله – فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك،ولأن أسيئ وتحسن، أحسن عنك من أحسن فتسيء، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني ....."

فقال له " **ابن أبي داؤد** ": " قبّحك الله ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر (...).

ما تأويل هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود، **102**]

قال:" تلاوتها تأويلها،أعزّ الله القاضي "، فقال: " جيئوا بحدّاد ." فقال:" أعزّ الله القاضي ليفكّ عنّي أو ليزيدوني؟ " فقال: " ليفكّ عنك" . فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ، ويطيل أمره قليلا، فلطمه " الجاحظ " وقال:"اعمل عمل شهر في يوم،وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإن الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة". فضحك " **ابن أبي داؤد** "، وأهل المجلس منه ....[1].

وبعد هذه الحادثة قرّبه القاضي،وانكبّ الجاحظ بعد ذلك على تأليف "البيان والتبيين".

3- مضمونه:

جمع الجاحظ في الكتاب ملاحظات العرب البيانية، وبعد ملاحظات الأمم الأخرى وسجل

[1]-**ينظر**:معجم الأدباء:ياقوت الحموي، ج05، ص2104، لمزيد من التفصيل.

كثيرا من ملاحظات معاصريه، خاصة المعتزلة، ونراه يطيل الوقوف عند ما أثاره "بشر بن المعتمر" من قضايا هامة.

وقد استهل أبو عثمان كتابه بالبسملة والاستعاذة من التكلف والعجب، ومن السلاطة والهذر والعي والحصر، ومن فتنة القول والعمل، ومثّل لكل منها بمنثور القول ومنظومه[1].

ولعل هذا التقديم الذي بدأ به الجاحظ قبل أن يتطرق إلى الموضوع الأصلي، المتمثل في " البيان"،يمكن رده إلى أنه يريد بذلك أن يبدأ بالواقع الذي كان في عصره آنذاك،ثم حاول بعد ذلك أن يقدم المثال الذي يراه بديلا لذلك الواقع، الذي فسد نتيجة الاختلاط والتمازج . وقد تحدث الجاحظ عن قضايا عديدة، أهمها قضية البيان والبلاغة؛إذ راح يسوق أصناف الدلالات على المعاني من لفظ،وإشارة،وعقد،وخط ونصبة[2]، وعقد أبوابا لمدح اللسان والبيان[3] الذي فضّل الله تعالى به الإنسان دون سائر المخلوقات،كما وازن بين لغة العاميين والحضريين والبدويين[4]، ونوّه بصحّة لغة الأعراب خاصة في عصره الذي فشى فيه اللحن واختلطت الألسنة،وأورد مقاطع من نوادر الأعراب[5] وأشعارهم، وتحدث أيضا عن لكنة النبط والروم[6]. وعرض نتفا من كلام الموالي،وعقد بابا للحن واللحانين، كما أكّد على وجوب أداء النوادر كما هي، إذ يرى أن الإعراب يفسد نوادر المولدين[7].

وللبيان عند الجاحظ مدلولان:مدلول عام، ومدلول خاص؛ أما العام فيكون بإحدى الدلالات على المعاني التي ذكرها، وهو التعبير عن الأفكار ونقلها إلى الآخرين،لغاية الفهم والإفهام، فالجاحظ ينوطه «بأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى»[8]. وأما الخاص فهو الإفهام بلغة جميلة اكتملت لها عناصر فنية معينة، لتحقيق غايات جمالية ولغرض التأثير .

---

(1)-**ينظر**:البيان والتبيين:الجاحظ،ج، تحقيق:عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7(1418ه 1997م) ج1، ص 03-07. لمزيد من التفصيل.

(2)-**ينظر**:المصدر نفسه، ص 75. لمزيد من التفصيل.

(3)-**ينظر**:المصدر نفسه، ص166. لمزيد من التفصيل.

(4)-**ينظر**: المصدر نفسه، ص 120. لمزيد من التفصيل.

(5)-**ينظر**:المصدر نفسه، ج03، ص 203. لمزيد من التفصيل.

(6)-**ينظر**:المصدر نفسه، ح01، ص 70. لمزيد من التفصيل.

(7)-**ينظر**: المصدر نفسه، ص 106. لمزيد من التفصيل.

(8)-المصدر نفسه، ص 76.

كما لا يغفل الجاحظ أن يتكلم عن العيوب اللسانية والأمراض اللغوية[1] التي تصيب الإنسان لما لها أثر واضح على البيان، فنجده يتحدث عن اللثغة، والحبسة، واللكنة واللحن ... وغيرها.

ويروي أيضا طائفة من أخبار البلغاء والخطباء والأنبياء والفقهاء والأمراء، وومن جمع بين الخطابة والشعر،ويعرض نماذج من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وأورد عدة تعاريف للبلاغة، عند الفرس والروم والهند، والعرب، وأعلام الخطباء، وترجم صحيفة هندية ترسم حدود البلاغة وتبين أصولها[2].

وقد تعددت ملاحظاته اللغوية،فتحدث عن اللفظ المفرد،باعتباره بنية صوتية تطرأ عليها تغيرات معينة، وتحدث عن تنافر الحروف وائتلافها، والحروف الأكثر دورانا في العربية كما تحدث عن مخارج الحروف وسهولة بعضها وصعوبة بعضها الأخر، تحدث أيضا عن التشكيل الصوتي[3] في الكلمة، واشترط في اللفظ أن يكون وسطا بين العامي المبتذل والحوشي الغريب[4].

كما تحدث عن اللفظ في النظام التركيبي للجملة، وأشار إلى الانحراف اللغوي الذي شاع في عصره، ودعا إلى الاستعمال الصحيح للألفاظ؛إذ لكل معنى لفظ محدد يستعمل له وهو أقدر على التعبير عنه من غيره، وهو أدل عليه، ومثاله المحتذى في ذلك هو ألفاظ القرآن[5].

إضافة لهذا تحدث عن قضية " مطابقة الكلام المقتضى الحال"،التي أشار إليها " بشر بن المعتمر " في صحيفته المشهورة، والتي أوردها الجاحظ كاملة في الكتاب لأهميتها[6]. وضمن فكرة " مطابقة الكلام لمقتضى الحال" أكّد على ضرورة مراعاة الأحوال النفسية للمستمعين ومستوياتهم الثقافية ومقاماتهم الاجتماعية،حتى يتحقق الهدف وتبلغ الغاية.

ومن هنا تطرق لمسالة أسلوبية هي "الإيجاز والإطناب"،ويمثل لذلك بالخطاب القرآني الذي يأتي موجزا إذا ما اتجه للعرب بالخطاب ويخرج الكلام مخرج الإشارة، لما للعرب من

---

(1)-**ينظر**: البيان والتبيين:الجاحظ،ج1 ص 61. لمزيد من التفصيل.

(2)-**ينظر**:المصدر نفسه،ص 92. لمزيد من التفصيل.

(3)-**ينظر**:المصدر نفسه،، ص 69. لمزيد من التفصيل.

(4)-**ينظر**: المصدر نفسه، ص 144. لمزيد من التفصيل.

(5)-**ينظر**:المصدر نفسه، ص 20. لمزيد من التفصيل.

(6)-**ينظر**:المصدر نفسه، ص135-139. لمزيد من التفصيل.

الفطنة،ويكون مبسوطا إذا ما اتجه إلى مخاطبة اليهود لبلادتهم وقلة فصاحتهم[1].

وقد اهتم الجاحظ بالخطابة اهتماما بالغا باعتبارها الأساس الذي انطلق منه في التأصيل لبلاغته؛لأنها لقيت اهتماما كبيرا من المتكلمين عموما والمعتزلة على وجه الخصوص باعتبارها وسيلتهم الفعالة،لنشر أفكارهم ومقارعة خصومهم،إضافة إلى أن الجاحظ كان في معرض الدفاع عن العرب ضد الشعوبية ولأن أغلب الشعوبيين يتقنون الشعر لما فيه من التصنع والتكلف ولا يتقنون الخطابة كالعرب؛ لأنها عندهم وليدة الطبع والموهبة، لذا واجههم بها، باعتبارها فضيلة للعرب تفوّق بها العرب على الشعوبيين.

وفي خضم حديثه عنها تعرض إلى صفات الخطيب وهيأته،ومخارجه وألفاظه،وما يجب عليه.وتحدث مطولا عن استعمال المخاصر والعصي في الخطبة رادا على الشعوبية التي حطت من شأن العصا وطعنت فيها،ويذكر أسماء الخطباء،وقبائلهم وأنسابهم وغير ذلك وهو خلال ذلك يسرد مختارات من خطب الرسول ﷺ،والخلفاء وغيرهم[2].

أما عن المّادة البلاغيّة التي أوردها في الكتاب فقد جاءت مبثوثة في تضاعيف الكتاب حسب الحاجة التي تدعو المؤلف لإيرادها،وتبعا للسياق الذي يقتضيها والمقام الذي يستدعيها وسوف نتعرض لها بالدراسة في المتن، بالتفصيل .

ذلك هو الجاحظ،ذو الطبيعة النفّاذة،التي تنفذ إلى الدقائق وتميّز اللّطائف صاحب الفكر العميق،والبديهة اللّماحة،بزغ نجمه وعلا قدره حتى صار يمثل حضارة قرن، وثقافة أمة ينهل الكلّ من فيض أدبه وغزير علمه،وتتمتع الروح برواية فكاهاته والتحدث عن ظرفه.

وهكذا ظل الجاحظ في تاريخ الثقافة العربية نسخة فريدة، سعى المحققون أن يعثروا على ثانية لها، فما وقفوا على شيء منذ كان البحث في تراث العرب، ووجدوا من حاول أن يتشبّه به أسلوبا ومنهجا، ولكن عند المقارنة، اختفت المماثلة وقيل: هيهات!

---

[1]-**ينظر**:البيان والتبيين: الجاحظ، ج 1،ص 276. لمزيد من التفصيل.

[2]-**ينظر**:المصدر نفسه، ج03، ص 370. لمزيد من التفصيل.

الفصل الأول:

البيان عند الجاحظ بين الغاية الإبلاغية والصيغة الإبداعية

أولا: البيان بمفهوم العلامية مطلقا:

1ـ البيــان باللفــظ.

2ـ البيــان بالإشارة ، بالخط و بالعقد.

3ـ البيــان بالحال.

ثانيا: البيان بمفهوم العلامة اللغوية:

1ـ خصوصية اللفظ و فضله على بقية العلامات.

2ـ وظيفة البيــان اللغوي اجتماعيا.

3ـ آلة البيان و دورها في العملية اللغوية.

ثالثا: البيان بمفهوم الصيغة الإبداعية:

1ـ البيان من الفهم و الإفهام إلى الإقناع و الإمتاع.

2ـ مفهوم الكــلام البليــغ.

3ـ مقومات الكــلام البليــغ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: البيان بمفهوم العلامية مطلقا.

يعد مصطلح "البيان"أكثر الألفاظ شيوعا عند الجاحظ، فقد تواتر استعمال هـــذا المصطلح في مؤلفاته لدرجة أنه أطلقه على أبرز كتبه في البلاغة والأدب ونعني به كتاب"البيان والتبيين" إذ لم يعط أبو عثمان –على ما يبدو– لمفهوم آخر من الأهمية في هذا المصنف ما أعطـــاه لمفهـــوم "البيان".

ولا يجري " البيان" عند الجاحظ على معنى واحد، ولا يتعلق بمفهوم معين فالبيان الـــذي يتحدث عنه غير محدد المعالم، وأبو عثمان يفسّره انطلاقا من الغايات والأغراض التي وضع لأجلها وبناء السّياقات والمقامات التي يكون ضمنها.

فهو لغة القرآن المعجز بمعناه الإلهي وصياغته الربانية، التي وصلت أقصى درجات الإعجاز فالقرآن هو أصل البيان؛إذ جاء إعجازه في بيانه من حيث ألفاظه ومعانيـــه ، يقـــول **البـــاقلاني (ت403هـــ)** في هذا الصدد: «فالقرآن أعلى منازل البيان، و أعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته، وحسنه بهجته وحسن موقعه في السمع»[1].

ويقول الجاحظ: «ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب، وجعل لسانه عربيا، وأنزل عليه قرآنه عربيا كما قال تعـــالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء، **195**]»[2].

وعلى اعتبار أن المعجزة القرآنية جاءت من جنس ما برعت فيه العرب إمعانا في إلـــزامهم بالحجة والدليل، والمولى –جلّ وعلا– بعث محمدا ﷺ أكثر ما كانت العرب شـــاعرا وخطيبـــا وأحكم ما كانت لغة وفصاحة، فتحداهم بأخص خصيصة فيهم؛ إذ كانوا أرباب بيان وأصحاب لسن وفصاحة، فالبيان عند الجاحظ هو أيضا ميزة العربي الذي ينقاد من لسانه ويفتخـــر ببيانـــه الذي تميز به عن غيره من الأمم، يقول الجاحظ «والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيـــان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن وبذلك تفـــاخرت

---

[1]–إعجاز القرآن: الباقلاني أبو بكر بن الطيب، تحقيق:أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د.ط) (1374 ه–1954 م)، ص 149.

[2]–رسائل الجاحظ:الجاحظ، رسالة تفضيل النطق على الصمت، ج4، ص 237.

وتفاضلت أصناف العجم»[1].

وينتقل الجاحظ بالبيان من التعبير باللغة الرّاقية واللفظ المنتقى، سواء البيان القرآني باعتباره النموذج المحتذى والمثال المقتدى، الذي جمع بين الإمتاع والإقناع أم البيان العربي ذو الدلالة الواضحة والأداء الدقيق، إلى تعبير آخر يهتم بتحقيق غاية الفهم والإفهام والكشف عن مكنون النفس وإيصال المعنى، بغضّ النظر عن الوسيلة.

فاتسع بذلك عنده البيان وتعدى القول الجميل والعبارة الفنية التي تستخدم الأساليب البلاغية أدوات لها للوصول إلى غاية الإمتاع أو الإقناع مع الفهم والإفهام، إلى مجال آخر يدرس مختلف الدلالات على المعاني، سواء اللغوية منها باعتبار اللغة موروث حضاري وثقافي لكل أمة، أم غير اللغوية في نطاق أوسع.

وعليه فمفهوم البيان عند الجاحظ يتسع في بعض السياقات ليدل على مجموع الوسائل التعبيرية الممكنة، لنقل الأفكار المستورة في النفوس، وكشف المعاني المحجوبة في الصدور، لبلوغ غاية إفهام الآخرين والتواصل معهم، على اختلاف الكيفيات وتنوع الوسائل، وذلك حسب ما تقتضيه المقامات، وما تستدعيه الحالات لأنِ «مدار الأمر على إفهام كل قوم مقدار طاقاتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[2] بغضّ النظر عن نوع العلامة المستخدمة في إيصال المعنى، سواء كانت لغوية أم غير لغوية وهذا معنى عام للبيان، تقصر اللغة على أن تحيط به والبيان بهذا المعنى هو « الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي»[3].

ويدخل هذا المعنى في مشغل علامي تمخض اليوم عن علم قائم بذاته يدعى "علم العلامات" أو"السيميولوجيا"[4]، والذي يعنى بدراسة العلامات واتجاهاتها المشتملة للعلامات اللسانية وغير

---

(1)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 75

(2)-المصدر نفسه، ج1،ص93.

(3)-المصدر نفسه، ص 75.

(4)-**السيميولوجيا**:علم جديد موضوعه العلامات اللغوية وغير اللغوية، نشأ بين نهايات القرن 19 م وبدايات القرن 20م، بإسهام أوروبي وأمريكي مشترك، وفي فترتين متزامنتين نسبيا، على يدي اللغوي السويسري (دوسوسير) f.de Soussure **(ت1913م)**، والأمريكي تشارلز سندرس بيرس(ت1914م) C.S PIERCE إذن فهي علم جديد يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية.**ينظر**:إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد:يوسف وغليسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان ، ط1(1429هـ - 2008م)، ص 223 لمزيد من التفصيل.

اللسانية في إطار الحياة الاجتماعية العامة[1].

ويمكن القول إن دراسة الجاحظ للبيان تعدّ بحثا سيميائيا أصيلا، وتحقيقا لعلم العلامات راح الجاحظ يفصّل الإشارات ويعدّد العلامات التي تنقل المعاني المختلفة، وتكشف الأفكار المستورة ويتمكن بها الإنسان من الإفصاح في غير مقام ويشرح كيفيتها وتطورها مستجيبة للدواعي الحضارية.

وقد تخطّى الجاحظ مبادئ علم العلامات إلى غير كتاب من كتبه، "كالحيوان" الذي أجمل فيه ما فصّله في "البيان والتبيين "[2].

ويضيق هذا الحقل الدلالي عند الجاحظ في سياقات أخرى حسب ما يقتضيه الحدث الكلامي والموقف الاجتماعي والظروف المحيطة، فيرتبط فيها البيان بعلامة متميزة هي العلامة اللغوية، باعتبارها الخاصية الحيوية التي تمثل ذروة ما كرّم به الله جنس البشر، وبوصفها أكثر الأدوات التعبيرية استعمالا في إبراز مكنونات النفس والتعبير عن حاجيات الفرد.

إلا أن هذه الدّلالات اللغوية العامة للبيان لا تعني أنه يتخذ صورة واحدة أو يلتزم مستوى واحد من الأداء يتساوى فيه كافة المتحدثين باللغة الواحدة.

فهناك الاستعمال السائد في مخاطبات الناس العادية لقضاء حاجياتهم، وفيه تكون اللغة مجرد وسيلة لتحقيق التواصل. وهناك مستوى ثان تنحرف بموجبه اللغة عن الاستعمال العادي التواصلي لتكتسب سمات فنية معينة لتحقيق غاية جمالية إضافة إلى الغاية الإفهامية.

عناصر البيان:

إذا عدنا إلى المفهوم العام للبيان عند الجاحظ، والذي حدده بقوله: «الدلالة الظاهرة عن المعنى الخفي»، يتضح لنا أن البيان يتكون من عنصرين هما:اللفظ والمعنى.

---

[1]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة):حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة، – بيروت –، ط3 (2010م)، ص 143. لمزيد من التفصيل.

[2]-**ينظر**:اللغة والحواس – رؤية في التواصل والتعبير بالعلامات غير اللسانية –: محمد كشاش،المكتبة العصرية، بيروت ، ط1 (1422هـ - 2001 م)، ص 21 – 23، لمزيد من التفصيل.

– **المعنى:**

يقول **الجاحظ**:

«قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة....»[1]

يقول **حازم القرطاجني** (**ت 684 هـــ**) في كتابه:"**منهاج البلغاء وسراج الأدباء**":

«إن المعاني هي الصورة الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئته لتلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود أخر من جهة دلالة الألفاظ» [2].

يمكن القول إن الجاحظ كشف النقاب عن مسألة هامة، وهي أن المعاني التي يولدها العقل البشري ليس لها حدود.

ـــ الدلالة:

«الدلالة هي الأداة التي يستعملها المرء للتعبير عن معانيه»[3].

فهي الكاشف لعقلية الإنسان، والمظهر لتفكيره، والمصدر لخبايا نفسه واختلاجات صدره لولاها لبقي الفكر خامدا في آبار النفس، ولما كان لحاجات الفكر المستترة وجود ظاهر محسوس فبواسطة الدلالة يتعين المعنى ويتجسد.

كما قد تترادف الدلالة مع الإشارة في بعض السياقات عند الجاحظ، باعتبار الإشارة احد أصناف الدلالات، كما في قول الجاحظ: «وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة

---

[1]–البيان والتبيين:الجاحظ، ج 1، ص 75.

[2]–منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، تحقيق وتقديم:محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط3 (1986 م)، ص 18، 19.

[3]–المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 377.

أبين وأنور، كان أنفع وأنجع»[1].

فالإشارة نعم العون للدلالة؛ إذ تشارك في إبراز المعنى، وتزيده وضوحا، وكثيرا ما يستعاض بها عن باقي أصناف الدلالات، لهذا أولاها الجاحظ أهمية بالغة.

إذن يمكن القول إن الدلالة هي مختلف الوسائل التعبيرية الممكنة التي يمكن بواسطتها إبراز مضمون الفكر، والكشف عنه.

إذن فالمرء يتوسد غير وسيلة لنقل أفكاره وتبليغ قضاياه وحاجاته، وقد جاءت الدلالات عند الجاحظ أنواعا ومراتب، أما الأنواع فمن باب أن الإنسان يمكنه الكشف عن الخفايا والوصول إلى الطوايا والتعبير عن معانيه بأكثر من وسيلة لا تنحصر بالضرورة في اللغة وإن كانت أرقى الوسائل التعبيرية، وأما المراتب فمرتبطة برأي الجاحظ في أقسام المخلوقات وافتراقها في مناهج الدلالة.

-أنواع الدلالات على المعاني:

ينبني المفهوم العام للبيان عند الجاحظ على جملة من المنطلقات الفلسفية والمرجعيات العقائدية النابعة من ثقافته الإسلامية عموما والاعتزالية على وجه الخصوص، والتي كان لها الدور الكبير في تحديد ملامح نظريته اللغوية العامة وأثّرت تأثيرا عميقا في ضبط وظيفتها.

«ومحور تفكيره في هذه المسألة يتأسس على نظرة دينية رمزية، حيث تتنزل بموجبها المخلوقات الكونية منزلة الدوال لمدلول أسمى سرمدي يهتدي إليه بالتعقل وتأويل الرمز واستنطاق الجماد، وهو حكمة العالم والكون»[2].

فمختلف المخلوقات تعد براهين قاطعة وأدلة ساطعة تؤكد وجود البارئ عزّ وجل الذي ليس كمثله شيء في علوه وعظمته وهو بائن عن خلقه.

وهذه الأدلة تختلف من جهة الإدراك والقدرة على الفهم، لذلك فقد انقسمت قسمين:

قسم ميزه الله بنعمة العقل والنطق اللذين يعتمدهما البيان كوسيلة للتوضيح والتبيين واختصّه بالبيان يهتدي بتلك الملكة الخاصة عن طريق التأمل والتدبر إلى سر وجوده، والحكمة من الكون

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 75.

[2]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 143.

وسبب خلقه وأبعاد وضعه فيستدل على ذلك، ويعبر بخاصية البيان للوصول إلى الحقيقة الأزلية ويمكن أن نطلق على هذا القسم اسم: "دليل يستدل" وهو ممثل في الإنسان وقسم آخر، ملكاته قاصرة عن الاستدلال، ولا قدرة له على إدراك كنه تلك الدلالة، فشارك الأول في الدلالة على وجود البارئ ونقص عنه بالاستدلال والتعقل، وهو ممثل في الجماد والحيوان [1].

يقول الجاحظ بهذا الصدد: «ووجدنا العالم بما فيه من حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل الحكمة وعاقبة الحكمة،فاستوى بذاك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، اختلفا من جهة أن احدهما دليل لا يستدل، الآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدل فشارك كل حيوان سوى الإنسان، جميع الجماد في الدلالة، وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلا» [2].

ونتيجة ذلك أن «جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بيانا»[3].

«بعدها ينتقل الجاحظ من هذا التفكير العام المجرد إلى تفكير اجتماعي، يتحسس من خلاله مقتضيات المنزلة الإنسانية والفطرة البشرية، وأولى هذه المقتضيات حاجة الإنسان إلى غيره طبعا وخلقة»[4]، فالإنسان خلقه الله في أحسن تقويم ثم فضله على سائر مخلوقاته، بأن خصّه بنعمة البيان، واختار له أنبياء ليهدوه سبل الخير والصراط المستقيم الموصل إلى حقيقة الأزلية، فرهف حسه ورقّت مشاعره وزاد تحسسه بحقيقة الوجود حتى أدرك أنه اجتماعي بطبعه، لا تتم سعادته وتتحقق آماله إلا مع أفراد جنسه، «إذ لم يخلق الله أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له»[5].

وهذا ما يؤكده قول الجاحظ: «ثم اعلم -رحمك الله تعالى- أن حاجة بعض الناس إلى

---

[1]-**ينظر**: التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 143، 144. لمزيد من التفصيل.

[2]-الحيوان:الجاحظ، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، - القاهرة -، ط 3(1969 م) ج1، ص33

[3]-المصدر نفسه.

[4]-التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، ص145.

[5]-الحيوان:الجاحظ، ج1،ص43.

بعض صفة لازمة في طباعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة في تزايلهم ومحيطة بجماعتهم ومشتملة على أدناهم وأقصاهم.... »[1].

وعليه فالتعامل بين الناس من خلال مختلف العلاقات التي تنشأ فيما بينهم بسبب هذا الاجتماع، أمر ضروري للفرد لا يمكن التغافل عنه، والإنسان اجتماعي بطبعه ولا يمكن أن يعيش إلا عضوا في مجتمع يتفاعل ضمنه ويتفاهم مع أفراده،و الفرد لا يمكنه بلوغ حاجياته دون مساعدة أو معاون له.

من هنا ارتبط مفهوم البيان – عند الجاحظ – بالمعنى العام، الذي يهتم فيه بالغاية لا بالوسيلة، ويرتبط بوظيفة الفهم والإفهام دون غيرها، فالغاية منه هو التعبير عن المعاني القائمة في الصدور، وهتك الحجب دونها،ليتم للناس مبتغاهم من اجتماعهم ويدركوا الحكمة من الخلق وأودعه الله تعالى في الكون،و هذا ما جعله خلوا من كل أبعاد فنية وبلاغية، فالمهم هو الوسيلة التي تضمن الغاية التواصلية بين الأفراد لقضاء الحاجات وبلوغ المآرب.

و هذا ما قصده الجاحظ بقوله: «... والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون ضمير» [2].

«أما عن تعدد أصناف الدلالات على المعاني وعدم اقتصارها على صنف واحد فإن المولى تبارك وتعالى، رحمة من عنده وسّع على عباده، وراعى جلّ وعلا مختلف الحالات، وأخذ بعين الاعتبار جميع أصناف الناس، وحسب عبارة الجاحظ فالمولى جل وعلا لم يرض للناس من البيان بصنف واحد، ووسّع على خلقه قدر الإمكان فجمع و لم يفرق، وكثّر و لم يقلل، وأظهر و لم يخف وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة – لا تزيد ولا تنقص – وهي: اللفظ والإشارة والخط ثم الخصلة الخامسة وهي الحال التي تسمى نصبة» [3].

وقد رتب الجاحظ أصناف الدلالات باعتبار الحاسة التي تدرك بواسطتها، وتبعا للحواس المتصلة بها، فمنها ما هو للسامع كاللفظ، ومنها ما هو للناظر كالإشارة ومنها ما يشترك في

---

[1]-الحيوان:الجاحظ، ج1، ص 42.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 76.

[3]-الحيوان:الجاحظ، ج1،ص45.

إدراكه حاستان كالعقد فهو للناظر واللمس....

يقول الجاحظ في هذا الصدد: «ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات وحصل الموجودات فجعل اللفظ للسامع، وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه.... ولم يجعل للشام والذائق نصيبا»[1].

إذن فالموقف الاجتماعي، وتعدد المستويات، وتنوع الثقافات واختلاف الطبقات الاجتماعية ومختلف الظروف المحيطة بالعملية التواصلية، هي التي تستدعي الحاسة المناسبة لتكون وسيلة الاتصال الممكنة، حتى يتم الاتصال على أحسن وجه والإبلاغ على أكمل صورة، ويتحقق للناس مرادهم من التفاهم، ومبتغاهم من التعاون والتآزر.

وهذا ما أكده الجاحظ بقوله السابق، من «ضرورة ألا نكلم الآخرين إلا بما يفهمونه وبما دأبوا على استعماله، لأن التواصل السليم هو ما يتم بواسطة ما هو شائع في عرف الجماعة»[2].

و هذا الحديث حول المواقف التي ترتضي الشكل المناسب من أصناف الاتصال وربطها بالمقام هو حديث علم نفس اجتماعي من دون أن يسميه.

كما رتبها من ناحية أخرى تبعا لما تملؤه من حيز مكاني وزماني «وأقصاه مدى الطّرف ومنتهى الصوت بالنسبة للصوت واللفظ والإشارة، وأما ما نزح من الحاجات وغاب فالحاجة فيه إلى الكتاب تغدو ماسة؛ إذ لا سبيل إلى التواصل والتفاهم سواه» [3].

أما عن هذه الدلالات فهذا بيانها:

1- البيان باللفظ:

يعدّ اللفظ أهم أدوات البيان، وأرقى الأنساق التواصلية، وأكمل أنواع الدلالات على المعاني،وأكثرها تعبيرا عن حاجات الإنسان؛ إذ يظل في قمة هرم الاتصال لما يمتاز به من قدرات هائلة على الابتكار والإبداع اللغوي، وعنده توقف الجاحظ مليا يتفحصه ويدرسه، حتى إنه جعله في صدارة الترتيب عند حديثه عن الدلالات.

---

[1]-الحيوان:الجاحظ، ج1، ص 45، 46.

[2]-اللسانيات الاجتماعية عند العرب:هادي نهر لعيبي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1(1430هـ- 2009 م)، ص156.

[3]-الحيوان:الجاحظ، ص 47-48.

واللفظ هو: «مجموعة أصوات تخرج من الفم بفضل حركات اللسان والفكين والشفتين تأتلف مقاطع ثم كلمات ثم جملا منثورة أو موزونة»[1].

أما عن أهم صفات اللفظ التي يعرف بها هي: الصوت، اللسان والرمز.

أما عن الصوت فيعرفه الجاحظ بقوله: «والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما منثورا ولا موزونا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف»[2].

فالصوت هو أصغر جزء يتحقق به البيان، وقد اشترط الجاحظ فيه أن يكون مجهورا مكملا للحروف مع فصاحتها، يقول: «...وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وترتيب ورياضة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق»[3].

ويقول أيضا: «ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه»[4].

كما ألحّ على ضرورة اقتران الحروف حتى لا منافرة بينها، وتجنب أن تكون مخارجها متقاربة واختيار المتلائمة منها السهلة النطق، والاقتران في تفسير الجاحظ هو"الموافقة"، حتى كأن الكلمة حرف واحد يقول الجاحظ: «فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا تأخير..» [5].

وأما عن اللسان هو وسيلة اللفظ، فهو يكشف قناع المرء، ويميط القناع عن خفايا نفسه، ويضرب كشح الغموض عن قدراته وبواطن ذهنه، وهو ترجمان اللب وبريد القلب والمبين عن الاعتقاد بالصحة والفساد، فاللسان يعبّر عما يختلج بداخله من مشاعر وأحاسيس، ويظهر حجة صاحبه في بلاغته وبراعته وقوة بيانه.

وهو يحتاج إلى قدرة لفظية في النطق، مع قدرات عقلية وأخرى تدريبية تتعهده بالرعاية

---

[1]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 380.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج 1، ص 79.

[3]-المصدر نفسه، ص 14 -15.

[4]-المصدر نفسه.

[5]-المصدر نفسه، ص 69.

والتوجيه، وبالممارسة الدائمة.

ولقد أراد الله – عزّ وجل – أن يتم منه فضيلة الإنسان، لذلك خلق له اللسان وأنطقه بالبيان، فخبر عما في نفسه من الحكمة التي أفادها والمعرفة التي اكتسبها.

و من فضل البيان وفضيلة اللسان أن الله –عز وجل– «أنطقه بتوحيده من بين سائر الجوارح» [1].

و لم كان اللسان هو ترجمان الإنسان وأهم وسيلة للبيان قيل: " المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر[2].

وقال **الأخطل** (**ت 90 هـ**):[من الكامل]

"لا يعجبنك من خطيب خطبة * حتى يكون مع الكلام أصيلا**

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا"**[3].

فاللسان هو مفتاح الفؤاد، يكشف بأدائه ما في قلب صاحبه، يعززه قول "**زهير بن أبي سلمى**" (**ت13 ق.م**):[من الطويل]

"وكائن ترى من صامت لك معجب * زيادته أو نقصه في التكلم**

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم"** [4].

وأما فيما يخص الرمز، فهو صفة أخرى للفظ، فالألفاظ في حقيقتها هي رموز على الدلالات، مثل بقية الرموز الغير صوتية والتي تنقل بها المعاني، ويكشف بها عن خفايا النفس، وعلى اعتبار أنه يمكن التعبير عن المعاني برموز غير لغوية فالإنسان منذ زمن بعيد استطاع أن يطوع جهاز النطق لديه للتعبير عن مقاصده وأعماله ومشاغله، متخذا من أصواته رموزا تعبر عن أفكاره.

---

[1]–أدب المجالسة وحمد اللسان – وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب وغير ذالك–:ابن عبد البر الحافظ أبي عمرو يوسف ابن عبد الله، تحقيق ودراسة:سمير حلبي، دار الصحابة للتراث، طنطا ، ط1 (1409 هـ -1989 م)، ص 42.

[2]–علم الإعلام اللغوي:عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط 1 (2000 م)، ص 19.

[3]–ديوان الأخطل: الأخطل، عني بنشره: الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار المشرق، بيروت ط2 (د.ت.ط)، ص508.

[4]–ديوان زهير بن أبي سلمى: زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت ط 2 (1426 ه – 2005 م)، ص 71.

إذن فالصوت هو أصغر وحدة يتحقق بها البيان، وهو ذو وظيفة بيانية ثم تليه الكلمة المفردة على الوظيفة نفسها، ثم التركيب بشقيه المتلازمين والمترابطين (النحو والبلاغة)؛ إذ للمعاني النحوية الثابتة المجردة في التركيب العربي وظيفتها البيانية وللبلاغة (علم المعاني) كذلك وظيفتها البيانية في العملية العربية [1].

والأمر نفسه الذي ذهب إليه **ابن جني (ت 392 هـــ)** أثناء تعريفه للغة على أنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[2].

فالصوت هو اللبنة الأساسية والأولى في التركيب اللغوي.

إلا أن هذا النظام اللغوي عند الإنسان يختلف جذريا عن الأصوات التي تصدرها الحيوانات والتي تنحصر في صورة ثابتة ومعينة، تعبر عن الغرائز الآنية في غالبيتها. إن لغة الإنسان تنفرد بتآلفها من وحدات صوتية يمكن تجزئتها بخلاف الوحدات الصوتية التي يطلقها الحيوان دفعة واحدة[3].

يضاف إلى ذلك أن لغة الإنسان مكتسبة ولغة الحيوان غريزية كما أن أصوات الحيوانات تعد رد فعل مباشر ولحظي لما يحدث في البيئة، أما الإنسان فلغته تعبر عن أفكاره وهويته التي تعدد مثيراتها الداخلية والخارجية [4].

وفي هذا المضمار ناقش الجاحظ مسألة نطق الحيوان وهل أن ما يصدر عنه من أصـــوات مقطعة لغة أم لا؟ وما الفرق بين صياح الحيوانات ولغة الإنسان؟

و قد تناول الجاحظ هذه القضية وعالجها بما لم يزد عليه المحدثون في الغرب إلا النزر القليل.

فقد بيّن أن الكلام عند الإنسان لا يتوقف على مجرد القدرة على إصدار الصوت أو تقطيعه إلى حروف ذات مخارج متميزة، فذكر حيوانات شتى، أصواتها تشبه صوت الإنسان على نحو يقل

---

[1]-الإعجاز البياني في القرآن الكريم – دراسة نظرية تطبيقية في الآيات المحكمات: عمار ساسي،عالم الكتاب الحديث، عمان – عالم جدار للكتاب العالمي، إربد ، ط1 (2007م)، ص 197، بتصرف.

[2]-الخصائص: ابن جني، تحقيق:على محمد النجار، دار الهدى، – بيروت –، ط2(د.ت.ط)، ص33.

[3]-ملكة اللسان – إبداع الإنسان وعبقرية المكان – أسس علم اللغة وطرق تصنيف اللغات واللهجات في العالم: أحمد دراج، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2 (1430 هـــ- 2009 م) ص 23،بتصرف.

[4]-المرجع نفسه، ص23، بتصرف.

ويكثر، حتى وصل إلى الببغاء أو السنانير[1].

و بعد أن بيّن أنّ صياح السنانير هذا يتضمن عددا لا بأس به من الحروف، لا يتردد في أن ينفي أن يكون هذا الصياح لغة، لأنه يشترط أن يكون وراء النطق الصوتي ما يسميه **بالحاجات** و هي البواعث الاجتماعية والنفسانية والفكرية للتعبير، و كذلك ما يسميه **بالعقول** وهي القدرات المفكرة المدبرة التي تستطيع الملاحظة والقياس والاستنباط، وتعمل بدأب على كشف مجاهل الكون ثم ما يسميه **بالاستطاعات** وهي الإرادة التي تجعل المتكلم لا ينطق بباعث الغريزة أو الحالة الشعورية القوية المؤقتة فحسب، و لكن كلما رأى ذلك مناسبا له، مرغوبا منه فيه[2].

إذن فهو يخلص إلى إقرار مبدأ سائد في تعليل الظاهرة اللغوية حتى الآن وهو أنها ظاهرة اجتماعية؛فبحسب حاجة الإنسان إلى اللغة يكون اكتسابه لها، وهذا ما يؤكده بقوله: «والجملة أن من أعون الأسباب على تعلم اللفظ، فرط الحاجة إلى ذلك»[3].

وطبق هذا التصور، و بهذا المعنى «يتنزل "البيان" من حدّ الإنسان منزلة البعد المميز له عن سائر المخلوقات أو المانع لغيره مشاركته صفة الإنسانية»[4].

فهو إذن ميزة الإنسان وخاصته الأساسية التي بها يتحدد نوعيا؛ إذ يعد من أوضح الخصائص المميزة للجنس البشري، لذا قيل: «ما الإنسان لولا البيان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مرسلة أو ضالة مهملة»[5].

فمهمة اللفظ هي تنزيل المجهول منزلة المعلوم، إبراز الأفكار وإخراجها من حيز الكتمـــان إلى التصريح، وبالتالي احتوائها وتجسيدها وحصرها في قوالب حتى يتمكن المرء من نقلها إلى الغير ويتقي شرودها واضمحلالها.

وعلاقة اللفظ بالمعنى وثيقة من حيث الكم والكيف والنوع: تكثر الألفاظ عندما تكثر المعاني إليها، و تقل الألفاظ عندما تقل المعاني، وتشرف الألفاظ عندما تشرف المعاني، وتسخف

---

[1]-**ينظر**: الحيوان: الجاحظ، ج5، ص 286، لمزيد من التفصيل.

[2]-اللسان والإنسان– مدخل إلى معرفة اللغة –: حسن ظاظا، دار الفكر العربي – القاهرة ، (د.ط) (د.ت.ط) ص33-34.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج5، 268

[4]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص150.

[5]-أدب المجالسة وحمد اللسان: ابن عبد البر، ص42.

الألفاظ عندما تسخف المعاني، وتختلف الألفاظ باختلاف حاجة المعاني إليها، وذلك حسب المعاني نفسها، "فالمعاني المفردة"، ليست حاجتها إلى اللغة عين حاجة "المعاني المشتركة" والجهات الملتبسة فتقريب هذه الأخيرة من الأذهان وإيصالها إلى عامة الناس يستدعي مستوى في التعبير معينا لا سلطان لقدرات المتكلم البليغ عليه.

ومن هنا جاءت الحاجة إلى التأويل كمسرب للمعنى يتجاوز قصور اللغة ويغطي محدودية طاقتها على الإفصاح والإبانة، فالمعنى لا يكون دائما في ظاهر اللفظ يقول الجاحظ: «والمعاني المفردة، البائنة بصور وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل ما تحتاج إليه المعاني المشتركة، والجهات الملتبسة، ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعاني بكلام وجيز، يغني عن التفسير باللسان والإشارة باليد والرأس، لما قدروا عليه (....) وليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتها ويسوم النفوس ما ليس في جبلتها...»[1].

ويشبه الجاحظ اللفظ بالثوب والمعنى بالشخص الذي يرتدي ذلك الثوب، فكما ينبغي أن يكون الثوب مفصّلا حسب جسم صاحبه دون زيادة ولا نقصان، كذلك ينبغي أن يفصّل اللفظ على قدر المعنى الذي يعبر عنه «... والمعاني إذا ما قادر صورها، وأريت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض وصارت المعاني في معنى الجواري..»[2].

فالمعنى الحسن يجب أن يكسى اللفظ الجميل الذي يليق به، و يلبس الوصف الذي يستحقه حتى يكون نقله على أكمل وجه والتعبير عنه دقيقا دون زيادة ولا نقصان.

وعلى اعتبار أن اللفظ يدل على المعنى ويعبر عنه وجب أن يكون واضحا مفهوما من المتكلم والمخاطب، لأن غاية المتكلم الأولى هي الإفهام، والهدف الذي يسعى إليه المخاطب هو الفهم.

يقول الجاحظ «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه»[3].

لكن هل في قدرة اللغة أن تحيط بكل المعاني وتأتي على جميع مراتبها ؟

---

[1]-الحيوان:الجاحظ، ج6، ص08

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص172.

[3]-المصدر نفسه، ص 60.

جواب الجاحظ صريح في هذا إذ يقول: «...على أن المعاني تفضل عن الأسماء والحاجات تجوز مقادير السمات، وتفوت ذرع العلامات»[1].

والسبب في رأيه اختلاف المعاني، كما سبق القول وتنزلها في مراتب وطبقات لا يتم إدراكها بنفس الصورة، فتتفاوت قدرتنا في التعبير عنها.

«وقد تأثر الجاحظ في هذا ببيئته المتكلمين خاصة المعتزلة الذين اعتنوا بصناعة الكلام ورتبوا لكل معنى طريقة في الجدل مخصوصة تراعي قوانين تلك الصناعة»[2].

إذن للبيان باللفظ مكانة خاصة في نظرية الجاحظ البيانية، إذ يعتبر أكمل أنواع الدلالات على المعاني، وأكثرها تعبيرا عن حاجات الإنسان، كما يعدّ الحدّ المميز له عن سائر المخلوقات ولولا اللغة ما بان الإنسان من باقي الحيوان إلا بتخطيط جسمه، ولولاها ما استطاع التعبير عن كل معانيه ولا وجد إلى المعرفة بابا، فهي الأسبق إلى منازل الشرف ومواقع التعظيم، ولا خير إلا وهي السبيل إليه.

2 – البيان بالإشارة، العقد، والخط:

2-1- البيان بالإشارة:

للتفاهم والتفاعل بين البشر –إضافة إلى اللغة– عدة وسائل، تعبر عما يدور بعقل الإنسان أو ما يريد نقله إلى طرف التواصل الثاني، وتمثل الإشارات والحركات الجسمية التي يستعملها المرء لتبادل المعلومات، ونقل الأفكار، إحدى أهم هذه الوسائل التواصلية، فهي أيضا قسيم جيد للغة لا يمكن إغفاله، باعتبار «الإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه»[3].

بل إنها تعد عند بعض الأفراد والجماعات، وفي ظروف معينة الوسيلة الوحيدة للتواصل «وما أكثر أن تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط (....) ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة»[4].

---

[1]–الحيوان: لجاحظ، ج5، ص102.

[2]–التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص157.

[3]–البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص78.

[4]–المصدر نفسه، ص78.

«والإشارة هي الحركة الصادرة عن الجوارح أو عن شيء آخر، والتي تعبر عن مقاصد الإنسان»[1].

وهي عند الجاحظ ثاني الدلالات الخمس التي تكشف عن المعاني وتترجم ما في ضمير الإنسان، يقول: «...وجعل آية البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة – لا تزيد ولا تنقص – وهي: اللفظ والإشارة والعقد والخط، ثم الخصلة الخامسة وهي الحال التي تسمى نصبة»[2].

ويستشهد أبو عثمان بجملة من الأشعار التي تؤكد أهمية الإشارة في الفعل اللغوي.

منها قول شاعر لم يسمه الجاحظ:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها * إشارة مذعور ولم تتكلم**

فأيقنت أن الطّرف قد قال مرحبا * وأهلا وسهلا بالحبيب المتيّم**[3].

فقد نابت الإشارة عن اللفظ، وحلت محل الكلام، إذ لم يسمح المقام باستعمال الكلمات فكانت الإشارة بطرف العين نعم المعين للفظ، ففي مثل هذه الظروف حين أخفت الفتاة أمرها عن أهلها، عدلت عن اللفظ إلى بديل آخر ترحب بواسطته بالحبيب.

إذن فقد كانت الإشارة «مرفق كبير، ومعونة حاضرة يسترها بعض الناس من بعض ويخفونها عن الجليس ومن غير الجليس»[4].

وقال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها * من المحبة أو بغض إذا كانا**

والعين تنطق والأفواه صامتة * حتى ترى من ضمير القلب تبيانا** [5]

فالشاعر يقرر أن العين تستطيع أن تنقل ما في نفس صاحبها، فبمجرد النظر في عين

---

[1]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 377.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 45.

[3]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1،ص 78.

[4]-المصدر نفسه.

[5]-المصدر نفسه.

شخص نستطيع أن نعرف ما في ضميره، ومن شدة تأكيده على لغة العيون جعلها تنطق، فاستعار النطق للعين باعتبارها تخبر عن ما في ضمير صاحبها.

وإذا كانت للغة أعضاؤها، كاللسان والأسنان والحبال الصوتية، فللإشارة أعضاء ذكرها الجاحظ كالرأس والعينين واليدين، وقد تكون بالجوارح وحدها، كأن نشير بالسبابة أو الرأس أو الكتفين، كما قد تؤدى الحركة بإشراك جارحة أو أكثر[1].

يقول الجاحظ بهذا الصدد: «فأما الإشارة فباليد، والرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان...»[2].

ويقول أيضا: «فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها:رفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليّ الشفاه وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه....» [3] كما قد تكون أيضا بواسطة الأدوات الخارجية كالعصا والمخصرة والثوب والسيف والسوط وغيرها.

يقول الجاحظ عن الإشارة: «... وبالثوب وبالسيف.و قد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا»[4].

وما ذكره الجاحظ بشأن الإشارة، يمكن رده إلى الأسس العلمية التي يعتمدها علم الحركة الجسمية اليوم، ويبدو أنه توصل إلى حقائق من هذا العلم، جدير بأن يكون صاحبها من أوائل المفكرين في التراث الإنساني ممن قصدوا بالتحليل العميق لهذا الموضوع، و توصلوا من ذلك إلى نتائج لا نغالي كثيرا إذا قلنا أن المحدثين لم يزيدوا عليها الشيء الكثير.

فما يقرره علم الحركة الجسمية اليوم من أن الحركات الجسمية قد تحل محل الكلام أو تكون متمم فاعل له في تأكيد الكلام أو زيادته وضوحا، لا يزيد شيء عما قرره الجاحظ من أن الحركات والإشارات نعم العون للغة ونعم الترجمان هي عنه[5].

---

[1]-اللسانيات الاجتماعية عند العرب:هادي نهر العبيي، ص 134، بتصرف.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص77.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص48.

[4]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص77.

[5]-**ينظر**:اللسانيات الاجتماعية عند العرب:هادي نهر العبيي، ص134.لمزيد من التفصيل.

والجاحظ يعتبر الإشارة دالة في حد ذاتها، وذلك عندما تحل محل الكلام في مواقف تستدعي ذلك، وتكون فيه الإشارة إما الوسيلة الوحيدة للتغير وإما أنجع من اللفظ، باعتبارها نسقا منفصلا عن اللغة وتشمل عنده صور التعبير الاجتماعي.

2-2-البيان بالعقد:

يستعمل الإنسان لنقل أفكاره إلى الآخرين، والتفاهم مع غيره عدة وسائل، ويعدّ العقد أحد هذه الوسائل التعبيرية التي عدها الجاحظ ضمن الدلالات الخمس على المعاني القائمة في صدور البشر.

والعقد «هو الحساب دون اللفظ والخط»[1].

قال **البغدادي** مفسرا إياه: «والعقد نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين، يقال له حساب اليد، وقد ورد منه في الحديث:وعقد عقد التسعين...» [2].

فالعقد «هو الحساب نفسه، وله أهمية عظيمة في حياة الناس، وعليه تتركز علوم جليلة في هذا الشأن مثل:علم الرياضة وعلم الفلك، وله علاقة بأمور الدين»[3]. «وبالحساب تعرف منازل القمر وحالات المد والجزر، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ن وكيف تتكون تلك المراتب والأقدار» [4].

والحساب يشتمل على معاني كثيرة ومنافع جليلة، والدليل على فضيلته قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ **[الرّحمان 1- 5]**

و قال أيضا: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ [الإسراء،12].

---

[1]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص80.

[2]-خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة ط4 (1418-1997 م)، مج 3،ص 197.

[3]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص 379.

[4]-الحيوان:الجاحظ، ج1، ص47.

و الذي يبدو من كلام الجاحظ حول العقد أن المقصود به ليست العمليات الحسابية بالأرقام الملفوظة أو المكتوبة، إنما هو ضرب من الحساب بعقد أصابع اليدين والواضح من الحديث السابق أنه عرف منذ القدم.

وللعقد حظ في الإشارة، إذا استعملت الأصابع فنقول "عقد الأصابع" حيث «عرفت هذا النوع من العد الجامعة العربية في المعاملات التجارية – خاصة- ويكون ذلك بأن يضع أحدهما يده في يد الآخر فيفهمان المراد دون تلفظ بقصد إخفاء ذلك على الآخرين»[1].

وسواء كان العقد هو الحساب بالعد على الأصابع، أو باستخدام رموز دلالية متعلقة بالرياضيات التي تستخدم التجريد والاستدلال والعقل، فهو يشتمل على معاني كثيرة و منافع عظيمة «ولو لا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة، وفي عدم اللفظ، و فساد الخط، والجهل بالعقد فساد جل النعم»[2].

إذن «فالعقد نظام من الأنظمة الدلالية كالكتابة والكلام وغيرها، ثم إن المنافع الجليلة التي جعلها له، يتبين لنا أهمية هذا النظام في الحياة اليومية للإنسان »[3].

و عليه فالعقد هو أحد أشكال التعبير عن المعاني ونقل الأفكار إلى الغير وهو في ظروف معينة وحالات مخصوصة أقدر وسيلة للتفاهم، بل تصبح الحاجة إليه أمس من الحاجة إلى اللفظ.

2-3-البيان بالخط:

بعد أن كان التفاعل بين المرسل والمتلقي تفاعلا حيا، يشتمل على صوت المرسل وما يحتويه من وسائل التأثير مثل:النبر والتنغيم، وما يصاحب الكلام من إشارات محصورة بين المتكلم والمستمع، وسّع الجاحظ دائرة التواصل، وتجاوز حيز المكان والزمان وكسر تقاليد العقلية العربية في التواصل، حيث يكون البات متكلما والمتقبل سامعا.

و اعتبر الخط أحدهم أهم الدلالات على المعاني، «لذلك قالوا: القلم أحد اللسانيين كما

---

[1]-الإشارة الجسمية: كريم زكي حسام الدين، دار غريب، القاهرة ، ط2، (د.ت.ط)،ص79.

[2]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص80.

[3]-النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال " البيان والتبيين ": محمد الصغير بناني ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، (1994م)، ص81.

قالوا:قلة العيال أحد اليساريين»[1]، فاحتل التنويه بالخط قسطا كبيرا من مؤلفاته

"وقد أحدث الإسلام أول ما أحدث تحولا في البنية الثقافية العربية، ومصداق هذا المقـــول القراءة طريقا لاكتساب المؤمن صفات الإيمان الحق، فالقرآن الكريم مؤول المعرفة، و مصـــدرها حث على القراءة، وأول سورة فيه[2] ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق،1-5].

إضافة إلى هذا، فالفترة التي عاشها الرجل شهدت تحولات هامة في الحضارة العربية،يقول حمادي صمود: «عاش الجاحظ فترة عرفت عددا من التحولات والمنعرجات الحاسمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وفيما كتب الرجل شهادة عما يمكن أن يعبر عن أعمق تلك التحولات وأهمها:إنه الوعي الحاد بضرورة أن تقوم الكتابة والكتاب بديلا حضاريا عن اللفظ والذاكرة»[3].

فقد اعتبر الجاحظ "اللفظ" ونموذج الأسمى "الشعر"، وكل الوسائل التي تتطلبها ممارســـته كسلوك ثقافي، طريقة غير ناجعة لصيانة الثقافة، و تخليد المآثر لما يصيب

الذاكرة من آفات النسيان فيبطل أكثر العلم، ولما يعرض النصوص من تحريف وتبديل.فقد قالوا: «القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا»[4].

«وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر: أكتب شعري، فالكتاب أحب إلي من الحفـــظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشـــدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام»[5].

«ولولا الكتب المدونة والأخبار المخلدة (...) لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النســـيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار»[6].

---

[1]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص79.

[2]-استقبال النص عند العرب:محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1(1991 م) ص.162

[3]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي حمود، ص 126.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص79.

[5]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 41.

[6]-المصدر نفسه، ص 471.

إضافة إلى ذلك، يمتاز الكتاب على النقل والرواية بسهولة انتشاره ورواجه "لرخص ثمنه ومكان وجوده"[1]، مما جعله أداة ثقافية صالحة لكل مكان وزمان، لا تتطلب الاستفادة منه ضرورة تواجد المرسل والملتقي في المكان والزمان نفسه إبان عملية التواصل اللغوي والثقافي، كما هو الشأن في اللفظ، مما يكسبه قدرة على الامتداد الزمني ليست لسواه،يقول الجاحظ: «والكتاب يقرأ لكل مكان، ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوز إلى غيره»[2].

وعليه: «فالقلم لسان البصير يناجيه بما استتر من الأسماع، وينازعه بما استتار من الطباع ويحدثه بما حدث، إذا كان في البقاع»[3].

فالبيان بالخط يبلغ من بعد وغاب، ويترجم ما في ضمير صاحبه حتى يصل أقصى الحدود والمولى عزّ وجل أراد أن يعم نفع البيان جميع أصناف البشر وسائر آفاق البلاد، وأن يساوي فيه بين الماضين من خلقه والآتين، والأولين والآخرين، فألهم عباده تصوير كلامهم بحروف اصطلحوا عليها، فخلدوا بذلك علومهم لمن بعدهم وعبّروا عن ألفاظهم ونالوا به ما بعد عنهم، وتمت بذلك نعمة الله عليهم، وبلغوا الغاية التي قصدها عز وجل في إفهامهم وإيجاب الحجة عليهم[4].

وقال: ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ **[الأحقاف،04]**.

و من فضائله أيضا أنه يسهل المعاملات بين الناس وييسر شؤونهم اليومية، يقول الجاحظ «ثم إن العهود والسجلات والصكاك والدواوين والعقود، التي يحرص عليها الناس وتتم بها معاملتهم وتستقيم شؤونهم، إنما يعتمد في بقائها على الخط»[5].

ولذلك صارت الأمم التي ليس لها كتاب قليلة العلوم والآداب، ومعظم شؤونها غير منظمة تنظيما محكما، وجل معاملتها غير مضبوطة ضبطا دقيقا.

---

(1)-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 42.

(2)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 80.

(3)-في آفاق الكلام وتكلم النص:عبد الواسع الحميري، "مجد"المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1 (1431هـ- 2010 م)، ص 186.

(4)-علم الإعلام اللغوي:عبد العزيز شرف، ص 22، بتصرف.

(5)-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص69.

فالإنسان مع بيان القلم قادر على تصحيح كلامه، وتنقيح لفظه، في حين أنه لا يمكنه هذا مع اللفظ.فالخط يمنح المرسل حدودا زمانية تسمح له بتحيير كلامه.

يقول الجاحظ: «فاستعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام»[1].

فالكاتب ليس مجبرا على الاستجابة الفورية لأي داع من الدواعي، وليست تلك حال المخاطب لذلك كانت حالة هذا الأخير أشد جرحا من حال الكتاب بكل ما في كلمة حرج من معاني مضايقات السياق ومقتضيات ظروف المتكلم، خاصة مع وظهور تيارات أدبية لم تكن معروفة من قبل في البيئة العربية؛ إذ أصبحت ساحة الأدب تموج بمختلف الأساليب التعبيرية، فصار الانتقال من طور المشافهة إلى طور الكتابة هو البديل الحضاري الذي يلائم المجتمع الجديد ويتماشى مع تطوراته.

و قد أثنى الجاحظ كثيرا على الكتاب، مما يعكس المنحى الجديد الذي ظهر قويا في بنية الثقافة العربية، يقول: «أما أنا فلم أر قطّ أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا»[2].

إذن فالمقابلة بين "الخط" و"اللفظ" عند الجاحظ ليست مسألة شكلية، بتفضيل وسيلة بيان على أخرى، بل الأمر أعمق وأبعد من ذلك؛ «إذ ينبئ بتحول في مفهوم الثقافة ذاتها: من ثقافة عشائرية لا يعدو نفعها أهلها، لا حامي لها إلا ثقة رواتها ونقلتها، وهذا الحاجز رقيق لا يصمد دائما أمام التراعات والتروات، لذلك فهي معرضة للإغارة والسطو والوضع والتهافت إلى ثقافة ملائمة للمجتمع "المدني" الجديد المقام على مركزية السلطة والنفوذ الساعي إلى نشر نمط ثقافي موحد بين أشتات الأجناس والثقافات يعتمد الحقيقة البينة والحجة الموضوعية»[3].

يقول الجاحظ: «قالوا: فكيف تكون هذه الكتب أنفع بأهلها من الشعر المقفى ؟ قال الآخر: إذا كان الأمر على ما قلتم، والشأن على ما نزلتم، أليس معلوما أن شيئا بقيته وفضلته وسؤره وصيانته، وهذا مظهر حاله على شدة الضيم، وثبت قوته على ذلك الفساد، وتداول

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 80.

[2]-المصدر نفسه، ص137.

[3]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 128.

النقص حري بالتنظيم، وحقيق بالتفضيل على البيان، وتقديم على شعر إن هو حوّل قهافت، ونفعه مقصور على أهله وهو يعد من الأدب المقصور وليس بالمبسوط ومن المنافع الاصطلاحية وليست بحقيقة بينة»[1].

وحديث الجاحظ عن فضل الكتاب، هو زبدة تجارب طويلة ومكابدة علمية فذة لأمر عظيم الشأن، يمكن اعتباره مقدمة معرفية مؤذنة بتغير عميق في بنية الثقافة الإسلامية، ويمكن القول إن الجاحظ يعد فاتحة نمط ثقافي جديد وطريقة في المعرفة لم يسبق إليها نمط الانتقال من الطور"الشفاهي" طور الفوضى والتناقض، حيث يمثل فيه "الشاعر" النموذج الثقافي الأسمى و"الرواية" حلقة الوصل الرئيسية بين المنتج والمستهلك، إلى الطور "الكتابي" الذي تحل فيه الوثيقة محل "الحافظة"، ويتغير النموذج الثقافي بل يتعدد، فيصبح للأديب حظ الشاعر، أو ما يزيد، ويتنازل الشعر عن سلطانه للنثر الذي يحتل مكانه[2].

وعليه فقد طرق هذا التحول العميق والمنعرج الحاسم في بنية الثقافة العربية الإسلامية حاسة الجاحظ الدقيقة، وتنبهه لعمق التحولات قد أهّله ليكون العين الراصدة لكل مواضعات هذا الجديد فقد رصد الكتابة وجعلها عنوانا لاتساع الثقافة العربية وصيرورتها المتنامية، من ثقافة عشائرية متقوقعة على نفسها إلى ثقافة إنسانية منفتحة على غيرها، وملائمة للمجتمع الجديد ومتماشية مع تطوراته.

3-البيان بالحال:

بيان الحال عند الجاحظ هو نوع من التلقي الذي يوقظ فيه الوعي، وينبه الفكر، والمطلوب أن يتمعن المتلقي ليترسّخ الإيمان في نفسه، وليكون قبوله القائم على الوعي وإعمال الذهن طريق توحيد الله وعبادته عبادة صالحة قويمة.

والجاحظ في هذا متأثر بالمفهوم الكلامي الذي يجعل الكون دليلا على وجود الله وقدرته «دلالة الأثر على المؤثّر»[3].

فقد دخل المتكلمون ساحة الاستدلال من بابين كبيرين:باب الإلهيات، وباب النبوات ومن

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 79-80.

[2]-ينظر: التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 129 - 158، لمزيد من التفصيل.

[3]-البلاغة العربية أصولها وامتداداتها:محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، المغرب ، ط2 (2010م)، ص 196.

باب الإلهيات،أفضوا إلى طلب البرهان على وجود الله سبحانه وتعالى.

إذ إن وجود المولى تبارك وتعالى مقترن بآياته وآثاره الدالة على خلقه وصنعته وإبداعه وجبروته يقول **ابن خلدون** في هذا الصدد:

«واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود البارئ وصفاته، وهو نوع استدلالهم غالبا (...) فالمتكلم ينظر في الجسم الطبيعي الذي في الطبيعيات من حيث يدل على الفاعل، كما ينظر في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد...»[1].

وبيان الحال هو أحد الدلالات الخمس إلا أنه دون منزلة الأخرى لسببين:

أولهما: أن معرفة هذا النوع من البيان متوقف أساسا على إعمال الفكر والتأمل وما توحي به الحال لذهن المتبصر، لأنه لا وجود لواسطة بين المستدل ودلالاته باعتباره دليل لا يستدل في حين يتشكل الاستدلال في بقية الدلالات في علامة تختزن الدلالة وتحيط بالمعنى وتكون مرجعا[2].

يقول الجاحظ: «وجعل البيان على أربعة أقسام: لفظ وخط وعقد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه، واقتياده كل من فكّر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان وحشي من الدلالة وأودع من عجيب الحكمة.فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة على أن الذي فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه كما خبر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال»[3].

وثانيها: «أن البيان يتم بين الأجناس المتشابهة، بعلامات يفهمون بها بعضهم عن بعض ويرفعون بها عنهم مؤونة الجهد في استكناه المعاني الكامنة التي تبقى، ما لم تحط بها العلامة مستعصية لا تتيسر إلا بخالص الجهد والمشقة»[4].

يقول الجاحظ: «...لأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة والأجســـام

---

[1]-المقدمة: ابن خلدون، ص 436.

[2]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، ص 146. لمزيد من التفصيل.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 33.

[4]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص، 146.

الساكنة،التي لا يتعرف ما فيها من دقائق الحكمة وكنوز الآداب،و ينابيع العلم إلا بالعقل الثاقب اللطيف وبالنظر القائم النافذ، وبالأداة الكاملة وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكـــر والاحتراس من وجوه الخدع، والتحفظ من دواعي الهوى و لأن الشكل أفهم عن شكله وأسكن إليه وأصبّ به»[1].

إذن فد أصبحت أشياء الكون واسطة لإيصال رسالة إلى المتلقى ليتمعن في جوهر الأشياء الماثلة أمامه ، وحقيقة وجودها وموجدها، فإن باعثها هو الله عز وجل فأساس خطاب الاعتبار إذن هو إعمال العقل الثاقب وتحريك الفكر، و ربط الأسباب بالنتائج، ووصل الظاهر بأصولها.

«فالمخلوقات تدل على الخالق، وتقدم لنا أروع برهان على وجود المولى تبارك وتعالى»[2].

يقول الجاحظ: «وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن، وزائد وناقص»[3].

و قال بعض الخطباء: «أشهد أن السموات والأرض آيات دالات، وشواهد قائمات، كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية، موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك التي تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك من أنسها من وحشية الفكر، ورجم الظنون، فهي على اعترافها لك، وافتقارها إليك، شاهد بأنك لا تحيط بكل الصفات، ولا تحدك الأوهام، وأن حظ الفكر فيك، الاعتراف لك» [4].

إذن يمكن القول إن «النصبة أداة تواصل تحمل رسالة صامتة، أو طلبا بالحال ومصدر الرسالة وباثّها هو الله خالق العالم، ومتلقيها هو الإنسان الذي يتأمل الكون من حوله فيستخلص منه وجوه الحكمة الإلهية»[5].

وتتركز النصبة على المبدأ القائل: «متى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 45.

[2]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 379.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص81.

[4]-المصدر نفسه، ص81.

[5]-استقبال النص عند العرب: محمد المبارك، ص 15.

صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكتا»[1].

والنصبة هي دلالة تبصرية اعتبارية، وسيلتها العقل، تقوم أساسا على صحة النظر وحضور القلب للوصول إلى حقيقة الأشياء، فهي الحال التي توحي به الأشياء لعقل المتأمل وذهن المتبصر. و لعل ما قصده "**الفضل بن عيسى بن أبان**"(**ت119 هـــ**) بقوله: «سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا»[2].

أي أن الأرض تجيب عن طريق استكناه المعاني الكامنة بواسطة التأمل والتدبر، وإعمال الفكر واستخدام العقل، مع حضور القلب.فالأرض وإن كانت صامتة في نفسها فهي ناطقة بظاهر أحوالها، وعلى هذا النحو استنطقت العرب الربع، وخاطبت الطلل، ونطقت عنه بالجواب على سبيل الاستعارة.

فالأشياء تبين للناظر المتوسم، و العاقل المتبين، بذواتها وبعجيب تركيب الله فيها، وآثار صنعته في ظاهرها.قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [**الحجر، 75**].

إذن دلالة النصبة عند الجاحظ هي مسألة عقلية محضة، تؤكد لنا الوعي الحاد الذي يتمتع به الرجل، وطريقة تفكيره العميقة.

من خلال ما سبق يمكن أن نستخلص أن الجاحظ يسعى إلى وضع نظرية معرفية لمعرفة الكون والإنسان، وتناول هذه المعرفة بالأدلة المختلفة، وهي نظرية الرمزية الكونية التي تتمثل في عقد الرموز وفكها بالتواضع والاعتبار والتأمل.

---

[1]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص 81-82.

[2]-المصدر نفسه، ص82

ثانيا البيان بمفهوم العلامة اللغوية:

بعد أن تحدث الجاحظ عن البيان بالمفهوم المعرفي العام، الذي لا يهتم فيه بجنس الدليل ولا نوع العلامة، إنما غايته الأولى هي الانتقال بالمعنى المختزن من حيز الكتمان إلى حيز التصريح بأي علامة كانت سواء كانت لغوية أم غير لغوية وقد تنوعت عنده الدلالات على المعاني وتباينت صورها، التي تضمنت وظيفة "الفهم والإفهام" لبلوغ المقاصد وقضاء الحاجات.

تضيق دائرة المعنى العام للبيان عنده، فلا ينوطه «بأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى»، بل يخصه بالعلامة اللغوية ويمنحه مفهوما خاصا يقترن فيه البيان باللسان، ويقتصر معناه على نمط التعبير المستند إلى العلامة اللغوية أداة للتبليغ والتعبير عن الأفكار.

وقد انصب جهد الجاحظ على تفحص أسرار البيان اللغوي، وتحليل قدرات اللغة ووجوه تصريفها، طبق غايات المستعمل ومقاصده التي يرمي إليها.

1-خصوصية اللفظ وفضله على بقية العلامات:

يولي الجاحظ دلالة اللغة مكانة خاصة مقارنة بباقي الدلالات، باعتبارها أشد الوسائل التواصلية التي اهتدى إليها الإنسان اكتمالا، وأغنى الأنماط التعبيرية دلالة وأكثرها ملائمة لحاجاته في التعبير، نظرا لغناها واتساعها في التعبير عن الأفكار والحاجات والمشاعر الإنسانية، فهي تمده بما تعجز عنه باقي الوسائل الأخرى وفيها أيضا من التعقد والتشعب ما يتناسب وأقدار المنزلة البشرية[1].

«واللغة هي الجانب الجوهري في الإنسان، بل هي الإنسان ذاته، بها ينشأ وفي حضورها حياته، وحركاته وهويته، وفي غيابها سكونه وموته»[2].

فاللغة هي الخاصية المميزة للإنسان عن سائر المخلوقات، فهي التي تمنع غيره من مشاركته صفة الإنسانية.

و قد اهتم المتكلمون باللغة لأنها «آلة التعبير عن أفكارهم، ووسيلة لنشر عقائدهم وكان أصحاب النّحل مثلا في البيان ودراية اللسان والخطابة، ووجدوا أن المنطق هو الطريقة التي

---

[1]-ينظر:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 148، لمزيد من التفصيل.

[2]-ملكة اللسان: أحمد دراج، ص 37.

تستمال بها القلوب وتثنى الأعناق وتزين المعاني» [1].

و ثمة سبب آخر حدا المتكلمين عموما والجاحظ على وجه الخصوص على الاهتمام باللغة هو «حاجتهم إلى فهم الكتاب والسنة، إذ كانا أهم موضوعات علم الكلام، وأن المماحكات الجدلية الطويلة التي دارت بين المتكلمين إنما كان سببها الخلاف بين تأويل الآيات القرآنية أو تفسيرها»[2].

وقد كان الجاحظ على بيّنة من هذه الحقيقة؛ لهذا نراه يولى اللغة أهمية كبيرة ويجعل البيان بالفظ يتصدر قائمة الدلالات على المعاني، انطلاقا من هذه المرجعية.

فالجاحظ استقى هذا المذهب من المنهج المعتزلي دون شك، فقد كان المعتزلة «ينظرون إلى اللغة من زاوية نجاعتها في المجادلة، وقدرتها على التأثير في المتلقي وإقناعه، لذلك سخّروا أساليبها لخدمة الغرض العقائدي...»[3].

لهذا وغيره اعتبر أبو عثمان البيان باللغة،أكمل أنواع الدلالات، وأكثرها ملائمة للتعبير عن حاجات الإنسان، وأغنى الأنماط التعبيرية دلالة.فالعلامة اللغوية يمكن التصرف بها على وجوه مختلفة.

و لوجود هذه السمة أمكن للعلامة الغوية التعبير عن آلاف الأفكار، والكشف عن مختلف المشاعر الإنسانية، ونقل كافة الحالات الشعورية، وذلك مما لا نجده في أي صنف من الدلالات الأخرى، حيث أننا نجد دائما أن الوحدات الدنيا التي تتركب منها الرموز غير اللغوية وحدات دلالية لها شكل ومحتوى دلالي، لا يمكن التصرف فيه أو تحليلها إلى وحدات أصغر تكون بدورها دلالة جديدة، كما هو الحال في اللغة البشرية، حيث يمكن التصرف المزدوج التقني الذي يبرز العنصر الاقتصادي لهذه اللغة، المتمثل في إمكانية التعبير عن ملايين الأفكار من خلال وحدات بنائية بين **35 – 50** رمزا صوتيا[4].

إضافة إلى هذا ليست عملية التواصل بين طرفي العلامة اللغوية تكمن في عملية الإبداع

---

[1]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص355.

[2]-المرجع نفسه.

[3]-استقبال النص عند العرب: محمد المبارك، ص 211.

[4]-**ينظر**:اللسانيات الاجتماعية عند العرب: هادي نهر العبيي، ص122- 123، لمزيد من التفصيل.

فحسب، إنما تنقل العلامة اللغوية زيادة على محتواها اللغوي الصرف علامات أو أمارات تخبر السامع عن المتكلم، دون أن يكون في نيته إبلاغها.

فالعلامة اللغوية تفضح ما يكنه الضمير من نوايا، وما يستره الإنسان من خفايا، فهي تكشف ما يستودعه ضمير الإنسان، وما يختلج في نفسه، وما يكنّه صدره دون قصد.

كما أن صوت المتكلم كثيرا ما يخبرنا عن سنّه، وجنسه، ومهنته وما يمارسه من أنشطة تلقائيا، ويكشف أيضا عن حالته الصحية والنفسية، وقدراته الفكرية، ومنشئه الجغرافي، وطبقته الاجتماعية... وغيرها، ولا نجد في وسائل التواصل الأخرى مثل هذه المعطيات[1].

ومثال ذلك أنه ذكر أن"يوسف بن أبي السايح"(**ت 304 هـ**) -وهو جندي من أصحاب السلاح- قال في وصف الإخوان: «مثل الإخوان كالسلاح فمنهم من هو كالرمح، تطعن به من بعيد ثم يعود إليك ومنهم من هو كالسهم ترمي به من بعيد ولا يعود، ومنهم من هو كالمجنّ تتقي به من النوائب ومنهم من هو كالسيف الذي لا ينبغي أن يفارقك في السفر والحضر، ليلا ونهارا»[2].

فقد كشف المتكلم عن حقيقة مهنته دون يقصد،وذلك باستعماله أسماء أدوات صناعته في أثناء وصفه الإخوان، على نحو:" السهم "، " الرمح"، " المجن "... وغيرها.

وهكذا يظل البيان باللفظ في قمة هرم الاتصال، لما تمتاز به اللغة من قدرات هائلة على الابتكار والإبداع اللغوي، وفقا للمقولة البلاغية الشهيرة "لكل مقام مقال".

2 – وظيفة البيان اللغوي اجتماعيا:

يعيش الإنسان في مجتمع وهو محتاج أن يتبادل معه الأخذ والعطاء في الماديات والمعنويات جميعا، وباعتباره عضوا في مجموعة من الجنس البشري تربطه بهم عوامل متعددة من النسب، واتحاد الغايات، والآمال والآلام والعواطف وغيرها من الروابط الاجتماعية، فهو في أشد الحاجة أن يتفاهم مع هذه المجموعة لتستقيم حياته، وتنتظم أموره، ويبلغ حاجاته، ويحقق مقاصده.

فالإنسان اجتماعي بطبعه، لا تتم سعادته، ولا تتحقق آماله، ولا يستطيع بلوغ غايته

---

[1]-**ينظر**: اللسانيات الاجتماعية عند العرب: هادي نهر العيبي، ص122- 123، لمزيد من التفصيل.

[2]-علل اللسان وأمراض اللغة:محمد كشاش،المكتبة العصرية، صيدا ، ط1(1419هـ- 1998 م)، ص122.

إلا بالتفاهم والتفاعل مع أبناء جنسه.

و لما «كانت اللغة هي الوسيلة الملائمة للتفاهم بين البشر، وقضاء حوائجهم باعتبارها الوسيلة الأيسر، والأكثر طواعية، لأنها صادفت استعداد طبيعيا في الإنسان الشيء الذي مكّنه من استخدامها بشكل تلقائي» [1]،عمد الناس إلى الاستفادة منها في تفاهمهم، ومعرفة حاجات بعضهم البعض، باعتبار أن الإنسان لا يمكنه تحصيل معارفه بنفسه وحده، دون معين ومساعد له من نوعه «إذ لم يخلق الله أحدا يستطيع بلوغ غايته بنفسه» [2].

فحاجة الإنسان إلى غيره طبعا وخلقة وجوهرا، دعته إلى نصب دلائل يتوصل بها كل إلى معرفة ما في ضمير صاحبه من المعلومات المعينة له على تحقيق غرضه.

«لذلك استخدم الإنسان ما يتركب من المقاطع الصوتية، التي خصّ بها نوع الإنسان دون سائر أنواع الحيوان، عناية من الله تعالى به، ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية حدثت الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية»[3]، التي تكشف بها الحاجات وتبلغ بها الغايات، وتنعقد بها الأسباب.

فوظيفة البيان اللغوي هي التعبير عن الحاجات، «ليتم الناس مرادهم من اجتماعهم ويدركوا حكمة الخلق، وما أودع الكون من جليل الحكمة»[4].

و إذا كان اجتماع الناس ضرورة اجتماعية، كما يقول الجاحظ:

«ثم اعلم –رحمك الله تعالى–، أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة في تزايلهم ومحيطة بجماعتهم، ومشتملة على أقصاهم وأدناهم وحاجتهم إلى ما غاب عنهم مما يعيشهم ويحييهم، ويمسك بأرماقهم، ويصلح بالهم، ويجمع شملهم»[5].

فالتعامل بين الناس، من خلال العلاقات التي تنشأ فيما بينهم: كالعون، والمساعدة والتآزر

---

[1]–نظرية اللغة في النقد العربي: عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت.ط)، ص 64.

[2]–الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 43.

[3]–نظرية اللغة في النقد العربي: عبد الحكيم راضي، ص 63.

[4]–التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 145.

[5]–الحيوان:الجاحظ، ج1، ص 42 -43.

وإقامة الود والألفة،... وغيرها من العلاقات التي تكون بسبب الاجتماع أمر لا يمكن التغافل عنه.

وهذه الروابط التي تنشأ بين أفراد المجتمع تتم بواسطة البيان اللغوي، الذي يعدّ وسيلة الفرد لتحقيق التواصل بينه وبين أفراد جنسه، والإبانة على حاجاته، وتنفيذ رغباته في المجتمع الذي يعيش فيه، وطريقه الذي يمكّنه من إقامة مختلف الروابط الاجتماعية، للتفاهم والتعاون مع غيره.

يقول الجاحظ بهذا الصدد: «فالإنسان بقوة العقل، آلة التفكير والنظر، يدرك حاجته من قوام وقوت ولذة وإمتاع، وبقدرة البيان والاستدلال تنكشف تلك الحاجات وينتهي إليها معامله ومعايشه، فيتم التعاون والتآزر وتنعقد بينهم الأسباب»[1].

و منه فالبيان اللغوي إذن ليس مجرد أداة لنقل الأفكار؛ وإنما هو «وسيلة للتعاون والترابط بين أفراد المجتمع، حتى تحصل المنفعة، وتتم الفائدة»[2].

وهذا ما يؤكده العالم"**غريس**" (**Grice**) (**ت1967 م**)، من أن التواصل الناجح بين أي شخصين يعتمد على مبدأ في غاية الأهمية وهو مبدأ التعاون (**Principale of coopération**)[3].

والأمر نفسه ذهب إليه عالم الاجتماع "**إميل دوركايم**"(**E.Durkheim**) (**ت1917م**) عندما عرف اللغة تعريفا يتناسب مع وظيفتها؛ حيث يقول إنها «نشاط اجتماعي أو سلوك اجتماعي مشترك بين الجماعة اللغوية الواحدة، وهدفه الأساسي التواصل والتفاعل والتعاون»[4].

إذن فالإنسان الواحد لا يستقل بمفرده بجميع حاجاته، بل لابد له من معاون، ولا تعاون إلا بالتعارف، ولا تعارف إلا بأسباب كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد وأيسرها وأفديها وأعمها الألفاظ.

وهذا ما ذهب إليه **ابن جني** في تعريفه للغة: «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[5].

---

(1)-الحيوان:الجاحظ، ح1، ص 43.

(2)-علم الإعلام اللغوي: عبد العزيز شرف، ص 58.

(3)-علم نفس اللغة – من منظور معرفي –:موفق الحمداني دار المسيرة، عمان ، ط1((1425-2004 م) ص 149.

(4)-ملكة اللسان: أحمد دراج، ص 59.

(5)-الخصائص: ابن جني، ج1، ص 33.

فاللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد في إتباعه، ويتخذونه أساسا للتعبير عما يجول بخواطرهم، وفي تفاهمهم بعضهم مع بعض، إذن فاللغة تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث عن الحياة الجمعية، (فهي نتاج العقل الجمعي) وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل الأفكار والحاجات، لتحقيق المراد [1].

إذن تفطن الجاحظ دوره في الإبانة عن الحاجات البشرية، وتحقيق الذات الإنسانية.

و هذا كله قبل أن يتحدث عنها المحدثون، وقبل أن يدرجها علماء الاجتماع ضمن موضوعات علم الاجتماع، وفرعا من فروعه، سمي "بعلم الاجتماع اللغوي".

و لعله يمكننا القول إن نشأة " اللسانيات الاجتماعية " تعود إلى صاحب "البيان والتبيين" إذ نجح إلى حد كبير، في أن يقدم وربما لأول مرة في تاريخ الفكر اللغوي الإنساني الأصول النظرية والتحليلية لعلم الاجتماع اللغوي.

فالبيان اللغوي هو العروة الوثقى الذي جعل الاتصال عملية اجتماعية، فهو يترجم عن عقلية الجماعة، ونظمها، ومطامحها، ونظرها إلى الحياة، وفهمها لحقائق الكون، ومبلغ تقدمها في ميادين العلوم والفنون، وما وصلت إليه في سلم الارتقاء.

3- آلة البيان ودورها في العملية اللغوية:

يعد اللسان أداة البيان الرئيسية، وتتوقف على سلامته سلامة البيان، باعتبار أن التواصل بين الناس، ويتمكن به المرء من نقل أفكاره وتحقيق حاجاته.

لهذا يشترط الجاحظ في بيانه أن يكون اللسان خاليا من مختلف العيوب، ليتحقق شرط البيان، ووظيفة الإفهام، وغرض الاتصال، وهدف التعاون.

"لأن مدار الأمر على" البيان والتبيين "وعلى" الإفهام والتفهم «وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانه كان أحمد»[2].

«فاللسان هو عضو النطق، وآلة الكلام، ومفتاح الفؤاد، والباب إليه، يكشف بأدائه ما في

---

[1]-اللغة والمجتمع:علي عبد الواحد وافي، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض ، ط4 (1423هـ-1983م) ص05، بتصرف.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 11.

قلب صاحبه»[1].

يعزز قوله "**زهير بن أبي سلمى**" في معلقته الشهيرة:

وكائن ترى من صامت لك معجب * زيـــادته أو نقصـــه في التكلم**

لسان الفتى نصف ونصف فـــؤاده * فلم يبق إلا صور اللحم والدم**[2].

فاللسان هو وسيلة البيان الأساسية، التي بها يتفاضل الناس داخل المجتمع الواحد في سلوكهم اللغوي السليم، فإذا كل كلام الإنسان عليلا، ومبناه ركيكا، سقط قدر المتكلم وقلت هيبته [3].

وبهاء الإنسان وجماله، وقيمته وقدره في لسانه، فإذا نطق المرء ارتفع قدره وعلا، أو قل شأنه ودنا،يقول "**الخليل بن أحمد الفراهيدي**" في بهاء اللسان الذي يفوق بهاء اللباس:

أي شيء من اللباس على ذي الس * رو أبهى من اللسان البهـــي**

ينظم الحـــجة الســـنية في الســـل * ك من القول مثل عقد الهدي** [4].

وقد بلغ بهم الأمر أن عدّوا العلة اللسانية عورة في الإنسان، فقد ذكر أعرابي رجلا يعيـــا، فقال: «رأيت عورات الناس بين أرجلهم وعورة فلان بين فكّيه»[5].

كما ضرب الله مثلا لعي اللسان ورداءة البيان، حيث شبّه أهله بالنساء والولـــدان قـــال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف،18]

و لما كانت جودة النطق والبعد عن العيوب اللغوية والعلل اللســـانية معـــالم حضـــارية اجتماعية، برزت يوم اعتمد اللسان معيارا يفرق بين السري والدنيء، وجب على الإنسان تقليب لسانه، ومراجعته، وجهد نفسه في إخراج كلامه سليما.

---

[1]-علل اللسان وأمراض اللغة: محمد كشاش، ص23.

[2]-ديوان زهير بن أبي سلمى: زهير بن أبي سلمى، ص 71.

[3]-ينظر:علل اللسان وأمراض اللغة: محمد كشاش، ص 43، لمزيد من التفصيل.

[4]-بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس: ابن عبد البر القرطبي أبو عمر يوسف، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 (د.ت.ط)، ج1، ص65.

[5]-علل اللسان وأمراض اللغة: محمد كشاش:، ص 44.

و قبل التطرق للعيوب النطقية التي تحدث عنها الجاحظ، رأينا ضرورة إدراج هذين الرسمين الموضحين لجهاز النطق عند الإنسان، و المناطق المسؤولة على استخدام اللغة في المخ وذلك للفهم الجيد لهذه العيوب واستيعاب كيفية حصولها حتى نتمكن من تجنبها.

إن عملية الاتصال اللغوي عمل من أعمال الدماغ، بمراكزه اللغوية المتخصصة تعينـــه في ذلك أعضاء النطق.و تتركز الروابط المسؤولة عن وظائف الكلام في الشق الأيسر من المخ، وفيه توجد التركيبات الترابطية، التي تقوم بتحويل الإشارة السمعية والبصرية إلى تكوينات لفظية[1].

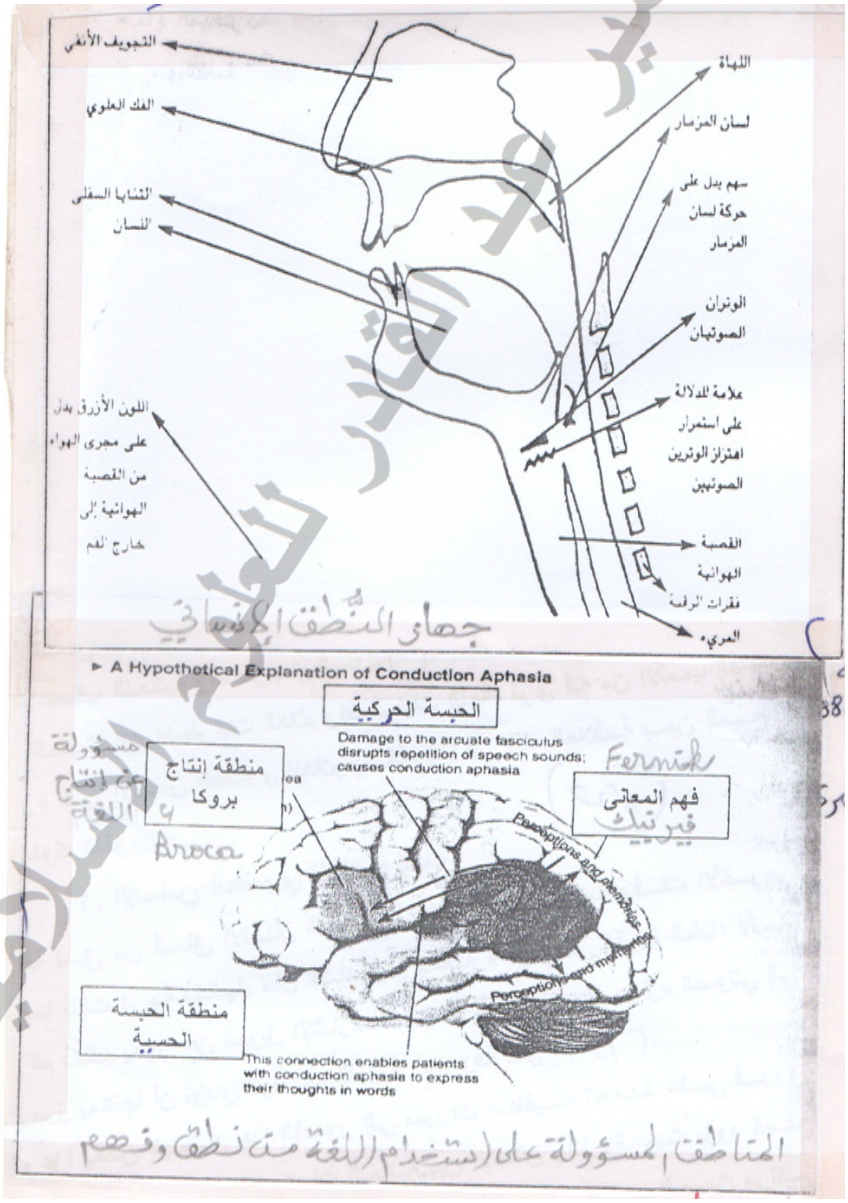

[1]-ينظر:مدخل إلى علم اللغة: محمد علي الخولي، دار الفلاح، الأردن ، (د.ط)، (2000م)، ص68.لمزيد من التفصيل.

-العيوب النطقية الناتجة عن سوء الأداء وقلة القدرة عن الكلام:

1-الحبسة [1]: «عقدة تصيب اللسان، وتحدّ من قدرته عن التعبير جيدا، وعن إفهام الآخرين»[2]. يقول الجاحظ بهذا الصدد: «وسأل الله - عزّ وجل - موسى بن عمران - عليه السلام - حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حاجته، والإفصاح عن أدلته فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ ﴾ [طه، 27-28]» [3].

«وهي تبدو بشكل وقفات قاهرة أثناء الكلام، وكأن ملقطا أمسك باللسان ومنعه عن الحركة بضع ثواني ثم أطلقه من جديد ليستأنف عمله»[4].

ورغبة من موسى - عليه السلام - في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ردءا يصدقه [5] .

وقال تعالى - على لسان موسى عليه السلام - يصف الحبسة التي كان يعاني منها ﴿ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ ﴾ [الشعراء، 13].

ومع تطور الدراسات النفسية، اتسع مفهوم "الحبسة"، فأطلقت على عدد من الأمراض الكلامية، على الرغم من التفاوت بينهم في المظهر، ومن أبرز الأعراض التي تتضمنها:

فقد القدرة على التعبير بالكلام أو الكتابة، وعدم القدرة على فهم الكلمات المنطوق بها،وعدم القدرة على مراعاة القواعد التي تستعمل في الحديث أو الكتابة.

ويمكن التفريق بين نوعين من أنواع حبسة اللسان، باعتبار ما يوافق خسران اللغة الداخلية

---

[1]-**الحبسة**: آفة اللسان: يعسر معها الكلام. ويثقل القول. **ينظر**:لسان العرب: ابن منظور، دار صادر - بيروت -، (د.ط)، (د.ت.ط)، مادة " حبس "، ج2، ص 752. لمزيد من التفصيل.

[2]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص 382.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 07.

[4]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ علي بوملحم، ص 382.

[5]-**ينظر**:البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص 07، لمزيد من التفصيل.

من عوامل التحول دون سهولة اللفظ والقدرة على صياغته[1].

الأولى:حبسة **فرنيك (fernike)**؛فيها يتكلم المريض برداءة، وتنقصه المفردات والقواعد[2].

الثانية: حبسة **بروكا (Broca)**؛حيث يظهر المريض أبكم أو قليل الكلام[3].

يقول الجاحظ: «....وليس اللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء، وذو الحبسة والحكلة والرّتّة وذو اللفلف والعجلة في سبيل الحصر في خطبته، والعي في مناضلة خصومه»[4].

2 اللجلجة [5]: «ثقل اللسان، ونقص الكلام، وأن لا يخرج بعضه في أثر بعض، والثقل يكون بفقدان القدرة على إخراج الكلام بشكل طبيعي، بل يتدفق بشكل تردد، وتكرار مقاطع منه. ويشبه كلام المتلجلج بالإنسان الذي نال منه البرد، قيل لأعرابي: ما أشدّ البرد؟»

قال: «إذا دمعت العينان، وقطر المنخران، ولجلج اللسان»[6].

وقال "**المهلبي**"(**ت352 هـ**) في اللّجلاج:

ليس خطيب القوم باللّجلاج * ولا الذي يرحل كالهلباج**

ورب بيداء وليل داج * هتكته بالنص والإدلاج** [7].

ومن أمثلة اللجلجة، النطق بكلمة (كتب) على أحد الأشكال التالية:

---

[1]-علل اللسان وأمراض اللغة: محمد كشاش، ص 32، بتصرف.

[2]-حديث المريض المصاب بحبسة فرنيك سريع وفصيح، ويحتوي على كل حالات النحو الصغيرة ويحافظ على الإيقاع المضبوط وتعمم النقاش الطبيعي، لكنه يبقى بلا معنى، أو أن يكون له قليل منه. **ينظر**:علل اللسان محمد كشاش، ص 33.لمزيد من التفصيل.

[3]-المرء المصاب بحبسة بروكا يتحدث قليلا جدا، فإذا سئل فإن إجابته تكون كثيرة التردد، ويبدو كأنه يجد عسرا بنطق الكلمات، فيبثها بأسلوب برقي، كما يلفظ منعزلة وتنقصها أحرف العطف وغيرها من أدوات وصل الكلام، ويكون تصريف الأفعال عنده بدائيا مثل:أنا ذهب الآن. **ينظر**: علل اللسان: محمد كشاش، ص 33.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 12.

[5]-**اللجلاج**: المتردد في الكلام، والذي يتصف بثقل اللسان. **ينظر**:لسان العرب:ابن منظور، مادة لجج ج5، ص 400،لمزيد من التفصيل.

[6]-علل اللسان: محمد كشاش، ص 33.

[7]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 39.

الأول: تكرار "الكاف" مرات قبل النطق بالكلمة كاملة:

ك.....ك.....ك ⟵ كتب.

الثاني: توقف قبل النطق، ثم دفع الكلمة مرة واحدة:

توقف ⟵ كتب [1]

3 التمتمة [2]: أوضحها "**الأصمعي**"(**ت216هـ**) بقوله: «إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام»[3].

ومن أمثلة التمتمة، قول "**رؤبة بن العجاج**"(**ت145هـ**): [من الرجز]

يا حمد ذات المنطق التمتام * كأن وسواسك في اللّمام**

حديث شيطان بني هنّام [4].

4 الفأفأة[5]: يقال رجل فأفاء؛إذا كان يكثر ترداد الفاء في كلامه.

يقول "**الأصمعي**":«إذا تعتع اللسان في التاء فهو تمتام، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء »[6].

5- الرّتة[7]: مرض لغوي عرفه **الثعالبي**(**ت 429 ه**) بأنه: «حبسة في لسان الرجل وعجلة في كلامه»[8]. فهي عجلة في الكلام وقلة أناة.

6 اللفف[9]:قال "**أبو عبيدة**": «إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألفّ، وقيل

---

[1]-علل اللسان: محمد كشاش، ص 33.

[2]-**التمتمة**:ترديد الفاء في الكلام.**ينظر**:لسان العرب: ابن منظور، مادة تمم، ج1، ص449، لمزيد من التفصيل.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص37.

[4]-ديوان رؤبة بن العجاج: رؤبة بن العجاج، اعتنى بتصحيحه وتربيته: وليم بن الورد البروسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، (د.ط)،(1400ه- 1980م)،ص 144.

[5]-**الفأفأة**:ترديد الفاء في الكلام.**ينظر**:لسان العرب:ابن منظور، مادة فأفأ، ج5، ص3335.لمزيد من التفصيل

[6]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 37.

[7]-**الرتة**:العجمة في اللسان.**ينظر**:ابن منظور:لسان العرب، مادة رتت، ج3، ص1575، لمزيد من التفصيل.

[8]-فقه اللغة وأسرار العربية: الثعالبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، (د.ط)، (د.ت.ط)، ص 72.

[9]-**ذواللفف**:عيي بطيء الكلام، إذا تكلم ملأ لسانه فمه.**ينظر**:لسان العرب: ابن منظور، مادة لفف، ج 5 ص4054.لمزيد من التفصيل.

بلسانه لفف».

وأنشد "**لأبي الزحف**" الراجز:

كأن فيه لففا إذا نطق * من طول تحبيس وهمّ وأرق.**

كأنه لما جلس وحده و لم يكن له من يكلمه، وطال عليه ذلك، أصابه لفف بلسانه"[1].

7 العجلة: «هي آفة السرعة في تأليف الحروف، وسوق الكلام، مما يجعل الكلام غير واضح ولا مفهوم»[2].

«وأنشد "**الأصمعي**":

حديث في فرط إذا ما لقيتهم * كتر والدنيا في العرفج المتقارب.**

وقال ذلك حين كان في كلامهم عجلة، وقال "**سلمة بن عياش**":

كأن بني رألان إذا جاء جمعهم * فراريج يلقى بينهن سويق**

فقال ذلك لدقة أصواتهم، وعجلة كلامهم» [3].

8 العقلة: ترتبط هذه الظاهرة المرضية بالحبسة مع اختلاف في القدر والعقلة: «التواء اللسان عند إرادة الكلام» [4].

يقول الجاحظ: «ويقال في لسانه عقلة إذا تعقل عليه الكلام»[5].

9 اللثغة[6]: «هي الظاهرة الأكثر انتشارا، وهي تقوم بإبدال حرف بآخر، لأن لسان صاحبها لا يحسن لفظ الحرف الذي تجنبه»[7].

وقد فصل الجاحظ هذه الظاهرة شرحا وتمثيلا، فأحصى الحروف التي تدخلها اللثغة وهي

---

(1)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 38.

(2)-لسان العرب: ابن منظور، مادة عجل، ج4، ص 2821.

(3)-البيان والتبيين:الجاحظ، ص 39.

(4)-علل اللسان: محمد كشاش، ص 30.

(5)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 39

(6)-**اللثغة**:عيب من عيوب النطق يقوم على العجز عن إخراج بعض الحروف، واستبدال غيرها بها.**ينظر**: لسان العرب: ابن منظور، مادة لثغ، ج5، ص3995،لمزيد من التفصيل.

(7)-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 282.

أربعة أحرف:القاف، السين اللام، والراء.

- فاللثغة التي تعرض **للسين** تكون **ثاء**:

مثل قولهم: أبو يكثوم **إذا أرادوا** ⟵ أبو يكسوم.

بثرة **إذا أرادوا** ⟵ بسرة.

بثم الله **إذا أرادوا** ⟵ بسم الله.

- وأما اللثغة التي تعرض **للقاف** تكون **طاء**:

مثل قولهم: طلت له **إذا أرادوا** ⟵ قلت له.

طال لي **إذا أرادوا** ⟵ قال لي.

أما اللثغة التي تقع في **اللام** فتكون على وجهين:

من أهلها من يجعل **اللام ياء**.

مثل قوله: اعتييت ⟵ إذا أراد اعتللت.

جمي ⟵ إذا أراد جمل.

ومنهم من جعل **اللّام كافا**:فمن أراد أن يقول:"ما العلة في هذا" قال: "مكعكة في هذا"

- واللثغة التي تقع في **الراء**، يعرض لها أربعة أحرف:

- منهم من يجعل الراء **ياء**، فإذا أراد أن يقول: عمرو، قال: **عمي**.
- منهم من يجعل الراء **غينا**، فإذا أراد أن يقول: عمرو، قال: **عمغ**.
- منهم من يجعل الراء **دالا**، فإذا أراد أن يقول: عمرو، قال: **عمد**.
- منهم من يجعل الراء **ظاء**، فإذا أراد أن يقول: عمرو، قال: **عمظ**[1].

ومن الناس من يجعل الراء غينا معجمة،وقد تجتمع في واحد لثغتان في حرفين.

«واللثغة التي في الراء إذا كانت **بالياء** فهي أحقرهن، وأوضعهن لذي المروءة، ثم التي على **الظاء**، ثم التي على **الدال**، فأما التي على **الغين** فهي أيسرهن، ويقال إن صاحبها لو جهد نفســـه

[1]-**ينظر**: البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 34 – 36.لمزيد من التفصيل.

وأحدّ لسانه، وتكلف مخرج الراء عن حقها والإفصاح بها، لم يك بعيدا من أن تجيبه الطبيعة...»[1].

-العيوب النطقية الناجمة عن اختلاط اللسان العربي باللسان العجمي:

1 الحكلة: «هي عقدة في اللسان وعجمة في الكلام»[2].

«فإذا قالوا: في لسان حكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال».

وقال "**رؤبة بن العجاج**":

لو أنني أوتيت علم الحكل * علم سليمان كلام النمل**

وقال "**التّيمي**" في هجائه لبني تغلب:

ولكن حكة لا تبين ودينها عبادة أعلاج عليها البرانس.

فكان العجمة التي لحقت اللسان سببت التعقيد في اللسان، والعثرة في البيان "[3].

2 اللّكنة: يعرفها الجاحظ بقوله: «ويقال في لسانه لكنة، إذا ادخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول»[4].

وتشيع اللكنة بين العجم الذين يتعلمون العربية ويتكلمونها كبارا، ومن الأمثلة التي يقدمها الجاحظ عن اللكنة؛ أن السّندي إذا جذب كبيرا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل **الجيم زايا**، ولو أقام في عليا **تميم**، وفي سفلى **قيس**، وبين عجز **هوزان** خمسين عاما.وكذالك النبطي القح يجعل **الزاي سينا**، فإذا أراد أن يقول:**زورق**، قال: **سورق** ويجعل **العين همزة**، فإذا أراد أن يقول: مشمعل قال: مشمئل [5].

«والنخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة، بأن تقول

---

[1]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1،ص36.

[2]-فقه اللغة وأسرار العربية: الثعالبي، ص 72.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 40.

[4]-المصدر نفسه.

[5]-**ينظر**: المصدر نفسه، ص70، لمزيد من التفصيل.

ناعمة، وتقول شمس ثلاث مرات متواليات»[1].

وهذه اللكنة التي تعتري الأعاجم، والعرب الذين ينشؤون مع الأعاجم تختلف عن اللكنة التي تعتري الصبيان، وتختلف أيضا عما يعتري الشيخ الهرم الماج المسترخي الحنك والمرتفع اللثة[2].

ويسوق الجاحظ شواهد على اللكنة أصابت خطباء كبار، وقوادا وولاة وناسا من العامة منهم: "زياد الأعجم" الذي يجعل السين شينا، والطاء تاء، فيقول: فتى زاده السلطان، بدل قوله فتى زاده السلطان. ومنهم "أبو مسلم الخرساني" صاحب الدعوة العباسية، كان إذا أراد أن يقول قلت لك، قال: كلت لك. ومنهم "مولي زياد"المدعو "فيل"، فإنه قال مرة "لزياد بن أبيه" " أهدوا لنا همار وحش"، يريد: " حمار وحش". فقال زياد: "ما تقول ويلك ؟"

قال: اهدوا إلينا أيرا، يعني عيرا. فقال زياد: الأول أهون.وفهم ما أراد.

وقال بعض الشعراء في أم ولد له، يذكر لكنتها:

أول ما أسمع منها في السحر * تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر**

والسوءة السواء في ذكر القمر[3].

3- اللحن: هو الخطأ في تحريك حروف الكلمات بين ضم وفتح وكسر وجزم وفي القواعد اللغوية، فهو ليس عيبا في اللفظ بل في اللغة، وقد بدا اللحن يفشو منذ العصر الأموي على إثر احتكاك العرب بالأعاجم، بعد دخول العديد من الأمم في الإسلام وأدى إلى نشوء لهجات مشوهة لا تزال حتى الآن شائعة في الأقطار العربية[4].

وقد خص الجاحظ هذه الظاهرة بباب في كتابه "البيان والتبيين" سماه " باب اللحن " وقد أورد أمثلة كثيرة عن اللحن منها: «ماقاله في **يوسف بن خالد السمتي**، **لعمرو بن عبيد**. ما تقول في دجاجة ذبحت من قفائها ؟. قال:أحسن.قال: من قفاؤها. قال: أحسن.قال:من قفاءها. قال

---

[1]-**ينظر**: البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص71، لمزيد من التفصيل.

[2]-**ينظر**: المصدر نفسه، ج1، ص73، لمزيد من التفصيل.

[3]-المصدر نفسه، ج1، ص 71- 74، بتصرف.

[4]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص 384، بتصرف.

عمرو ما عنّاك بهذا ؟ قل: من قفاها واسترح.

قال: وسمعت من يوسف بن الخالد يقول:لا حتى يشجه، بكسر الشين. يريد: حتى يشجه بضم الشين.

وكان يوسف يقول: هذا أحمر من هذا يريد: هذا أشد حمرة من هذا»[1].

«وقال **عبد الملك بن مروان(ت86 هـ)**: «اللحن هجنة على الشريف،والعجب آفة الرأي».

وكان يقال: اللحن في المنطق أقبح من آثار الجذري في الوجه»[2].

قالو: وأول لحن سمع بالبادية:هذه عصاتي، وأول لحن سمع بالعراق:حي على الفلاح.

وقال عمر ﷺ: «تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض» [3].

وعن ***العيوب البيانية*** يقول الجاحظ:

«وليس حفظك الله مضرة سلاطة[4] اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل[5] يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث من العي[6] من اختلال الحجة، وعن الحصر[7] من فوت درك الحاجة والناس لايعيّرون الخرس، ولايلومون من استولى عن بيانه العجز [8] وهم يذمون الحصر، ويؤنبون

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2،ص 212.

[2]-المصدر نفسه، ج 1، ص 216.

[3]-المصدر نفسه، ص 219.

[4]-**السّلاطة**:حدّة اللسان والصخب. **ينظر**: لسان العرب: ابن منظور، مادة سلط، ج3، ص 2065.

[5]-**الخطل**:الذي كلما تكلم زاد عن المقدار، و لم يصبه. **ينظر**:لسان العرب: ابن منظور، مادة خطل، ج2 ص1903 لمزيد من التفصيل.

[6]-**العي**:العجز في النطق وعدم القدرة على نطق المراد. **ينظر**:لسان العرب: ابن منظور، مادة عيي، ج 4 ص 3201 لمزيد من التفصيل.

[7]-**الحصر**: العي في المنطق، وعدم القدرة على القراءة. **ينظر**:لسان العرب:ابن منظور، مادة حصر، ج2 ص 869. لمزيد من التفصيل.

[8]-**العجز**:عدم القدرة على البيان المطلوب، لقصور ما في جهاز النطق، أو قدرات العقل.**ينظر**:لسان العرب: ابن منظور، مادة عجز، ج 4، ص 2817. لمزيد من التفصيل.

العيي...» [1].

ويقول: «ومماتنة الحصر للبليغ المصقع، في سبيل مماتنة المنقطع المفحم [2] للشاعر المفلق»[3].

ويقول أيضا: «كما أن سبيل المفحم عند الشعراء، والبكئ[4] عند الخطباء، خلاف سبيل المسهب[5] الثرثار والخطل المكثار»[6].

كما يقول:

«ثم اعلم – أبقاك الله – أن صاحب التشديق[7] والتقعير[8] والتقعيب [9] من الخطباء والبلغاء، مع سماجة التكلف، وشنعة التزيد، أعذر من عي يتكلف الخطابة، ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة»[10].

وحديث الجاحظ عن العلل التي تشوب البيان، دفعته إلى دراسة العلاقة بين هذه العلل من جهة والأعضاء المشتركة في إخراج اللفظ كالشفاه والأسنان واللسان.

فوجد أن الشفة الفلحاء أو العلماء تؤثر في اللفظ إلى جانب الأسنان [11].

إذن فقد نجح الجاحظ، العالم اللغوي والأديب المفكر إلى حد كبير في أن يبحث العلاقة بين أجهزة النطق الفيزيولوجية واللغة، كما تمكّن من طرح أحدث النظريات اللغوية مثل علم اللسان التقابلي، الأمراض اللغوية، وجهاز النطق....

---

[1]–البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 12.

[2]–**المفحم**: الذي لا يقول الشعر. **ينظر**:لسان العرب:ابن منظور، ج5، ص 3359. لمزيد من التفصيل

[3]–البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص12.

[4]–**البكئ**: معناها في الأصل: القلة، وتستعمل للدلالة على حالات العجز عن التصرف بالكلام قولا وخطابة **ينظر**:لسان العرب:ابن منظور، مادة بكأ، ج1، ص 332.لمزيد من التفصيل.

[5]–**المسهب**:هو الباسط للكلام، المتوسع فيه بلا موجب أو مقتض، فكأنه ذاهب العقل من شدة العادة.**ينظر**: لسان العرب: ابن منظور، مادة سهب، ج3، ص 2065. لمزيد من التفصيل.

[6]–البيان والتبيين: الجاحظ،، ج1، ص 13.

[7]–**التشديق**:تكلف البلاغة.**ينظر**:لسان العرب:ابن منظور، مادة شدق، ج4، ص2217. لمزيد من التفصيل.

[8]–**التقعير**: تكلف الكلام بأقصى قعر الحلق، على مذهب الأعراب.**ينظر**:لسان العرب: ابن منظور، مادة قعر، ج5. ص 4225. لمزيد من التفصيل.

[9]–**التقعيب**: أن يخرج الكلام من فمه كالعقب (تقصير الكلام). **ينظر**:لسان العرب:ابن منظور، مادة قعب ج5، ص3685. لمزيد من التفصيل.

[10]–البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 13

[11]–**ينظر**:المصدر نفسه، ص58. لمزيد من التفصيل.

ولما كان البيان هو المنطق الذي فضل به الله -سبحانه وتعالى- الإنسان على سائر المخلوقات،ولما كان اللسان هو الأداة الأساسية التي يتحقق بها البيان،والوسيلة الرئيسة التي يتفاضل بها الناس، وجب على المرء أن يكون بتعهده لسان حريا ويعمل على درء مختلف العلل اللسانية والأمراض اللغوية، حتى يتحقق شرط البيان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: البيان بمفهوم الصيغة الإبداعية.

بعد حديث الجاحظ عن " البيان" بالمعنى المعرفي العام، الذي يهدف فيه إلى الانتقال بالمعنى من حيز الكتمان إلى حيز التصريح، بأي وسيلة كانت، وبأي صنف من أصناف الدلالات على المعاني التي أوردها، سواء اللغوية منها أم غير اللغوية فالمهم هو تحقيق غاية "الفهم والإفهام"، حتى يتم التواصل بين البشر، والتعاون بينهم لقضاء الحاجات، وبلوغ المقاصد، دون النظر إلى نوع العلامة، ولا جنس الدليل.

ثم نرى الجاحظ يضيق دائرة " البيان"، ويخصه "بالبيان اللغوي " الذي اعتبره أكمل أنواع الدلالات على المعاني؛ باعتباره أقدر الأنساق التواصلية على نقل مختلف المعاني البشرية، وأكثر الأنماط التعبيرية ملاءمة للتعبير عن مختلف الحاجات.

ويمكن أن نعد حديث الجاحظ عن " البيان اللغوي " تمهيدا ينفذ من خلاله، للانتقال "بالبيان"من المعنى العام إلى المعنى البلاغي أو الإقناعي الخاص، باعتبار المفهومين متداخلين عنده إذ لا نجد فصلا صريحا بينهما.

1- البيان من الفهم والإفهام إلى الإقناع والإمتاع.

بعد أن تصبح اللغة قادرة على أداء وظيفتها في التفاهم بين أبناء المجتمع الواحد، تتحول في ذلك المجتمع نفسه إلى وسيلة من وسائل الترف، مثلها في ذلك مثل الملابس والأطعمة، التي بمجرد خروجها من حيز الوقاية أو الجوع، تصبح عالما حافلا بإمكانيات الأبهة، وتخرج عن مجرد الاستجابة إلى مطالب ضرورية لتكون فنا يقصد لذاته، ويوظف لتحقيق غايات مخصوصة[1].

كذلك اللغة؛ فمع تعدد الهموم الشخصية والمذهبية، وتكون الذوق الجمالي لدى البشر لم يعد الإنسان يكتفي منها بمجرد الفهم والإفهام، بل راح يسخرها لخدمة أغراضه، لأنه كما تدعو الحاجة إلى التفاهم، فالحاجة أيضا تدعو إلى تأكيد المعنى وتقريره، كما يتلذذ بما فيها من سحر البيان وفرط الجمال،وتعبيرها الراقي عن ارقي المشاعر وألطف الأحاسيس، وأدفأ العواطف بأروع صورة وأبهى حلة، لأنه كما يحتاج الجسم إلى الغذاء تحتاج الروح إلى اللذة والمتعة.

---

[1]-اللسان والإنسان: حسن ظاظا، ص 74.بتصرف.

والجاحظ يورد "البيان" في جوار لغوي ذي طابع معياري تقييمي تصبح بمقتضاه وظيفة "البيان" في حاجة إلى مستوى لغوي تتوفر فيه خصائص نوعية تخرجه من جاري الاستعمال إلى حيز البلاغة، إلا أن تلك الخصائص غير صريحة، إنما يستشفّها القارئ من السياق اللغوي، وهو في الغالب يكون أثناء الحديث عن النص القرآني أو الحديث النبوي، باعتبارهما المثل الأعلى في التعبير الراقي. يقول الجاحظ: «ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ»[1].

وفي سياقات أخرى يفصل الجاحظ بصريح العبارة بين البيان بمعناه العام ومعناه الخاص؛الذي توظف فيه اللغة توظيفا أدبيا جماليا، فيكتسب الخطاب، لفظه ومعناه وبنيته خصائص نوعية يتحول بمقتضاها من مرتبة الوسائل إلى مرتبة الوسائل والغايات معا، فيجلب انتباه المتلقين بذاته ولذاته، إما لإقناعه أو لإمتاعه [2].

أم عن أبرز المواطن التي تخدم هذا المعنى، ويقوم فيها الجاحظ بدور الناقل الناقد إذ يتدخل إثر كل رواية تدخلا صريحا على مدى تبلور المتصور والمصطلح في ذهنه، وهو في التعليق يطابق – بلا حرج – بين مصطلحي " البيان " و"البلاغة ".

وقد نقل تعريف **جعفر بن يحي** للبيان حيث يقول:«أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه عن الشركة،ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لابد منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة، بريئا من التعقد، غنيا عن التأويل»[3].

ويعلق الجاحظ مباشرة بعد هذا القول: «وهذا هو تأويل قول الأصمعي:" البليغ من طبق المفصل ن وأغناك عن المفسر»[4]. فالجاحظ يطابق في الدلالة بين مصطلح "البيان" و"البلاغة" فحمل الصفة المشبهة "بليغ"وما تعلق بها عن تعريف "البيان ".

وفي سياق آخر، ينعكس الأمر؛ فتدور الرواية حول حدّ البلاغة ونجد الجاحظ يستعمل في التعليق كلمة "البيان".

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص08.

[2]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 152..

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 106.

[4]-المصدر نفسه.

ينقل الجاحظ عن العتّابي مفهوم البلاغة: «...كل من أفهمك حاجتك من غير إعادة ولاحبسة ولا استعانة فهو بليغ»[1]. وبعد حوالي خمسين صفحة يحس الجاحظ بالحاجة إلى التعليق على هذا التعريف، وتقييده، وهذا نتيجة لما كان عليه حال اللغة العربية في عصره، والانحراف اللغوي الذي طغى على الحقبة الزمنية التي عاش فيها، قال أبو عثمان: «فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواء، وكله بيانا (....) وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء»[2].

فالإفهام الذي يقصده العتابي لا يكون باستعمال اللغة العادية، ولا اللغة العامية المبتذلة؛ إنما يقصد الإفهام بلغة فصيحة توفرت لها شروط الفصاحة، الإفهام بلغة جميلة اكتملت لها عناصر فنية معينة، تزاح الألفاظ بموجبها عن دلالاتها الأصلية لتحقيق غايات جمالية هدفها التأثير في المتلقي.

ويقول الجاحظ: «وليس، حفظك الله، مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من إخلال الحجة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة»[3].

«رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع»[4].

«وذكر الله – عزّ وجلّ – لنبيّه عليه السلام حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة واللّدد عند الخصومة» [5].

«ولما علم **واصل بن عطاء(ت 131 هـ)** أنه ألثغ فاحش اللّثغ، وأن مخرج ذلك من شنيع وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 113.

[2]-المصدر نفسه، ص162.

[3]-المصدر نفسه، ص12.

[4]-المصدر نفسه، ص 07.

[5]-المصدر نفسه، ص08.

الملل (...) وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة(...) وأن ذلك أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق، وتزين به المعاني(...)رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه»[1].

الغرض	صفات البيان وموضوعه		مؤهلات البيان وعوائقه	
التأثير	الموضوع	الصفات	العوائق	المؤهلات
استمالة القلوب ثني الأعناق التصديق إسراع النفوس الاستمالة	الدعوة إلى مقالة الدفاع عن نحلة إبلاغ الرسالة الحجة، الحاجة المنازعة.	الإفصاح الوضوح الصحة البيان الإفهام الفهم الإبانة،الإبلاغ	العي، الحصر ضيق الصدر توقف اللسان اللثغ	المنطق، الأحلام العقول، الدهاء النكراء، المكر الألسنة، التمييز السياسية.

استنادا إلى الجدول يتبين لنا أن ليس غاية"الفهم والإفهام"هو ما تعبر عنه هذه النصوص وغيرها،بل الواقع أنها تتجه اتجاها إقناعيا يهدف إلى التأثير في الملتقى واستمالة النفوس، مع تداخل الغايتين، باعتبارهما يعتمدان على الوسائل المؤدية نفسها

ويمكن اعتبار:الدهاء والمكر والنكراء والسياسة والمنطق والأحلام...الخ، والإبانة والوضوح والدعوة...الخ، واستمالة القلوب وميل الأعناق وإسراع النفوس من أجلي صفات الاستمالة والإقناع.

والذي يتضح لنا من الجدول السابق أن المؤهلات التي رصدها الجاحظ والآثار التي توخاها تحسم أمر الغرض من بعض الوسائل التي تبدو محايدة مثل الفهم والبيان والوضوح والصحة، إنها كلها وسائل تستعمل للإقناع سواء بالاستمالة وإسراع النفوس أو بثني الأعناق والاضطرار.

«ومع تداخل مفهومي البيان عند الجاحظ، إلا أنه يمكننا القول إن المفهوم العام يدخل في الرؤيا العامة للعصر تأملا في النص والكون، والمفهوم الخاص يدخل في إطار الهموم الشخصية والمذهبية للجاحظ، باعتباره علم من أعلام المعتزلة حاول ضمن جهود شيوخهم المذكورين في البيان والتبيين وغير المذكورين تقنين الخطاب الإقناعي، أي العمل في المستوى البلاغي: تفاوت

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 14- 15.

الخطاب وشجاعته»[1].

فالجاحظ لا يقدم ما يدل على تفريقه بين المستوى المعرفي العام والمستوى الإقناعي الخاص بحيث يكون الثاني الذي يعد بلاغيا، مستوى من مستويات الأول الذي يعد لغويا أو سيمائيا.

ولم يقدم الجاحظ أثناء الحديث عن الفهم نعوتا إضافية تدل على امتداد الفهم الإقناع بل إن المفهوم العام زاحم المفهوم الخاص في المراحل اللاحقة التي أعلن فيها الجاحظ الانتقال من العام إلى الخاص، على النحو التالي:

البيان ← البلاغة ←الخطاب الشفوي (الخطابة)

يقدم الجاحظ تصوره لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي.

إذ لم يكد الجاحظ ينتهي من تعريف البيان باعتباره فهما وإفهاما بالوسائل اللغوية وغير اللغوية حتى قايض كلمة بيان "بكلمة" "بلاغة"[2].

و الجاحظ عندما يتحدث عن الخطابة كمرادف للبلاغة ذلك لأنه كانت البلاغة في تصور ذلك العصر تنظر إلى الخطابة بقدر ما سينظر البديع إلى الشعر.

2- مفهوم الكلام البليغ:

اهتم الجاحظ بالكلام اهتماما بليغا، لأنه أساس ضبط نواميس البيان عنده وغايته ومن البديهي أن يلقى هذا الاهتمام؛ لأن البلاغة لا تعدو أن تكون كلاما على كلام فهو الذي يشرع وجودها ويحتويها تصورا كانت أو ممارسة.

وقد عمد الجاحظ إلى دراسة مختلف المظاهر المساهمة في تأليف النص، والمؤثرة في خصائصه الفنية انطلاقا من تآلف الحروف إلى أن يصبح بنية متماسكة في شكل فني، مزاوجا في ذلك بين الخصائص النوعية للوحدات، والمميزات العامة لبنية الكلام[3].

وإذا أردنا تقريب هذا المنهج في الدراسة من المشاغل البلاغية والأسلوبية الحديثة نجد أن عنايته ببلاغة الكلام تحيط بالجدولين اللذين ينظّمان الظاهرة اللغوية: جدول الاختيار **Axe)**

---

[1]-البلاغة العربية أصولها وإمداداتها: محمد العمري، ص 200.

[2]-وذلك في الصفحة (88) بالضبط من الجزء الأول من كتاب " البيان والتبيين ".

[3]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 228.

(**paradigmatique**)، وجدول التوزيع (**Axe syntagmatique**).

أما عن جدول **الاختيار** فتقع فيه صلب الإجراءات المتعلقة بالوحدات اللغوية المفردة كاختيار اللفظ الملائم للمعنى المراد والمستجيب للغاية المتوخاة من الكلام أو استغلال العلاقات الاستبدالية بين أجزاء ذلك الجدول.

وأما جدول التوزيع فعلى أساسه تضبط أسس انتظام الكلام طبق (علاقة التجاور) (Relation de contiguite)، باعتبار هذه العلاقة هي التي تصبغ النص بصبغة فنية متميزة، إضافة إلى الخصائص الفنية للوحدات [1].

أما عن مفهوم البلاغة عند الجاحظ:

فقد تعددت المواطن التي ورد فيها تعريف البلاغة، واختلفت أشكالها وصيغها فنجدها ترد أحيانا جوابا لسؤال مباشر؛ يكون في الغالب: "**ما البلاغة؟**"[2]، ومنها ما يكون مصدرا بعبارة تدل على تعريف مثل:"**جماع البلاغة** "[3]، وفي بعض الأحيان تكون أقرب إلى الحكم النقدي الفردي منه إلى المفهوم مثل: «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة»[4]، «يكفي من حظ البلاغة أن.. »[5].

والملاحظ على هذه الحدود هو تباين أصولها، فمنها ما هو منسوب للعرب، ومنها ما هو لأجناس أخرى كانت على صلة بالحضارة العربية الإسلامية كالفرس، واليونان.

ويدل هذا التباين على تلاقح الثقافات في عصره، وإطلاع العرب على ما عند غيرهم من الأمم المجاورة، واستفاد منها الجاحظ كشاهد يدعم رأيه، وبهذا التنوع في الشواهد تعدى أبو عثمان ضيق المستوى القومي إلى رحابة المستوى الإنساني.

إلا أن الملاحظ على هذه التعاريف هو خروجها في الغالب عن حيز النص، وتعلقها بمسائل تبدو لأول وهلة منفصلة عن المشاغل البلاغية التي يتعمد فيها الباث صوغ نصه صياغة تجلب

---

(1)-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 228.

(2)-وردت اثنتا عشرة مرة في " البيان والتبيين ": 88/1، 96، 97، 113، 114، 115، 116، 220، 94/4.

(3)-وردت ثلاث مرات: 88/1، 103/2.

(4)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 115.

(5)-المصدر نفسه ص 87.

الانتباه بذاتها ولذاتها، ويعدل بها عن جاري الاستعمال بهدف إحداث أثر في المتلقي، والذي لا يتحقق باستخدام اللغة العادية.

«يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتي السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتي الناطق من سوء فهم السامع»[1].

فهذا التعريف يقتصر على تحقيق غاية "الفهم والإفهام"، دون الحديث عن الخصائص الفنية التي تجعل النص بليغا، واكتفى بأن يكون المتكلم قادرا على الإبلاغ والسامع قادرا على الفهم ليتم التواصل.

«حدثني صديق لي، قال:قلت للعتّابي: ما البلاغة ؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ»[2].

هذا التعريف أيضا يربط البلاغة، بسلامة المتكلم من العيوب النطقية والأمراض اللغوية؛ إلا أن التلفظ أمر عارض لا صلة له بالنص في حد ذاته ن فلا يعقل أن يتغير النص بتغير طريقة إلقائه.

«وقيل لليوناني: ما البلاغة ؟ قال تصحيح الأقسام واختيار الكلام»[3].

«وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة»[4].

ويمكن القول إن هذين التعريفين وغيرهما -خاصة التعاريف التي تربط المقام بالمقال- يدخلان ضمن فنّيات المناظرة والجدل، وطرق الإقناع، فمها أقرب إلى أساليب المناظرة منه إلى نهج البلاغة.

إلا أن نظرة متأنية نجد أن هناك رابطا بين البلاغة وهذه التعاريف المتعلقة أساسا بفنيات النص الخطابي الإقناعي، فالجاحظ انطلق أساسا في تأصيل بلاغته من الخطابة، التي كانت عنده النموذج المثالي الذي توفرت له كل شروط الكلام البليغ. -بعد القرآن والحديث-، والتي ارتبطت نشأة وتطورا بأغراض عقائدية وسياسية.

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1،ص87.

[2]-المصدر نفسه، ص113.

[3]-المصدر نفسه، ص 88.

[4]-المصدر نفسه.

فقد اعتبرها المعتزلة وسيلتهم التي لا تضاهي للذود عن مذهبهم، والدعوة إليه ونشره كما عدها الجاحظ سلاحه المتين للدفاع عن تفوق العرق العربي، وموروثه الحضاري من طعنات الشعوبية التي شككت في قدرتهم البيانية التي بني عليها إعجاز قرآنهم، الذي يعد أصل هذا البيان.

إضافة لهذا، يمكن القول إن مختلف التعاريف التي أوردها الجاحظ للبلاغة، لم تأت جزافا أو على سبيل الجمع والتقصي وإظهار البراعة في ذلك – كما نظن البعض – إنما هي شواهد منتقاة خدمة للغرض وتدعيما لوجهة النظر، إذ تتضمن مجتمعة أهم الأسس التي بنى عليها الجاحظ رأيه في النص البليغ، كخصائص النص البليغ، «قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة ؟ قال ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار (....) قال السائل: ليس هذا ما أريد. قال عمرو: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام قال: نعم»[1].

و قال أبو عثمان: «أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّرا وحشيا، ولا ساقط سوقيا»[2].

وعلاقة اللفظ بالمعنى كقول الجاحظ «وقال بعضهم وهو من أحسن ما اجتبيناه ودونّاه لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[3].

«ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف»[4].

أيضا تطرق الجاحظ – إضافة إلى هذه التعاريف – إلى قضايا هامة أخرى؛إذ عدّها أساسا في بناء النص البليغ، لم تذكرها التعاريف السابقة،أو لم توفّها حقها، وقد اعتمد في ذلك على القرآن الكريم والشعر العربي.

«أما القرآن الكريم فقد مكّنه من بلورة مسألة هامة، ساعدته في غرضه المذهبي؛ إذ اعتمد عليه في تأويل بعض الآيات التي تنافي أصول مذهبه، مستخدما في ذلك المجاز»[5].

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص114.

[2]-المصدر نفسه، ص137.

[3]-المصدر نفسه، ص 115.

[4]-المصدر نفسه، ج1، ص 136.

[5]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 136.

وفي معرض حديثه عن الشعر تناول قضية هامة، وهي موقفه عن المولدين، ويطرد عنـــده في هذا السياق مصطلح " البديع ".

وعليه، فالمقاييس التي اعتمدها الجاحظ في تحديد الكلام البليغ تعد حصيلة الأنواع الأدبية في الثقافة العربية الإسلامية، إضافة إلى بعض النّقول عن الأمم المجاورة التي تعدّ الأساس الوطيـــد والمرجع المتين الذي اعتمده البلاغيون والنقاد بعده.

3- مقومات الكلام البليغ:

لما كانت خصائص الكلام البليغ ترتكز أساسا على الوحدات اللغوية المفردة والبنيـــة التركيبية العامة، أردنا دراسة الخصائص المميزة لكل منهما على حدة.

3-1- خصائص اللفظ المفرد:

«إن المبدأ العام والإطار النظري الشامل لمشقات آرائه في اللفظ هو"الاختبار" وقـــد ورد ذكره بصريح العبارة في مواطن كثيرة»[1]. منها قول الجاحظ: «ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه متخيرا من جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبب إلى النفوس....»[2].

وانتقاء اللفظ هو الحد الفاصل بين الممارسة اللغوية الاجتماعية التي تهدف إلى التواصـــل بين أفراد المجتمع، والممارسة اللغوية الفنية التي تسعي إلى التأثير.

وليس من باب الصدفة أن يكون هذا المبدأ، الأساس الذي يجمع مختلف مقاييسه، إنما يعود هذا إلى قناعات الجاحظ، والمنطلق الذي بني عليه تفكيره البلاغي، فقد اعتمد في التأصيل للبلاغة على الخطابة كما سبق القول والتي تستدعي الاختيار الدقيق للألفاظ التي يجب أن تكون ملائمة للغرض،وموافقة للمقام، وعلى أقدار المعاني.

-**فصاحة اللفظ**: تبدأ فصاحة اللفظ من بنيته الصوتية، وانسجام الحروف التي يتركب منها اللفظ فيما بينها، وتآلفها واقتران الحروف المركبة للفظ،و التي يجب أن تنبني أساسا على "التشابه والموافقة"؛ أي عدم الجمع بين الحروف المتنافرة من جهة المخارج:

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 238.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص08.

فالجيم لا تقارن (الظاء – القاف – الطاء – العين) بتقديم ولا تأخير.

والزاي لا تقارن (الظاء – الشين – الضاد – الذال) بتقديم ولا تأخير[1].

فمتى تحقق القران بين الحروف المركبة للفظ، وتآلفت هذه الحروف، وحسن تجاورها صار النطق باللفظ سهلا، ووقعه في السمع عذبا، وصار يتسم بصفة الجمالية

وجمال اللفظ عند الجاحظ لا ينحصر بالضرورة في رقته ولينه، بل في فخامته وجزالته أيضا «وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الفخامة والجزالة»[2].

والجاحظ حين يشترط هذه الصفات في اللفظ، يؤكد من خلال ذلك موقفه من قضية "الصنعة" التي شاعت في عصره، حيث يشترط أن يكون اللفظ: «سليما من التكلف بعيدا من الصنعة، بريئا من التعقيد»[3].

ومن مقتضيات الفصاحة عنده أيضا الالتزام بلغة قريش، التي تعد المثال سواء في الألفاظ أو في كيفية الأداء.

أما عن الألفاظ فقد جعل القرآن الكريم النموذج المقتدي والنموذج المحتذى في ذلك فكلما كانت اللفظة أكثر موافقة لألفاظ القرآن الكريم، يكون حظها من الفصاحة والبلاغة، ويأتي الجاحظ بمثال: «قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة، فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة...»[4].

وأما من حيث الأداء الجيد، فالقرآن نزل بلغة قريش، التي وفّر لها المولى عز وجل من العناية الإلهية لتكون أكمل اللغات وأصحها، باعتبارها سوف تتشرف بحمل الرسالة إلى البشرية.فقد عرفت قريش ببلاغة المنطق[5]، حتى غدت مضرب المثل، حيث كان يقال: «أشبه قريش نغمة

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص69، بتصرف.

[2]-المصدر نفسه، ص 69، بتصرف.

[3]-المصدر نفسه ، ص 106.

[4]-المصدر نفسه، ص18 – 19.

[5]-المصدر نفسه، ص 08.

وجهارة»[1].

فقد كانت طريقة نطق قريش خالية من مختلف الشوائب التي كانت عند بعض القبائل الأخرى، التي كانت متاخمة لها، لهذا عدت قريش أفصح الناس، يقول الجاحظ: «وقال معاوية يوما: من أفصح الناس؟،فقال قائل:قوم ارتفعوا عن لخلخانية[2] الفرات وتيامنو عن عنعنة[3] تميم وتياسرو عن كسكسة[4] بكر، ليست لهم غمغمة[5] قضاعة، ولاطمطمانية [6] حمير.قال: من هم ؟ قال: قريش...» [7].

علاقة اللفظ بالمعنى:

استأثرت هذه المسألة بجانب كبير من مجهودات الجاحظ البلاغية، واحتلت مكانة مرموقة في تفكيره؛ إذ تعد من المعالم البارزة في نظريته البلاغية، باعتبار أن البلاغة تقوم في أصل معناها على «إرادة المتكلم إيصال معنى من المعاني أو فكرة من الأفكار إلى الشخص المقصود بالكلام حسب كيفيات معينة، تتحدد بنوع العلاقة القائمة بين الدال والمدلول»[8].

وقد لقيت هذه القضية سوء فهم كبير من طرف الدارسين، الذين راحوا يتهمون الجاحظ بتهمة التناقض، وذهب البعض الأخر يحكم عليه بأنه من أنصار اللفظ دون المعنى، اعتمادا على بعض النصوص التي تواترت في مؤلفاتهم، فاصلين بينها وبين السياقات الواردة فيها، ودون الأخذ بعين الاعتبار باقي نصوصه.

إلا أن جل الدارسين الذين حكموا له بذلك كانوا ينظرون إلى المسألة من الخارج دون ربطها بتصوره البلاغي العام؛ فباعتبار البلاغة تهتم بكيفيات التعبير التي تحقّق الغرض المتوخى وهو

---

(1)-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص 344.

(2)-**الخلخانية**: العجمة في المنطق.**ينظر**:البيان والتبيين: الجاحظ، ج3، ص212، لمزيد من التفصيل.

(3)-**العنعنة**: قوله في موضع (أن): عن. **ينظر**: المصدر نفسه، لمزيد من التفصيل.

(4)-**كسكسة**:أن يجعل بعد كاف مذكر أو مكانها سينا. **ينظر**:المصدر نفسه، ص 213، لمزيد من التفصيل.

(5)-**الغمغمة**: الكلام الغير بين. **ينظر**:المصدر نفسه،ص 213.

(6)-**الطمطمانية**: العجمة. **ينظر**: المصدر نفسه، لمزيد من التفصيل.

(7)-المصدر نفسه، ص 212 – 213.

(8)-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 245.

التأثير في المتلقي، فمن الطبيعي أن تهتم بطرق إيراد المعنى.واعتماد على هذا ينبغي أن لا تثار المسألة أصلا في مبحث بلاغي.

والجاحظ شديد التعلق بالصياغة الفنية، وكثير الاهتمام بطرق أداء المعنى، ورأيه المشهور، الذي يعتمده الدارسون لتحديد مذهبه في هذه المسألة والمتمثل في «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي...»[1].

ليس الوحيد، إنما هناك سياقات أخرى تؤكد هذا المذهب منها ما رآه من صعوبة ترجمة الشعر، ويعود السبب في ذلك عنده إلى بنيته وصياغته التي لا يمكن الحفاظ عليها.يقول: «متى حول تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، ويسقط موضع التعجب»[2]، وغيرها من المواضع التي لا يسمح المقام بذكرها.

إلا أنه في مواطن أخرى نجد احتفاله بالمعنى لا يقل عن احتفاله باللفظ. فنجده يقول:

«... وشر البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقا لذلك اللفظ، وشغفا بذلك الاسم، حتى صار يجرّ إليه المعنى جرا، ويلزقه به إلزاقا، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره، ومنعه الإفصاح عنه إلا به»[3].

ويقول أيضا «... والأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح...»[4] و باعتبار أنه لا حاجة للبدن من دون الروح فإن المعنى في هذا السياق مقدم على اللفظ.

إذن يمكننا القول إن تقديم الجاحظ للصياغة على المعنى في بعض السياقات أمر طبيعي خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه يؤصل لنظرية بلاغية أساسها الجنس الخطابي؛الذي يتخذ من الكلمة الوسيلة الأولى للوصول إلى الغاية، إضافة إلى موقفه من إعجاز القرآن؛إذ علّله بنظمه خلافا لأستاذه **النظّام** الذي قال بالصرفة وعليه يعد التعلق بالصياغة لمن جعل بنية الكلام دليلا

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج 3، ص131 – 132.

[2]-المصدر نفسه، ج 1، ص 75.

[3]-رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة المعلمين، ج3، ص 40.

[4]-المصدر نفسه، رسالة في الجد والهزل، ج1، ص 262.

على الإعجاز أمر طبيعي.

يبقى أن نتساءل ما إذا كانت هناك أسباب كامنة دفعت بالجاحظ إلى تبني هذا الموقف؟ فهل يمكن أن نعتبر انتصاره للصياغة أمرا فرضته الملابسات الاجتماعية والسياسية في النصف الأول من القرن الثالث؟أم الأمر يعود إلى انتماءات الرجل؟

ولعله يمكن أن نعد موقفه هذا يدعو إلى تركيز سلطة الكلمة في يد الجنس العربي، الذي كان الدفاع عنه والانتصار له شغل أبي عثمان الشاغل طيلة صفحات الكتاب "فالمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي"، وتقديم "العجمي" في العبارة، إشارة ضمنية إلى تساوي حظوظ العرب والعجم في معرفة المعاني بينما يظهر التفاوت في صياغة تلك المعاني. ومما يؤكد لنا أيضا العلاقة الوطيدة بين هذه القضية ورؤيته الاجتماعية أنه أنزل المعاني طبقات كالناس، وجعل الألفاظ على أقدار تلك المعاني.

وتمسك الجاحظ بالوظيفة الإفهامية في كل مستويات البيان جعله يلح على أن يكون اللفظ واضحا صريحا، يقول: «أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه»[1]. إلا أن هذا الرأي ليس مطّردا في كل الأقوال ففي بعض المقامات والمواضعات الاجتماعية من ناحية ومراعاة لأصول مذهبه الاعتزالي من ناحية أخرى، يحتاج أحيانا إلى الإيحاء والتأويل.

وعناية الجاحظ بالخطابة عموما، ومقامها على وجه الخصوص أدى به إلى وضع مقياس آخر للفظ والمعنى، تمثل في بلوغ اللفظ إلى السمع والمعنى إلى القلب في الوقت نفسه.

يقول: «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[2].

كما أكد الجاحظ أيضا على أن «اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، فالفصاحة لا تتفق والغريب، لأنه يقضي عليها ويحيل الكلام ألغازا ثقيلة ويجعله بعيدا عن الفهم والإدراك»[3].

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 83.

[2]-المصدر نفسه، ص 115.

[3]-البلاغة عند الجاحظ: أحمد مطلوب، دار الحرية للطباعة، بغداد ، (د، ط)، (1403 هـ- 1983م) ص 40.

فقد اختار منزلة وسطى بين الغريب الوحشي والساقط السوقي، وقد سماه "المقدار " ويورد أمثلة على نصوص حشيت بالغريب، ويعلق عليها بأن الله باعد بينها وبين صفة الفصاحة والبلاغة[1].

وتحدث عن مسألة الدّقة في استعمال الألفاظ، ومثاله المحتذى دائما هو القرآن [2].

و منه فالجاحظ يرى بمطابقة الألفاظ للمعاني، حتى يأتي الاسم "لا فاضلا ولا مفضولا" فالمعاني والألفاظ تشترك لتخرج صورة تنتقل إلى الملتقى، ومحال أن يكون اللفظ وحده مؤديا الهدف، أو المعنى وحده محققا الغاية، فالجاحظ إذن يقول بالنظم إلا أنه لم يسمه. وانطلاقا من مميزات اللفظ الفصيح، يمكن تحديد مميزات البنية التركيبية لأن اللفظ لا يعدو أن يكون لبنة في هذا التأليف وبالتالي فخصائصه تندرج ضمن مميزات التأليف.

3-2-خصائص البنية التركيبية (التأليف):

ألحّ الجاحظ على ضرورة تآلف الألفاظ في السياق، ما أطلق عليه (القران) «أي التشابه والارتباط بحيث لا يكون تنافر بين كلماتها»[3].وقد تحدث عن تنافر الألفاظ، إذ يقول:

«ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كان مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر**»[4].

ومن ذلك أيضا تفضيلهم شاعر على شاعر؛ لأن أحدهم يقول البيت وأخاه، بينما الآخر يقول البيت وابن عمه[5]، لذلك ينبغي أن تكون الألفاظ في التأليف متماثلة متلائمة لا يقع بينها التنافر كأولاد العلاّت[6]؛ لذا قال: «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج،

---

[1]-**ينظر**:البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 378.

[2]-**ينظر**:المصدر نفسه، ص 20.

[3]-البلاغة عند الجاحظ: أحمد مطلوب، ص 39.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج 1، ص65.

[5]-المصدر نفسه، ص 288، بتصرف.

[6]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج 1، ص 288، بتصرف.

فتعلم بذالك أنه قد أفرغ إفراغا واحد وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجـــري على الدهان»[1].

كما شبه ما يحصل من التنافر بين الألفاظ "ببعر الكبش" في التفريق. يقول الشاعر:

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه * لسان دعي في القريض دخيل.**

يقول الجاحظ معلقا على قول الشاعر: " وأما قوله" كبعر الكبش «فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاوز. وكذلك حروف الكـــلام وأجـــزاء البيـــت مـــن الشعر»[2].

وعليه يمكن القول إن هذه الدراسات التي أقامها الجاحظ في مجال البلاغة والفصاحة سواء المتعلقة بالوحدات اللغوية المفردة أو البنية التركيبية العامة هي الأساس الذي بني عليها القـــدماء دراساتهم، وهي كذلك في هذا العصر، فلا تزال كتب البلاغة والنقد تستعمل ما نقله الجـــاحظ أو ابتدعه، وعليه فجهوده في الفصاحة والبلاغة تعد حاضرا ينبض بالحياة، ومستقبلا يزهر بالأمل.

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج 1، ص 67.

[2]-المصدر نفسه ، ص 66 – 67.

الفصل الثاني:

مقومات المتكلم عند الجاحظ.

أولا: مقتضيات الوظيفـــة:

1- وظائــفية الكلام.

2- النواميس اللغوية الضرورية للتواصل.

3- نظــرية المقامات.

ثانيا: مقتضيات الإبانـــة:

1- الطبع و الميل الفطري للإبداع.

2- الدربة و دورها في حذق الصناعة.

3- التحصّن بباع في العلم و المعرفة.

ثالثـا: مقتضيات المقـــام:

1- مستلزمات المقام.

2- منزلة المتلقي الاجتماعية و انتماؤه الطبقي.

3- مقتضيات الحال.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا:مقتضيات الوظيفة:

تقوم العملية اللغوية عند الجاحظ على ثلاثة محاور أساسية، تعد الحد الأدنى للبيان اللغوي وهي:المتكلم والسامع والكلام، وعلى هذه العناصر وما يحف بها من ملابسات، وما يكون بينها من روابط ترتكز كل تحليلاته اللغوية ومقاييسه الأسلوبية وتصوراته البلاغية.

و تفطن الجاحظ إلى أمر كهذا في القرن الثالث الهجري يعد قفزة نوعية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ومظهرا من مظاهر الحداثة والمعاصرة، ذلك لأن فرقعة ظاهرة التواصل إلى مكوناتها الأساسية لم تتم إلا في حقبة متقدمة من هذا القرن في ما أطلق عليه "نظرية التواصل"(**Théorie de la communication**) وهي نظرية تهتم بكل أشكال الخطاب مهما كانت " **السنة**" المستعملة، و" **القناة** " المختارة، ويقوم " **مخططها القاعدي** " على العناصر الثلاثة التي ذكرناها[1].

وقد استفاد علماء اللغة ونقاد الأدب من هذه النظرية استفادة كبيرة، وتمكنوا بتطبيقها في اختصاصاتهم من التقدم خطوات شاسعة.

وكان **لرومان جاكبسون** (**R.Jakobson**) فضل السبق في توظيفها للتقدم بالأبحاث الشعرية والأسلوبية والخروج بها من المأزق الذي تردت فيه لتحديد"أدبية" الأدب[2].

فقد كانت جل الأبحاث قبله تعتمد لتحديد تلك الأدبية على خصائص الخطاب ذاته فقط ومقابلته بالخطاب العادي المجرد من كل بعد فني، دون الأخذ بعين الاعتبار مختلف الملابسات المعقدة التي تؤسس العملية التخاطبية، بينما راح " **جاكبسون**" يؤكد على ضرورة اجتماع مختلف ظروف المقال اللغوية وغير اللغوية لتحديد خصائص الخطاب؛ إذ خصائص النص ذاته لوحدها غير كافية [3].

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 167، بتصرف.

[2]-**الأدبية**: يبقى أي حديث على الأدبية مبتورا، ما لم يقرن بالإشارة إلى القفزة التاريخية الشهيرة التي أوردها " رومان جاكبسون" سنة 1919، في سياق حديثه عن القصيدة الروسية الجديدة، والتي صارت ملازمة للمصطلح منذ صياغته الروسية الأولى " litéaturmost " حين أعلن: " ليس موضوع علم الأدب هو الأدب بل الأدبية: أي ما يجعل من أثر معطى أثر أدبيا "، ينظر:إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد: يوسف وغليسي، ص 278. لمزيد من التفصيل.

[3]-**ينظر**: التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 167. لمزيد من التفصيل.

لهذا يجب على الدارس الاهتمام بكل هذه العناصر مجتمعة، حتى يتمكن من إدراك الأسس التي تنبني عليها ملامح النص ونوعيته؛ إذ إن خصائص الخطاب ومواصفاته التي تعد موضوع الدرس البلاغي هي حصيلة تفاعل جملة هذه المعطيات الحافة بإنجاز الخطاب،خاصة المتكلم والسامع والهدف الذي يرميان إليه.

والملاحظ أثناء حديثنا عن أطراف العملية اللغوية عند الجاحظ هو عدم التوازن في الاهتمام بهذه الأطراف؛ فالمتتبع لنصوص الجاحظ يجد ضآلة في حديثه عن السامع في مقارنة بحديثه عن المتكلم، وتداخل في مقوماتهما،ولعل مرد ذلك حسب ما ذهب إليه "**حمادي صمود**": «أن دوره لا يعدو دور المستهلك للنص ولا يتطلب منه ذلك إلا حسن الاستماع والفهم والاستجابة للقصد،ثم إنه لا يتمتع بوجود نمطي نموذجي، شأن الكاتب أو المتكلم؛ إذ القارئ أو السامع يمكن أن ينتمي إلى كل الأوساط الثقافية والاجتماعية، مما يجعل تحديد ملامحه أمرا صعبا لذلك،حمّل الكاتب وحده مسؤولية مآل خطابه ونجاعته فجاءت كل المقررات والتوجيهات متعلقة به وبالكيفيات التي عليه أن يمارس على أساسها نصه،وخلقه الفني...»[1].

يقول الجاحظ في هذا الصدد: «والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل،إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم.هكذا ظاهر هذه القضية وجمهور هذه الحكومة»[2].

وكأننا بالجاحظ يعتذر عن اهتمامه بالمفهم وتقصيره في حق المتفهم.

والمتكلم هو «الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به،من أجل التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسد ذاته من خلال بناء خطابه، باعتماده إستراتيجية خطابته، تمتد من مرحلة تحليل السياق ذهنيا والاستعداد له، بما في ذلك اختيار العلامة اللغوية الملائمة،وبما يضمن تحقق منفعته الذاتية،بتوظيف كفاءته للنجاح في نقل أفكاره بتنوعات مختلفة. ولا يمكن للغة الطبيعية أن تتجسد وتمارس دورها الحقيقي،إلا من خلال المرسل...»[3].

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 169.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1،ص11-12.

[3]-استراتيجيات الخطاب ــ مقاربة لغوية تداولية ــ:عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة ــ بيروت ــ، ط1 (2004م)، ص45.

1- وظائفية الكلام:

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، لا تتم سعادته ولا تتحقق آماله إلا مع أفراد جنسه ولأجل هذا كانت اللغة وسيلة تفاهم دائم، وربط بين الإنسان وبني جنسه، توصل ما تجيش به النفس إلى الآخرين؛ من هنا كانت أهمية الكلام وصياغته؛ حيث تختلف هذه الأخيرة باختلاف الغاية التي إليها يرمي المتكلم والسامع.

فالإنسان يتكلم عادة من أجل أن يبلغ هدفا معينا،هذا الهدف يؤثر لا محالة في شكل القول الذي نقول، وعلى أساسه يضبط مقوماته، ويرتسم له الخط الذي يسير على هديه ليتم له غرضه،ويتحقق له مبتغاه.

والجاحظ يؤكد على أن من أعون الأسباب على تعلم اللغة،وبلوغ أعلى المراتب فيها هو «فرط الحاجة إلى ذلك»[1].

وهو بهذا يشير إلى أمر حضاري هام، وهو أن اللغة ومنها البيان اللغوي من نتاج المجتمع ويخضع في اتساعه وضيقه لحاجاته ومقاصده؛ فاللغة « تلبي الحاجات التواصلية والإبلاغية والحجاجية لذلك المجتمع»[2].

إضافة لهذا، وكما سبق القول في الفصل الأول، فإن مفاهيم البيان عند الجاحظ تختلف من سياق لآخر، والمتتبع لهذه السياقات يتضح له أن مفهوم البيان يختلف أساسا باختلاف الغاية التي يرمي إليها طرفا العملية اللغوية والغرض المراد تحقيقه من الخطاب.

و يقول الجاحظ عن هذا الغرض: «مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3].

فوظيفة الكلام عنده إذن هي "مدار الأمر" و"الغاية"؛فمدار الأمر هو الأساس الذي ينبني عليه الفعل اللغوي, والغاية أي علة وجود ظاهرة الكلام،والتي من دونها لا يوجد كلام أصلا،ومما

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج5، ص263.

[2]-كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج-رسائله نموذجا-:علي محمد علي سليمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، -بيروت-، ط، (2010م)، ص154.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1،ص76.

يؤكد هذه الأهمية «اشتراط النحاة حصول الفائدة ليستحق الملفوظ تعريفه بأنه كلام،ومن المعلوم أن الفائدة تحصل باستعمال وجوه متفاوتة من التراكيب و بكيفيات مختلفة من طرق التلفظ» [1].

ثم إننا نجد الجاحظ يقدم هذه الغاية على المتكلم والسامع، فنجده يقول «التي إليها يجري القائل والسامع» ولم يقل: «التي يجري القائل والسامع إليها. «فنجده يقدمها على الفعل والفاعل معا مستخدما أسلوب "التقديم"لإبراز أهمية المقدم. فالغاية أو الوظيفة عند الجاحظ هي«حجر الزاوية في هذا البناء لأنها مولد اللحمة ومحرك التفاعل بين هذه الأطراف إلى تحقيقه»[2].

والتتبع لمفاهيم البيان عند الجاحظ، ومجاري استعمال الظاهرة اللغوية،و الاستقرار الموضوعي لجملة مؤلفاته، يفضي بنا إلى استخلاص وظيفتان رئيستان: وظيفة إفهامية، ووظيفة خطابية.

1-1-الوظيفة الإفهامية:

"الفهم والإفهام" أو "البيان والتبيين"،لعلنا في غنى عن إثبات أن البيان في مفهومه العام يقتصر على أداء هذه الوظيفة، فتحقيق التواصل لا يتم إلا من وجه الفهم والإفهام.

فالوظيفة الإفهامية هي الوظيفة المسيطرة على التفكير البياني للجاحظ،فهي مبثوثة في تضاعيف كلامه عن البيان بمختلف مستوياته، وممتدة طول حديثه عنه حيث نجدها في المستوى العادي اليومي، والمستوى الفني الجمالي، لأنها اللبنة الأساسية التي عليها يقوم البيان، مهما كانت الغاية التي يرمي إليها المتكلم والهدف الذي يسعى لتحقيقه، لأن كل كلام غير مفهوم يعد ضربا من اللغو الذي لا فائدة منه ولا حاجة إليه أصلا.

ومن أوضح الأدلة على أهمية هذه الوظيفة في العملية اللغوية،ودورها الفعال هو العنوان الذي توج به الجاحظ أهم كتبه صلة بالمباحث اللغوية والمشاغل البلاغية نعني به "البيان والتبيين".ففي العديد من المواطن نجده يراد ف بين "البيان والتبيين" و"الفهم والإفهام "،كما في قوله: «...لأن مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهم...»[3].

فالبيان في معناه العام ينشد الغاية الإفهامية؛ إذ الأمر فيه يتعلق بإيضاح المعنى القائم في

---

[1]-استراتيجيات الخطاب:عبد الهادي بن ظافر الشهري،ص06.

[2]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود:،ص169.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1،ص11.

النفس حتى يدركه الآخر، وبذلك تتحقق وظيفة "الفهم والإفهام". «وقد وصل الجاحظ إلى هذا المعنى انطلاقا من الوظيفة الأولى للغة،وهي التواصل وكشف الكامن في الصدور،ولذلك فقد مهد لمطابقة البيان بالفهم»[1] عندما نقل عن بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني حديث عن المعاني الخفية وكيف يخبر عنها [2].

فالوسيلة تدور حول الذكر والإخبار والاستعمال، والوظيفة ترجع إلى التقريب من الفهم،وإظهار الخفي، وتقريب الغائب والبعيد إلى الإفهام.

وهذه وظيفة اللغة بصفة عامة،فقد عدها الجاحظ أولى الدلالات على المعاني وأنجعها في نقل خواطر الإنسان،يتفاهم بها الناس ويقضوا حاجاتهم، «فاللغة أهم الوسائل التي يستعملها الإنسان لتجسيد قصده، وتحقيق هدفه،أي لتحقيق الفهم والإفهام بين أطرافه، من جانب، وتحقيق ما يصبوا إليه هو،من جانب آخر،بيد أن أهميتها تتجاوز ذلك إلى أنها هي الأداة الأهم؛فلا يقتصر دورها على وظيفة نقل الخبر، أو وصف الواقع، بل ينجز بها الإنسان أعمالا لا يستطيع إنجازها من دونها»[3].

ويقول أبو عثمان بصدد هذه الوظيفة: «...لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[4].

فالجاحظ يؤكد على أن "الفهم والإفهام" هي الركيزة الأساسية في العملية اللغوية،لأن أي كلام غير مفهوم لا يستحق أن يسمى كلاما أصلا.ويقول **ابن سنان الخفاجي(ت 466 هـ)** في هذا الصدد: «ومن شروط الفصاحة والبلاغة: أن يكون معنى الكلام واضحا ظاهرا جليا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه، وتأمل لفهمه، وسواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظوما أو منثورا (...) والدليل على صحة ما ذهبنا إليه (...) أن الكلام غير مقصود في نفسه

---

[1]-البلاغة العربية أصولها وامتداداتها:محمد العمري،ص195.

[2]-ينظر: البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص75.

[3]-استراتيجيات الخطاب:عبد الهادي بن ظافر الشهري،ص25،بتصرف.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص76.

واحتيج إليه ليعبر الناس عن أغراضهم ويفهموا المعاني التي في نفوسهم»[1].

فهو يؤكد على ضرورة توفر الوظيفة الإفهامية، لأنها العماد والأساس الذي تقوم عليه بقية الوظائف الأخرى.

ومن هنا يمكن القول إن الوظيفة الإفهامية باعتبارها أساس كل كلام،هي قاسم مشترك بين مختلف مستويات البيان،فهي تمتد إلى بقية الوظائف وتتماشى معها،بغض النظر عن المواصفات النوعية للخطاب،وغاياته الفنية أو الإقناعية؛إذن باعتبار هذه الوظيفة الأساس الذي يبنى عليه الكلام فإنها تتماشى مع الظاهرة اللغوية في مستوياتها العادية اليومية الجارية على ألسنة الناس أو الفنية الجمالية ذات المقاصد الأدبية والسمات الفنية[2].

والمتتبع للعديد من المواضع في"البيان والتبيين" يتأكد له صحة ما ذهبنا إليه.ومن ذلك ما أورده الجاحظ عن عبد الرحمان بن إسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة قال: «سمعت أبا مسلم يقول:سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام المناطق،ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع».

قال أبو عثمان: «أما أنا فأستحسن هذا القول جدا»[3].

والملاحظ من قوله هذا أن الوظيفة الإفهامية ملازمة وضرورية حتى في الكلام الفني الذي حمل مقاصد أدبية ووسم بسمات فنية؛ فقد اكتفى هنا بالفهم والإفهام كمعيار لجودة الكلام، وجعله في مراتب البلاغة.

ويقول أيضا: «ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[4].

والجاحظ هنا يؤكد مرة أخرى على الوظيفة الإفهامية، ويجعلها أساس الخطاب؛ فهي الوظيفة المحورية، المركز الذي تقوم عليه العملية اللغوية.

---

[1]-سر الفصاحة:ابن سنان الخفاجي،شرح وتصحيح:عبد المتعال الصعيدي،مطبعة محمد علي صبيح وأولاده،- مصر- (د.ط)، (د.ت.ط)، ص209.

[2]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص178، لمزيد من التفصيل.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1،ص86-87.

[4]-المصدر نفسه ،ص93.

ويظهر هذا جليا من خلال ما نقله الجاحظ عن العتابي في تعريف البلاغة والبليغ «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حسبة ولا استعانة فهو بليغ»[1].

فالعتابي ربط بين الإفهام والإجادة في القول، لأن الأول هو الأساس الذي يقوم عليه الثاني،فمن دون إفهام لا يكون الكلام أصلا؛لا عاديا ولا فنيا،فالفهم والإفهام ثم الإجادة والتحبير لبلوغ ما يرمي إليه المتكلم من إمتاع أو إقناع.

إلا أنه وبعد حوالي خمسين صفحة يشعر الجاحظ بالحاجة إلى تدقيق هذا التعريف وضبطه خاصة بعد تفشي ظاهرة الفساد اللغوي في عصره نتيجة لاختلاط الأجناس وتمازج الثقافات بعد الفتوحات الإسلامية، فراح يخرج الكلام المعد ول عن جهته والدخيل والفاسد،لأن هذا أيضا من الكلام المفهوم، نتيجة لتعود الألسنة على الفاسد من الكلام حتى صارت تستعمله في مخاطباتها اليومية، لكن الجاحظ أخرجه من دائرة الفصاحة والبلاغة لأنه ليس على مجاري كلام العرب الفصحاء فيقول: «...وإنما عني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء »[2].

وغيرها من المواضع والسياقات التي تؤكد على هذه الوظيفة، ويزاوج بينها وبين الخصائص الجمالية للنص، بل إن الحرص على تلك الخصائص لا يعدو أن يكون وسيلة لبلوغ هذه الغاية من أوضح السبل وأحسنها،لأن الإفهام أساس الإمتاع أو الإقناع وأصل كل تأثير.

والجاحظ في كل هذا ينظر إلى اللغة نظرة تتأسس على المنفعة والنجاعة،فنراه يؤكد في غير موضع على أن «مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة»[3].

وهذه النظرة التي تتأسس على المنفعة والنجاعة يمكن ردها إلى سببين رئيسيين: ولهما تاريخي عام،وثانيها ظرفي خاص.

أما الأول؛فيرجع إلى مكانة النص ووظيفته في بنية المجتمع الإسلامي الثقافية فهي على ما يبدو كانت تنحوا إلى توظيفه لأغراض نفعية جماعية أو فردية ولذلك كانت مكانة الشعر عندهم لصيقة بقدرته الإجرائية، ومدى ما يبلغه من تغيير،ولما له من تأثير،فيصبح من هذا المنظور القول

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص113.

[2]-المصدر نفسه، ص163.

[3]-المصدر نفسه،ص136.

هو عين الفعل.و لم يخرج القرآن أيضا عن هذه النزعة،بل سعى إلى تقويتها.

فالنص مهما كانت قيمته في ذاته؛ فإنه يرتبط بغرض معين، ويجري لغاية محددة لذلك لم تتبلور في الحضارة العربية الإسلامية فكرة "الفن للفن"إلا في عصور متأخرة وربطت بقولهم "عصور الانحطاط" .

وأما الثاني؛فمنها ما قد يعود إلى الحقبة التاريخية التي عاش فيها الرجل،ومنها ما قد يرجع إلى انتماءاته ونظرته إلى الأشياء.

فقد يكون اهتمامه بالصواب والمنفعة ناتجا عن الوضع اللغوي الذي ساد في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، إذ ضعفت اللغة الفصحى، بفعل التوسع الإسلامي وما انجر عنه من تداخل عرقي واختلاط ثقافي،وتفشي الفساد اللغوي، فسعى أبو عثمان إلى إعادة بعث الفصحى لتحتل مكانتها الأولى وتصبح وسيلة الفهم والإفهام والتعامل والتعبير بين مختلف الشرائح الاجتماعية لا مقصورة على فئة معينة وأوضح من هذا السبب،انتماء الجاحظ المذهبي،وأهمية التأثير ونجاعة الخطاب عند علماء الكلام عامة وأهل الاعتزال خاصة،باعتبار الجاحظ رئيس نحلة،وكان يدعو إلى مذهبه،ويسعى إلى نشر مبادئه،معتمدا في ذلك على اللغة التي كانت السلاح الأمثل في مثل هذه المواقف،واتخذ من الخطابة الوسيلة المثلى لبلوغ غاياته باعتبارها النوع الأدبي الأول الذي تتجسد فيه صفات البيان والبلاغة وبالتالي التأثير والإقناع[1].

يمكن القول إن الوظيفة الإفهامية هي الغاية المحورية التي يرتكز عليها التفكير البياني عند الجاحظ،والتي تقوم عليها بقية الوظائف الأخرى؛التي لا تعدو أن تكون بناء عليها، وتختلف هذه الوظائف باختلاف الغايات والمقاصد التي إليها يرمي المتكلم، وتتنوع بتنوع المقامات والحالات.

1-2-الوظيفة الخطابية:

ظهرت هذه الوظيفة أثناء حديثه عن الخطابة كنموذج تتجلى فيه البلاغة بكل مقوماتها والخطيب كنموذج للمتكلم.

«فحيثما وجدنا بيانا وبلاغة كان مصدرهما خطيب مفوه،وحيثما عثرنا على خطيب سمعنا

---

[1]-**ينظر**:المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بو ملحم،ص323.

كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: علي محمد علي سليمان،ص134.

منه كلاما عذبا وبيانا ساحرا»[1].

والخطابة عند الجاحظ بناء متكامل: «رأسها الطبع،وعمودها الدربة،وجناحاها رواية الكلام،وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ»[2].

وقد عبر الجاحظ عن هذه الوظيفة بعدة مصطلحات تنتمي كلها إلى حقل دلالي واحد وتجري إلى نفس الغاية، وأهمها:الإلقاء، الإقناع، المناظرة، المنازعة الاحتجاج... وغيرها مما يدور في نفس الفلك،والتي يكثر الجاحظ من استعمالها[3].

يقول الجاحظ بهذا الصدد:«وليس – حفظك الله – مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث من العي من اختلال الحجة وعن الحصر من فوت درك الحاجة (....)، وهم يذمون الحصر ويؤنبون العي، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء وتعاطيا مناظرة البلغاء، تضاعف عليهما الذم،وترادف عليهما التأنيب»[4].

وقد فصل الجاحظ القول فيما يخص الخطيب من صفات جسدية وملكات ذهنية ومؤهلات عقلية وخلقية، و لم يقتصر حديثه على تعداد مميزات الخطيب الإيجابية التي تمنح خطابه القبول من حلاوة القول والحذق فيه، بل فطن إلى التنبيه على الخصائص السلبية التي تضعف من موقفه كالعيوب النطقية والعي...و غيرها.

وعندما يتحدث الجاحظ عن الصوت والحركة والعمامة والعصا في الخطابة فهو يشير إلى وظائفها التواصلية الإبلاغية التي تحول الجسد إلى خطاب ثقافي رمزي يرتبط بالخطاب الثقافي العام، الذي يؤطر المجتمع، ويمتلك القدرة على الإخبار والإبلاغ والتأثير.

ولا غرو أن مختلف العلامات السينمائية ذات دور مهم وفعال في العملية اللغوية والتأثير على السامع، وقد أدرك الجاحظ هذا الأمر وأكد عليه «فكان بذلك المؤسس لعلم العلامات

---

[1]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص324.

[2]-البيان والتبيين الجاحظ:، ج1، ص44.

[3]-الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة – بحث في بلاغة النقد المعاصر-: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، - بيروت -، ط1، (2008)، ص212. بتصرف.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج 1، ص12.

في الثقافة العربية، بل كان ممن وسع دائرة العلامة في الخطاب، فتجاوز بها مجرد اللغة الطبيعية [1].

و اهتمام الجاحظ بهذا الجنس الأدبي، وتأريخه لأعلامها، وإثباته لنخبة من خطب الرسول ﷺ والصحابة والخلفاء وغيرهم يعود «لما فيها من حسن البيان وسلامة المنطق، فللعرب فيها تقاليد معروفة تمتد جذورها إلى عهد ما قبل الإسلام، ثم إنها ازدهرت، كنوع أدبي، ازدهارا كبير في العهود الإسلامية الأولى، لأنها كانت وسيلة من وسائل نشر الدعوة،و تركيز السلطة والانتصار للمذهب»[2].

و يرجع أيضا إلى أن الجاحظ كان في "البيان والتبيين" في معرض دفاع عن العرب والبيان العربي وتقاليده ضد الشعوبيين والمتطرفين، فكان رده على هؤلاء الشعوبيين بالخطابة، بما أنهم كانوا يتقنون الشعر فقط لما فيه من التصنع والتكلف عكس الخطابة التي كانت أقرب إلى البديهية والارتجال منها إلى التكلف لهذا فقد اقتصرت على العرب دون غيرهم، وكانت ميزة العربي وفضيلته التي بذّ بها غيره وواجهه بها.

و المتتبع لحديث الجاحظ عن الخطابة، والمتأمل في الخطب التي أوردها في بيانه يلاحظ أنها تدور حول ثلاثة محاور غايتها الإقناع والتأثير والمنازعة... «محور ديني نجد فيه خطب النبي ﷺ وخطب الصحابة، ومحور سياسي نجد فيه خطب "**الحجاج**"(**ت 95 هـ**) و"**زياد**"(**ت 53 هـ**) وأنصارهما وخصومهما، ومحور ثالث جدلي مذهبي كان نتيجة للصراع الفكري الذي عرفه المسلمون من نهاية العصر الراشدي واحتد بفعل التطورات الاجتماعية والسياسية والثقافية أيام الجاحظ الذي كان هو نفسه طرفا فيه ينافح عن إحدى الفرق»[3].

أما المحور الديني فقد سخرت بمقتضاه الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث وتقرير حجة الله في عقول المكلفين،ومن الطريف أنه ربط نجاح بعض الخطباء في فنّهم الخطابي بتوفيق رباني،لأنهم كانوا يدعون إلى ما دعا إليه الإسلام قبل مجيئه،ومثال ذلك **قس بن ساعدة**(**ت 23**ق. **هـ**) [4].

---

[1]-استراتيجيات الخطاب:عبد الهادي بن ظافر الشهري،ص25،بتصرف.

[2]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 171.

[3]-الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة: محمد سالم محمد الأمين الطلبة،ص 212.

[4]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 171 ، بتصرف

يقول الجاحظ في هذا الصدد: «لإياد وتميم خلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه (....)وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث، ولذلك كان خطيب العرب قاطبة»[1].

و أما المحور السياسي فقد وظفت فيه الخطابة لبسط النفوذ، وإقرار نظام الحكم بالترغيب والترهيب، وكان الخطيب كثيرا ما يمزج بين البعد الديني والبعد السياسي ليصل إلى مبتغاه، ويقنع الناس لما يدعو إليه، فيدعو إلى مذهبه من طرق الموعظة والإرشاد [2].

منها خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، وخطب زياد بن أبيه، خطب قتيبة بن مسلم الباهلي(**ت 96 هـ**)... وغيرها.

أما المحور الثالث المذهبي الجدلي الناتج عن التصدع الذي وقع في هيكلة الأمة الإسلامية وما نتج عنه من انقسام المسلمين إلى ملل ونحل، تنافح كل واحدة عن عقيدتها،و تدعو إلى مذهبها،و تجمع الحجج التي تقنع بفهمها،و تسقه المذهب المقابل وهو الصراع العقائدي والمذهبي الذي جمع تحت اسم "علم الكلام"، فقد كان المتكلمون أحرص الناس على الإحاطة بأفانين التعبير وسبل القول، باعتبار الكلمة كانت أنجع الأسلحة في مثل هذه الصراعات، لهذا عدّوه "إستراتيجية" قائمة بذاتها[3].

و قول الجاحظ في هذا الصدد أن البيان «يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة»[4] ليس بعيدا عن مفهوم الإستراتيجية في الدراسات المعاصرة اليوم.

و ارتباط الخطابة بالنزعة المذهبية، جعل زعماء الملل ورؤساء النحل يهتمون بقوانين صناعتها، لما لها من الأهمية في نشر مذاهبهم، وراحوا يعلمون ذلك صبيانهم والناشئة من ذويهم، وما يؤكد هذا إيراد الجاحظ لصحفية "بشر بن المعتمر" كاملة في "البيان والتبيين"؛ إذ يمكن أن

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 52.

[2]-**ينظر**: التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، ص 172، لمزيد من التفصيل.

[3]-**ينظر**:المرجع نفسه، ص 172، 173.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 14.

نعدها "منهاجا" لتعليم الخطابة.

و يرتبط بهذا المحور المذهبي جملة من حدود البلاغة، تؤكد كلها على "المقارعة"،و"المنازعة" و" المحاجة "، و"الإقناع"... وغيرها، منها:

«جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضيع الفرصة»[1].

«البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة»[2].

«وهذه المحاور الثلاثة يغلب عليها طابع " الحجاج " الذي يكثر الجاحظ من ذكر مادته اللغوية بجميع اشتقاقاتها الصرفية ومتعلقاتها الدلالية، وهو يشير إلى أهميته البلاغية حجاجا»[3].

و انتماء الجاحظ إلى المعتزلة، وتصدره للدفاع عن العديد من طروحاتهم، أهم العوامل التي جعلته يهتم بالنزعة الحجاجية والإقناعية وبالوظائف اللغوية والبلاغية، وكان من شأن هذا تحفيزه على التفكير في نصوص الخصوم وفرضياتهم، ثم البحث عن الآليات الكفيلة بمقارعتها ودحضها، وعما يتعلق بهذا الهدف من ضرورة التقدير الجيد لحسابات التوقع والاحتمال، ويضاف إلى هذا اهتمامه بالمقامات النفسية الخاصة التي تلعب دورا في تغليب طرف على آخر [4].

إذن"فالغاية القصوى عند الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين " هي الخطاب الإقناعي الشفوي وهو خطاب تتقدم فيه الغاية (الإقناع) على الوسيلة (اللغة)، وتحدد الأولى طبيعة الثانية وشكلها حسب المقامات والأحوال[5].

والأمر نفسه ذهب إليه "**محمد عابد الجابري**"،فباعتبار الجاحظ متكلما «والمتكلم لا يهمه الجانب الجمالي الفني في الكلام بقدر ما يهمه مدى ما يمارسه الكلام من تأثير وسلطة على السامع (...) وهذا يكون "بالقول الفصل " أو " فصل الخطاب " وهو نوع من القول تجتمع فيه الصنعة

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ:، ج1 ،ص 88.

[2]-المصدر نفسه.

[3]-الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ص 212.

[4]-المرجع نفسه، ص 213، بتصرف.

[5]-استراتيجيات الخطاب: عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص 448.

اللفظية والحجة والمنفعة مع عدم الإثقال على السامع»[1].

إذن فالجابري وضع يده على أهم مفاصل النظرية البيانية عند الجاحظ، وأنزلها في إطار شروط إنتاج الخطاب، كما أوضح أن وظيفة البيان في المفهوم الجاحظي هي استمالة القلوب والتأثير في السامع وإقناعه، وهي الوظيفة التي تؤكدها النظريات الحجاجية اليوم.

كذلك أكد "**محمد العمري**" على الوظيفة الإقناعية أو الخطابية عند الجاحظ في كتابه "البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها"، عندما قرر أن البيان عند الجاحظ يتنازعه مفهومان ووظيفتان الوظيفة الفهمية والوظيفة الإقناعية[2].

و خلاصة القول إن الجاحظ قام بإرساء قواعد الخطاب الشفوي الإقناعي، وذلك بتناوله إستراتيجية الإقناع في كتابه "البيان والتبيين" حيث فصل فيه القول و لم يقتصر مفهوم الخطاب الإقناعي عنده على جنس بعينيه، بذلك أسس دعائم خطاب المناظرة في التراث العربي، ومازال من أهم أنواع الخطاب، إذ تبرز فيه سمات الكفاءة التداولية والقدرة على توظيفها طبقا لما يتطلبه السياق من أجل بلوغ الهدف الذي يصبو إليه ن فالإقناع هو المطلب الأساس من الخطابات التي تدور بين هؤلاء الذين تختلف توجهاتهم، لا القتل ولا المع، سواء أكان مجال المناظرات المذاهب الدينية أم اللغوية أم الفلسفية أم غير ذلك كله.

02 –النواميس اللغوية الضرورية للتواصل:

تستدعي الظاهرة اللغوية من التكلم احترام مجموعة من النواميس اللغوية الضرورية لنجاح العملية التواصلية؛ وذلك لتحقيق غاياته وأداء مختلف الوظائف المنشودة من تصريف كلامه، بدءاً بالوظيفة الإفهامية التي تعد الأساس الذي تقوم عليه كل عملية لغوية؛ إذ لا غنى عنها في أبسط فعل تواصل. ولعل هذا ما يفسر الاستطرادات اللغوية التي أكثر منها الجاحظ في أرائه البلاغية إذ يعد «ربطه بين المعطيات اللغوية الصرفة وآرائه البلاغية أمرا خطيرا يجب أن يحسب للجاحظ لأنه قفزة فكرية هامة في ذلك الظرف التاريخي، ومظهر من المظاهر الحية في تراثه، فهو بهذا النهج

---

[1]–بنية العقل العربي،ـــ نقد العقل العربي ـــ: محمد عابد الجابري: مركز دراسات الوحدة العربية،ـــ بيروت ـــ ط 4 (1992)، ص 30.

[2]–**ينظر**:البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: محمد العمري، ص 195، لمزيد من التفصيل.

في التقريب بين الأمور، يثرى ما أسميناه مخطط التواصل بل يكاد يصل به إلى الاكتمال»[1].

من هنا يمكننا القول إن نظرية الجاحظ البلاغية تتبنى أساسا على جملة من التصورات اللغوية العامة، وبهذا يصبح التداخل بين اللغة والبلاغة عنده أمر لا بد منه ن ولعل هذا سوف يزيل قليلا سوء التفاهم لدى من يرى الغرابة في ربط أبي عثمان بين القضايا اللغوية ن والمباحث البلاغية والأدبية.

أما عن هذه النواميس فقد جاء معظمها في شكل مواقف وأراء مبثوثة في تضاعيف مؤلفاته.

فأبرزها قوله **بحاجة الإنسان إلى اللغة**، وتعذر الاجتماع من دونها، إضافة إلى بواعث نشأتها وطرق اكتسابها.

ولما كان اجتماع الناس ضرورة اجتماعية كما يقول الجاحظ في الحيوان:

«ثم اعلم – رحمك الله تعالى – أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة في تزايلهم، ومحيطة بجماعاتهم ومشتملة على أدناهم وأقصاهم وحاجتهم إلى ما غاب عنهم مما يعيشهم ويحييهم ويمسك بأرماقهم، ويصلح بالهم، ويجمع شملهم»[2].

«فإن التعامل بين الناس من خلال مختلف العلاقات التي تنشأ فيما بينهم بسبب هذا الاجتماع أمر لا يمكن التغافل عنه»[3].

و باعتبار الطبيعة الإنسانية تحتاج طبعا وخلقة وجوهرا إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة؛ إذ «لم يخلق الله أحد يستطيع بلوغ حاجته بنفسه»[4] خاصة مع ارتقاء العقلية الإنسانية واتساع نطاق الحياة الاجتماعية،و تعدد حاجات الفرد، فالإنسان الذي يعيش في مجتمع ما يحتاج إلى تبادل الأخذ والعطاء مع أفراد ذلك المجتمع؛ إذ باعتباره عضوا فيه فهو مضطر للتواصل والتفاعل مع تلك الجماعة، للتعبير عن حاجاته وقضاء مآربه.

---

[1]–التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 184.

[2]–الحيوان: الجاحظ، ج 1، ص 42 – 43.

[3]–فلسفة الأخلاق عند الجاحظ: عزت السيد أحمد،منشورات إتحاد كتاب العرب، ـــ دمشق ـــ (د. ط) (2005)، ص117.

[4]–الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 43.

و هذا يكون عن طريق إقامة مختلف العلاقات الاجتماعية التي تسهل حياته، «ليتم للنـــاس مرادهم من اجتماعهم ويدركوا حكمة الخلق، وما أودع الكون من جليل الحكمة»[1].

و لما كانت اللغة أنسب الوسائل وأكثرها ملاءمة للتفاهم بين البشر، باعتبارهـــا الوســيلة الأيسر والأكثر طواعية؛ إذ «صادفت استعدادا طبيعيا في الإنسان الشـــيء الـــذي مكّنـــه مـــن استخدامها بشكل تلقائي»[2]، والاستفادة منها في تفاهمه ومعرفة حاجات غيره، وتنفيذ رغباته.

فبواسطة اللغة يتمكن الفرد من التواصل مع غيره وذلك عن طريق إقامة مختلف الـــروابط الإنسانية والعلاقات الاجتماعية، يقول الجاحظ بهذا الصدد:

«فالإنسان بقوة العقل آلة التفكير والنظر، يدرك حاجته من قوام وقوت ولذة وامتنـــاع، وبقدرة الاستدلال والبيان تنكشف تلك الحاجات وينتهي إليها معامله ومعايشه، فيتم التعـــاون والتآزر وتنعقد بينها الأسباب»[3].

«فاللغة إذن ليست مجرد أداة لنقل الأفكار ن وإنما هي وسيلة للتعاون والترابط بين أفـــراد المجتمع حتى تحصل المنفعة»[4].

و بذلك كانت اللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك فيه الأفراد ويتخذونه أساسا في التعبير عن ما يحول بخواطرهم، في تفاهمهم، وعليه فاللغة تخلقها طبيعة الاجتماع البشري، وتنبعث عـــن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل للأفكار ليتم المراد[5].

و بهذا تفطن أبو عثمان إلى أن اللغة من نتاج العقل الجمعي قبـــل أن يـــدرجها علمـــاء الاجتماع ضمن موضوعات "علم الاجتماع"، وفرعا من فروعه يدعى "علم الاجتماع اللغوي"

«فالحاجة تخلق الخواطر وتولد المعارف، وعنها تنشأ اللغة وتتسع على قدر اتساعها»[6].

وعليه فاكتساب اللغة يكون بقدر ما تستدعي الحاجة إليه يقول الجاحظ: «وتزعم الهند أن

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 145.

[2]-نظرية اللغة في النقد العربي: عبد الحكيم راضي، ص 64.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 43.

[4]-علم الإعلام اللغوي: عبد العزيز شرف، ص 58.

[5]-**ينظر**: اللغة والمجتمع: علي عبد الواحد وافي، ص 05، لمزيد من التفصيل.

[6]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص186.

سبب ماله كثر كلام الناس (...) كثرة حاجاتهم، ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم»[1].

و منه «فالمبدأ المؤسس لنشأة اللغة يتحكم في اكتسابها ن فالإنسان لا يحمل في رأيه إلا ما تقتضيه الحاجة، وتعلم اللغات لا يخرج عن هذا القانون، فمراتب الناس في العلم بها والإحاطة بأماكنها و تصاريفها تتناسب مع قوة الدوافع وإلحاح الحاجات تناسبا طرديا»[2].

و لهذا يقول الجاحظ: «إن من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة يكون البلوغ فيها والتقصير عنها»[3].

و أما عن الحاجات التي اعتبرها أبو عثمان أساس الاجتماع البشري فيقسمها قسمين «حاجات ضرورية لا تقوم الحياة بدونها كالطعام والشراب واللباس والعتاد وحاجات إضافية تهدف إلى اللذة والازدياد في الآلة والمتعة»[4].

إذ يمكن القول إن اللغة عند الإنسان ليست مجرد القدرة على استعمال الصوت وتقطيعه إلى حروف ذات مخارج متميزة، إنما وراء ذلك بواعث اجتماعية أو نفسانية وفكرية أو ما سماه الجاحظ بالحاجات، فالإنسان لا ينطق بباعث الغريزة الكلامية أو الحالة الشعورية القوية المؤقتة فحسب ولكن كل ما رأى هو ذلك مناسبا له مرغوبا فيه[5].

كما أكد الجاحظ على أن مختلف العلوم تقوم على رموز واصطلاحات خاصة،إذ لكل علم رموزه الخاصة التي تعمل فقط في إطار سياقها الذي وضعت له، ومثال ذلك ما وضعه اللغويين العرب من ألفاظ جديدة، لم تكن معروفة من قبل «فنرى **الخليل بن أحمد الفراهيدي** يضع لبحور الشعر ألقابا جديدة كالطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك، ويقسم البيت إلى أوتاد وأسباب وفواصل، ويسمي العلل بالزحاف والخرم... الخ»[6].

---

(1)-الحيوان: الجاحظ، ج4، ص21.

(2)-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 187.

(3)-الحيوان: الجاحظ، ج4، ص 21.

(4)-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص 419، بتصرف.

(5)-**ينظر**: اللسانيات الاجتماعية عند العرب: هادي نهر لعيبي، ص 126، لمزيد من التفصيل.

(6)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 140.

و كذلك حذا النحويون وأصحاب الحساب حذو الخليل وغيره «فذكروا الحال والظروف وما أشبه ذلك، لأنهم إن لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو، وكذلك أصحاب الحساب، فقد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم»[1].

و عليه فقد أكد الجاحظ أن لكل علم لغته الخاصة، التي هي أقدر على التعبير عنه ورموزه المحددة التي بها يتفاهم أصحاب ذلك العلم باعتبار، المصطلحات خلاصات العلوم، ورحاق المعارف، ورحيقها المختوم، كما تعد أبجدية التواصل المعرفي ومفاتيحه الأولى.

إضافة إلى ما سبق، أثار الجاحظ مسألة لغوية هامة تعد أهم أساس يقوم عليه الفعل اللغوي،ويمكن اعتبارها قضية لغوية حداثية بامتياز وهي مسألة المستويات اللغوية وعلاقتها بالانتماءات الاجتماعية للمتكلم؛ إذ تتعدد المستويات وتتنوع تبعا لاختلاف منزلة المتكلم الاجتماعية والثقافية يقول الجاحظ: «وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والخفيف والثقيل،وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا»[2].

ولا يقف الأمر عند الإقرار بجدلية ترابط التركيبة الاجتماعية، والمستويات اللغوية فالرجل حريص على ضرورة اعتبار كل المستويات المستعملة عربية...[3].

و عليه فمستويات اللغة تتعدد وتتنوع تبعا لتعدد الناطقين بها، وتنوع ثقافاتهم وطبقاتهم الاجتماعية، وتباعد الفوارق الزمانية والمكانية والمهنية بينهم؛ إذ السلوك الفردي إزاء اللغة يضيف إليها قدرا -إن كان ضئيلا- خاصا به[4].

ومن جهة أخرى، تتأثر اللغة بالمجتمعات والفئات الضيقة الكائنة داخل المجتمع الواحد إذ تتشعب لغة المحادثة في المنطقة الواحدة إلى مستويات لغوية متباينة تبعا لتباين طبقات المجتمع وفئاتهم الاجتماعية ويصبح «كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات...»[5].

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص140.

[2]-المصدر نفسه، ص 144.

[3]-التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، ص 187.

[4]-**ينظر**:اللسانيات الاجتماعية عند العرب: هادي نهر لعيبي، ص 141، لمزيد من التفصيل.

[5]-البيان والتبيين: الجاحظ:،ج1، ص144.

باعتبار كل منطقة منقسمة بدورها إلى مجموعات صغيرة،بحسب مهنها،أو ثقافتها أو جنسها، أو أنشطتها الحياتية المختلفة،فتتأثر اللغة بهذه المجتمعات الضيقة،وتكون ثمة عدة لهجات:لهجة للمتعلمين تختلف عن لهجة الأميين،والمتعلمون يختلفون لهجة فيما بينهم باختلاف درجة ثرائهم ويسوى ذلك من الأسباب. ولهجة أخرى للطبقة الوسطى، ولهجات للجنود، وللرياضيين وللنجارين وللبحارة، ولذوي المهن جميعا[1].

«وهي في جملتها مستويات ناشئة عن الظروف الاجتماعية المختلفة باختلاف البيئة أو الحرفة، أو الطائفة»[2].

وعليه «فالجاحظ يرجع تباين مستويات الأداء اللغوي إلى تفاضل الناس أنفسهم في طبقات فلكل طبقة أسلوبها وطريقتها في الأداء والتعبير،لذلك فإن مستوى الأداء اللغوي للعامة مباين لمستوى أداء الخاصة»[3].

ويقول الجاحظ عن المستوى الأول: «والعامة ربما استحقت أقل اللغتين،و أضعفها وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا، وتدع ما هو أظهر وأكثر...» [4].

ويقول عن المستوى الثاني: «وأنا أقول:إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء، والعلماء البلغاء»[5].

فالجاحظ يقسم الأساليب إلى مستويات متباينة، كل مستوى منها يرتبط بفئة اجتماعية معينة، والأمر نفسه الذي ألح عليه النقد الحديث الذي فسر تعدد مستويات الأسلوب بتعدد الفئات الاجتماعية التي يتكلم النص عنها [6].

وعليه «بناء على مقولة: "قل لي مع من تتعامل أقل لك من أنت،ودعني أسمع كيف تتكلم

---

[1]-**ينظر**:اللسانيات الاجتماعية:هادي نهر لعيبي،ص142.

[2]-اللسان والإنسان: حسن ظاظا، ص132.

[3]-التفكير الأسلوبي: ـــ رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث ـــ: سامي محمد عبابنة، عالم الكتب الحديث، ـــ الأردن ـــ،ط1 (2007م)،ص 31، بتصرف.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص248.

[5]-المصدر نفسه،ص145.

[6]-**ينظر**:التفكير الأسلوبي: سامي محمد عبابنة، ص 33، لمزيد من التفصيل.

أقل لك من أنت"، يمكن القول؛ إن لغتنا هي عنوان انتمائنا الوطني والإقليمي والاجتماعي، إنها عنوان شخصيتنا وتكويننا، وما صوغ المقولات اللغوية الشفوية والكتابية المميزة لوحدة الإنسان الاجتماعية بأكثر من الأسلوب، وأسلوب الإنسان الشخصي بهذا المعنى يشبه بصمته التي تميزه على نحو لا يقبل اللبس»[1].

«وها هو اليوم "علم اللغة الاجتماعي" يولي اهتماما متميزا لدراسة الخصائص اللغوية العائدة لمجموعات مهنية أو فئات اجتماعية،فدعا "**هاريس**" إلى دراسة أثر النشاط الاجتماعي والمهني على الأسلوب اللغوي، ورأى (**وورف**) أن النموذج اللغوي المعين يرتبط بالنماذج الثقافية المجتمعية، وهذا النموذج هو الذي يجعل بمقدور الإنسان أن يتواصل مع أمثاله بدقة بالغة، كما رأى (**مييه**) أن من الواجب أن نحدد كيف تتمثل تغيرات البنية الاجتماعية بطريقة عامة في تغيرات البنية اللغوية»[2].

و لعل أغلب ما اهتم به علماء اللغة الاجتماعيون، وتوصلوا إليه في نطاق دراستهم المستويات اللغوية قد ألفيناه قبل مئات السنين عند الجاحظ، محققا بذلك نوعا من السبق،إذ يمكن للمتأمل المتأني في جلاء معطياته بما يكون أساسا وطيدا في إنصافه حتى وإن كان قد تحدث عنها ضمن مواقف مبثوثة اقتضاها مقام الحديث في أمور الأدب والبلاغة والنقد.

و غير بعيد عن هذا الأساس اللغوي الهام الذي أثاره الجاحظ، هناك مسألة لصيقة به، ويمكن القول إنها ناتجة عنه، ألا وهي فكرة "المعجم اللغوي" الخاص بكل قوم – على حد تعبير الجاحظ – إذ إن كل قوم قد تواضعوا على علامات معينة وانفردوا بها دون غيرهم،وأصبحوا يتفاهمون بها، حتى صارت تلك العلامات حكرا على تلك الصناعة، يقول الجاحظ: «ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض، وصاحب كلام موزون، فلابد أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعينها ليديرها في كلامه، وإن كان واسعا العلم غزير المعاني كثير اللفظ (...) ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم، إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة»[3].

---

[1]–نحو نظرية أسلوبية لسانية: فيلي ساندريس: ترجمة: خالد محمود جمعة، المطبعة العلمية – دمشق – ط1 (1424 هـ– 2003 م)، ص 165.

[2]–**ينظر**: اللسانيات الاجتماعية عند العرب: هادي نهر العيبي، ص 143– 144، لمزيد من التفصيل.

[3]–الحيوان: الجاحظ:، ج3، ص 366 – 368.

و عليه فكرة "المعجم الخاص" والتعابير النموذجية التي قد ينفرد باستعمالها قوم من الأقوام أو صناعة من الصناعات، كذلك الشعراء والكتاب، فنجدهم يقبلون على عبارات، وألفاظ دون ألفاظ، وذلك أصل في طبيعتهم، ومادة اختصاصهم إذ المشاكلة بين الصناعة والأجهزة المفهومية التي تحتويها لا تقع عن صدفة، وإنما عن ممارسة وامتحان لوحدات اللغة المختلفة، حتى لكأن قيام العلم وتطوره رهين وقوف القائمين عليه على ما يناسبه من مصطلحات وألفاظ[1].

ومثال ذلك أيضا تعابير المجرمين والخارجين على القانون واللصوص...وغيرها فهذه الطوائف تصطنع مفردات وتعبيرات لا يفهم معناها من ليس منها، أو من لم يتصل بها حتى لا ينكشف أمرهم، فهذه التعابير للحماية من الدخيل [2].

ومثاله أيضا شخصيات الجاحظ في كتابه "**البخلاء**" فألفاظها وتعابيرها ومنطقها وصيغها مطابقة تماما لما هي عليه في الواقع،فالمتكلم يتكلم ويناقش بكلام المتكلمين والقاضي ترد على لسانه مختلف المصطلحات الفقهية، واللصوص يستعملون التعابير المتداولة بينهم وغيرها.

«وفي بيئة العلماء يتردد صدى مصطلحات علمهم في أثناء أقوالهم، عند تفسيرهم بعض الظواهر، أو التعبير عن بعض الحاجات، من دون أن يكون لعملهم صلة بالموضوع سواء في التعبير العادي أو في الشعر، حيث تظهر ألفاظ اختصاصهم ومفرداتهم في أقوالهم ومنطقهم»[3].

و لعل أوضح مثال على هذا ما ساقه الجاحظ في رسالة "**صناعة القواد**"، عارضا فيها جماعة من أصحاب الحرف يسألهم "المعتصم" عن معركة دارت في بلاد الروم، فيصفها كل واحد بأسلوبه الذي يأخذ مادته اللفظية من مادة حرفيته وهم: طبيب، و خياط، وزراع، ومؤدب، وصاحب حمام وكناس، وفراش، وطباخ وخباز»[4].

و من هنا تبدو لنا خطورة ما أثاره الجاحظ في هذا المجال قبل مئات السنين، مما يشير إلى فهمه البين إلى أن المستويات المهنية التي يزاولها المتكلمون تمثل ألوانا من العلاقات بين اللغة والمجتمع فالغالب أن الكلام الذي يستعمله أصحاب المهن بما فيه من ألفاظ، وتراكيب، بل

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، 188.

[2]-ينظر:اللسانيات الاجتماعية: هادي نهر العبيي،ص142، لمزيد من التفصيل.

[3]-علل اللسان وأمراض اللغة: محمد كشاش، ص 17.

[4]-رسائل الجاحظ:الجاحظ، رسالة صناعة القواد، ج1، ص 261.

وطريقة نطق دال على عمل صاحبه وعلى طبقته الاجتماعية، وإن اختلفت نسبة الدلالة باختلاف الأفراد والظروف والعصور.

إذن، بالاعتماد على الفوارق اللغوية بين الطبقات الاجتماعية وامتلاك الأفراد رصيدا لغويا معينا، تتباين انتماءاتهم الاجتماعية والمهنية ومستوياتهم الثقافية مما يساعد على تصنيف الأفراد حسب ملكاتهم اللغوية تبعا للعوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية التي تميز مجموعة ناطقة عن مجموعة ناطقة أخرى.

إلا أنه ومهما تباينت المستويات اللغوية، فإن هناك رابطا يوحدها،وهي الغاية المنشودة أو الوظيفة التي إليها يجري الفعل اللغوي،ومن أجلها كانت الظاهرة اللغوية، باعتبار هذه الأخيرة تقوم –عند الجاحظ– أساسا على الحاجة والمنفعة كما سبق القول، وتختلف هذه الوظيفة باختلاف المقامات التي يكون ضمنها المتكلم وتتنوع بتنوع الأحوال؛من هنا عمد الجاحظ إلى ربط كل فعل لغوي بالمقام الذي يكون فيه، مراعيا أحوال المخاطبين الذين يوجه إليهم الكلام، حتى تتحقق الوظيفة المبتغاة ويلبى المقصد المطلوب –التأثير والإقناع–.

03– نظرية المقامات:

لما كان الإنسان يتخاطب مع غيره ضمن مواقف اجتماعية مختلفة، وأنشطة إنسانية متعددة فإن كل فعل لغوي يتجاوز قائله، ويقصد منه الإبلاغ يوجب على المتكلم أن يخضع كلامه تلقائيا، لجملة من الضوابط التي يفرضها السعي إلى الإفهام وبلوغ المقصد المرام، أهمها الملاءمة بين النص وما تستدعيه المقامات وما تقتضيه الحالات؛ من هنا اهتم الجاحظ كثيرا بالمقام، بوصفه جزءا رئيسيا في نظريته البيانية؛ إذ يعد الأساس الذي عليه أقام أبو عثمان كل مادته البلاغية.

وباعتبار أن الفعل اللغوي يتأسس على مبدأين جوهريين مترابطين عنده: مبدأ التداولية ومبدأ الشعرية؛ يعني الأول أن الكلام لا ينتج إلا من أجل تحقيق منفعة والثاني أنه لا ينظر إلى مضمونه فقط، بل إلى صورته وشكله، وهذا ما كان يعنيه الجاحظ «بالصواب وإحراز المنفعة»[1].

[1]–البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 136.

فالحكم على الكلام بالجودة أو الرداءة عنده لا ينبني على المواصفات الداخلية الذاتية للنص في حد ذاته فحسب، إنما تعود إلى الملاءمة بين هذه الخصائص ومختلف ملامسات المقام وظروفه التي تحف بالظاهرة اللغوية، إضافة إلى الأحوال النفسية للمخاطبين، من هنا كان اختلاف المقاييس البلاغية التي تحدد جودة الكلام باختلاف المقامات، وتبعا لتنوع الحالات، فما يعتبر بلاغة في موضع يعد خطلا في موضع آخر،وبالتالي تختلف المستويات اللغوية المتبعة، وتتنوع الأساليب البلاغية المعتمدة في بناء الخطاب تبعا لاختلاف المقامات وتنوع الحالات.

و لهذا السبب نجد الجاحظ يستحسن الأسلوب ونقيضه في الوقت نفسه، فالمتأمل لأصول نظريته سوف يدرك تماما أن ذلك ليس بالتناقض ولا خلط الناتج عن كبر السن والمرض، إنما يعود ذلك إلى مراعاته للسياقات واحتفاله بالمقامات التي على أساساها تصاغ الظاهرة اللغوية،و عليه فما يظهر تناقضا هو عين الانسجام مع أصول نظريته.

و المقام ليس شيئا خارجيا، بل هو عنصر ضروري في بناء الخطاب ونجاحه فالعلاقة بين المقام والمقال علاقة ضرورية تلازمية، باعتبار أن المقام هو شرط المقال وضرورته، فهو الذي يستدعي المقال، ويفرض شروطه كضرورة له فالمقامات هي التي تستدعي أقوالنا وتصوغ مقالاتنا[1].

يقول الجاحظ نقلا عن «**بشر بن المعتمر** يبين أهمية مراعاة المقام خلال عملية التكلم «المعنى ليس يشرق بأن يكون من المعاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من المعاني العامة وإنما مدار الشرف على الصواب،و إحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[2].

والمقام هو "مجموعة الظروف التي تحيط بالحدث الكلامي، ابتداء من المرسل والوسط حتى المرسل إليه، بمواصفتهم وتفصيلاتهم المتناهية في الصغر»[3].

أي أن الكلام لا ينطق بمعزل عن إطاره الخارجي، لذا قالوا: " لكل مقام مقال"؛ إذ يكون

---

[1]-**ينظر**:في آفاق الكلام وتكلم النص: عبد الواسع الحميري، 11، لمزيد من التفصيل.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 136.

[3]-البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، – عمان–، ط 1 (2003 م)، ص 215.

محفوفا بمختلف القرائن التي تحيط بدائرة النص وتساعده على تحديد أبعاده الدلالية» [1].

وهو أيضا «الظروف واللابسات التي يجري فيها الخطاب التي يسميها الجاحظ الحال والمقام، وسماها البلاغيون فيما بعد مقتضى الحال»[2].

والمقام التخاطبي هو «جملة الظروف الحافة بتولد النص، فالخطابة مقام يختل فعلى مقام الشعر مثلا، ولذلك تطلب كل واحد منهما خصائص نوعية ملائمة ليس بالضرورة واحدة»[3].

«ويعتبر الخطابة أبرز المقامات التي اعتنى بها صاحب البيان والتبيين، فهو محور تأليفه في البيان ومنطلق تصوراته لبلاغة النص»[4].

فقد اهتم الجاحظ كثيرا بمقام الخطابة بوصفه عنصرا هاما في نظريته البلاغية إضافة إلى كونها السلاح الفعال في معاركه المذهبية وهمومه القومية، «فقد كان الجاحظ مشغولا بتجميع الأمثال والحكم والخطب الجيدة، المتضمنة للأفكار والملاحظات العميقة، و" أشعار المذاكرة " أي التي تحتوي معاني وحججا من أجل تكوين الخطيب المقتدر، في معركة الحجاج التي يخوضها مع المعتزلة»[5].

كما «أن معركة الجاحظ لم تكن فنية بين شاعر قديم وشاعر حديث (...)، إن معركة البيان كانت معركة فكرية حضارية، والخطابة كانت دائما متلبسة بالسياسة والعدالة»[6].

فالمقام إذن محدد لبلاغة الجنس الأدبي، لهذا قالوا: «لكل مقام مقال، ولكل حال مقتضاه» مما يؤكد لنا أن المشاكلة بين المقام والمقال أهم مقوم لبلاغة الجنس الأدبي.

«ولعل أبرز ما يدل على مكانة هذا المتصور، في مؤلفاته، كثرة المصطلحات المستعملة لبيان معناه، وإفراز جملة من المستخلصات العملية، توجه المتكلم إلى الطريق التي يجب اتباعها في صناعة

---

[1]-**ينظر**: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: محمد بركات حمدي أبو علي، لمزيد من التفصيل، ص 215.

[2]-استقبال النص عند العرب: محمد مبارك، ص 263.

[3]-كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: علي محمد علي سليمان، ص 162.

[4]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص211.

[5]-البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: محمد العمري،ص 205.

[6]-المرجع نفسه.

الكلام»[1].

و أبرز هذه المصطلحات "المقام"، "الحال"، "الموضع"، إضافة إلى الألفاظ الدالة على حتمية العلاقة بين الموقف المعين أو الموضوع الذي بصدده المتكلم، بين اللغة المستعملة والأسلوب المتبع،بما يلائم المقامات والحالات، مثل "المشاكلة" "الملائمة"، "المناسبة"، "الأقدار"، "المقدار" "المطابقة"، والتي تختلف من وجهة ما تعود عليه من أطراف تسعى إلى الملاءمة بينهما.

و المطابقة عند الجاحظ أنواع: «الأولى، المطابقة بين اللفظ والمعنى، والثانية المطابقة بين الكلمة والكلمة،و الثالثة، المطابقة بين الكلام والمستمع،وهذه الأقسام الثلاثة لابد أن تؤدي إلى قسم رابع ذي صلة بها جميعا، وهو المقام، ومقتضى الحال، فالمطابقة الرابعة تتمثل في الظروف والملابسات التي يجري فيها الخطاب وهي المطابقة بين الأصناف الثلاثة وبين الظروف الخاصة لكل خطاب، والتي تتجدد في كل لحظة»[2].

إلا أنه من الضروري التأكيد على أن المطابقة التامة بين اللفظ والمعنى في فن الشعر مخالفة لطبيعة الشعر، الذي يستخدم فيه التلميح والإيجاز، وباقي الأساليب البلاغية التي يعتمدها الشاعر لاختزال اللفظ، وهي دليل على عدم التطابق.

إضافة إلى أن النص الشعري مآله التأويل، واستنباط المعاني المتعددة من النص الواحد فالأصل في الشعر إذن المطابقة التامة بين اللفظ والمعنى[3].

و على هذا تكون «المطابقة اللغوية عند الجاحظ نوعان: مطابقة لا يشترط فيها توازن بين اللفظ والمعنى،بل غالبا ما تكون باختصار اللفظ وتمديد المعنى ،ومطابقة يكون اللفظ فيها متحدا مع المعنى اتحادا كاملا»[4].

و لعل هذا يعود لاختلاف الأغراض وتباين الأهداف.

إذن المعنى في الخطب يتحصل عليه من الألفاظ كلها، فكل ما تنبئ به الألفاظ ضروري ومقبول، أما في الشعر، فإلى جانب المعنى الأساسي لدى الشاعر هناك ظلال من المعاني يسعى

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، ص 190.

[2]-النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ: محمد الصغير بناني، ص 162.

[3]-**ينظر**:استقبال النص عند العرب: محمد مبارك،ص265.

[4]-النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ:محمد الصغير بناني، ص 162.

المتلقي إلى القبض عليها، حتى تسمح له بتشكيل رؤيته الخاصة للنص وما معنى المعنى في الشعر إلا دليل واضح على عدم المطابقة التامة.

يقول" **محمد الصغير بناني**" بهذا الصدد: «والمطابقة بين اللفظ والمعنى تتم في اتجاهين مختلفين الاتجاه الأول، الانطلاق من اللفظ نحو المعنى، أي إطلاق اللفظ وإرادة معنى أوسع منه وتسمى طريقة الفصل أو الفتق،أعني طريقة المجاز في أوسع معانيه، بما في ذلك الكناية والاستعارة وغيرهما، الاتجاه الثاني الانطلاق من المعنى نحو اللفظ، وتسمى طريقة الوصل أو الشاهد أو الرتق أعني طريقة التعبير الصريح والتركيب اللفظي المعتمد على القوانين النحوية»[1].

ففي نظرية الجاحظ البلاغية «العبرة بالمعنى والمقام وأحوال المستمعين النفسية لا بالألفاظ من حيث هي في ذاتها، وكأنما حسنها إضافي، وهو حسن يتوقف على المعاني من جهة، وعلى أحوال السامعين من جهة ثانية، ومدى مشاكلتها لذلك جميعه»[2].

لذلك شدد الجاحظ على وجوب مراعاة الأحوال النفسية للمستمعين ومنازلهم الاجتماعية وانتماءاتهم الطبقية وقدراتهم الذهنية وغيرها.

يقول الجاحظ «ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[3].

فحتى يتمكن المتكلم من تحقيق غايته من خطابه، عليه أن يمتلك مقدرة تمكنه من حسن التصرف مع كل طبقته، كما يجب عليه سياسة القول بما يلائم كل حالة.

فالمتكلم إذا أراد بلوغ غايته والوصول إلى مقصده والتأثير في مخاطبه وإقناعه عليه أن يتوخ طباع الناس، ويأخذ بعين الاعتبار كل ما يتعلق بمخاطبه، لغويا واجتماعيا وذهنيا وثقافيا ونفسيا.. إذ لكل إنسان خليقة ولكل زمان طريقة وبالتالي على المتكلم معاملة الناس على خلائقهم والتماس الأمور على حقائقها،حتى يضمن النجاح لخطابه ويحقق الوظيفة المتوخاة منه.

و يقصد الجاحظ "بمقدار الطاقة"، الزاد اللغوي الذي يكتسبه المخاطب، وحظه من العلم

---

[1]-النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ:محمد الصغير بناني، ص167.

[2]-البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف:دار المعارف،ـــا لقاهرة ـــ،ط9،(د.ت.ط)، ص 46 – 47.

[3]-البيان والتبيين:الجاحظ، ج1، ص 92.

والمعرفة، التي هي رهينة حاجاته وانتمائه الطبقي، أما "أقدار المترلة" فهي طبقتـــه الاجتماعيـــة، ومكانته في السلم الاجتماعي،وحظه من الجاه والسلطان في المجتمع الذي يعيش فيه[1].

يقول الجاحظ: «وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات...»[2].

فباختلاف طبقات الناس تختلف المستويات اللغوية والأساليب التعبيرية التي يستخدمها المتكلم أثناء كلامه، لأن لكل طبقة معجمها اللغوي الخاص، والتي هي أفهم عن ألفاظه من غيرها من الألفاظ الأخرى، وكذلك الأساليب، وطريقة الأداء.... وغيرها.

و المتكلم عليه أن يدرك هذه الاعتبارات، ويحذق طريقة التصرف مع كل طبقته حتى يتمكن من تحقيق الانسجام، والملائمة بين خطابه ومختلف مقتضيات المقام والمخاطبين بالدرجة الأولى، فإذا تم فهم كلامه، ضمن نجاعته وتحقق مقصده.

إضافة إلى هذا نجد الجاحظ يشير إلى مسألة هامة تتعلق بالحالة النفسية للمخاطبين تتوقف عليها نجاعة الفعل اللغوي؛ ألا وهو «نشاط السامعين ووجودهم على هيئة جسدية وعقلية تسمح لهم بتقبل ما يقال».

يقول الجاحظ – نقلا عن عبد الله بن مسعود –: «حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم وأذنوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك»[3].

فأبو عثمان يؤكد على الحالة النفسية للمخاطبة؛ إذ إن نشاطه الذهني، ويقظته التامة أثناء عملية الكلام أساس الفهم السليم،الذي يؤدي بدوره إلى التأثير والنجاعة، أما إذا أصاب المخاطب فتور وقلة نشاط، فأحسن بالمتكلم أن يتوقف عن الكلام، لأنه لا طائل منه.

ولشدة ما يولي الجاحظ لاستمرار التواصل بين المتكلم ومخاطبه من أهميته، نبه إلى أمر آخر جد طريف وهام، لما له من دور بالغ في شد السامع إلى المتكلم، وإقباله عن طيب خاطر ورغبة جامحة على الكلام، ألا وهو: أن تكون هناك مناسبة في الاهتمام بموضوع الحديث، وهذه المناسبة تختلف توازنا بين إرادة الكلام عند المتكلم وإرادة الفهم والتقبل عند السامع.يقول الجاحظ بهذا

---

[1]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود،ص190. لمزيد من التفصيل.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1،ص144.

[3]-المصدر نفسه، ص104.

الصدد:"إذا لم يكن المستمع أحرص على الاستماع من القائل على القول، لم يبلغ القائل في منطقة وكان النقصان الداخل على قوله بقدر الخلة بالاستماع منه»[1].

وعليه «يجب أن يكون هناك تفاعل بين طرفي الخطاب، وأن يكون جهد المتلقي في إدراكها مقاربا للمعنى الذي تضمه ويقصده صاحب ذاك التعبير»[2].

وعليه هكذا كان الجاحظ يؤكد على ضرورة مراعاة الحالة النفسية للمخاطبين،ومن شدة حرصه على هذا الجانب انتهجها سبيلا في مؤلفاته،فلم يلهج بها فحسب في تنظيره للتصورات البلاغية لديه إنما طبقها على نفسه أيضا،إذ كان حريصا جد على الحالة النفسية لمتلقي أدبه وقراء كتبه، فنراه ينتهج التنويع الذي يخدم غرضه بين نثر وشعر وظرف وملح ونوادر...وغيرها،حتى جاءت مؤلفاته دوائر معرفية يستفيد منها الكل على اختلاف توجهاتهم وتنوع طبقاتهم،إضافة إلى مزاوجته بين أسلوب الجد والهزل حتى يدفع السآمة ولا يثقل ولا يشق على متلقيه.

يقول الجاحظ بهذا الصدد: «إلا أني لا أشك على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحن، وبالنوادر أشغف، وإلى قصار الحديث أميل،وبها أصب.أنها خليقة لاستثقال الكثير وإن استحقت تلك المعاني الكثيرة، وإن كان ذلك الطويل أنفع وذلك الكثير أرد»[3].

وجب عليه أن يعمل على تحقيق المناسبة بين كلامه ومختلف الظروف والملابسات الحافة بالظاهرة اللغوية التي يقتضيها المقام، فلا يتصنع الهزل في موضع الجد،ولا يأتي بالجد في مقام الهزل،ويجب عليه أن يخاطب الناس بما درجوا عليه وما يفهمون، فلا يخرج في خطابه عن ما تستدعيه الحالات وما ترتضيه المقامات.

يقول الجاحظ: «وإن كان موضع الحديث على أنه مضحك وملهٍ، وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملت فيه الإعراب، انقلب عن جهته، وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكره بها،ويأخذ بأكظامها»[4].

وضرب الجاحظ مثلا بالنوادر وأنه لا يصح أن تتغير عن صورتها التي أديت فيها أداء يتفق

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص275.

[2]-البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: محمد بركات حمدي أبو علي، ص84.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص8-9.

[4]-المصدر نفسه، ص39.

ومن وجهت إليه من البدو أو العامة،لأن وظيفتها مرتبطة أساسا ببنيتها، لذلك وجب على ناقلها احترام المستوى اللغوي لدى الطبقة التي أنتجت هذا الكلام،لأنه إن غيرت هذه الوظيفة،عدلت عن وظيفتها المتمثلة في الإضحاك[1] يقول الجاحظ: «ومتى سمعت –حفظك الله– بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير.

و كذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطّغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها»[2].

إضافة إلى هذا أشار الجاحظ في كثير من المواضيع إلى ضرورة مخاطبة الناس بما عهدوه فتختلف طبقات الناس اجتماعيا وثقافيا، وعليه تتباين مستويات الأداء وتتنوع أساليب التعبير يقول الجاحظ: «وكما لا ينبغي أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم طبقات...»[3].

«والجاحظ بذلك يؤكد فكرة بشير في المطابقة، غير أنه يمدها من من طرف آخر غير من يتوجه بخطابه إلى أصناف المتكلمين من المعتزلة، وغيرهم ممن وقف عندهم بشر إذ أخذ بطبقها على البدو في كلامهم وما يجري فيه من لفظ غريب»[4].

و بصدد مخاطبته الناس بما يفهمون، «إذا كان بشر قد لاحظ قبح إيراد مصطلحات المتكلمين على لسان خطباء الجماهير من أصحاب علم الكلام، بينما تحسن هذه الإصلاحات حتى يخاطبون أمثالهم من المتكلمين، فإن الجاحظ يلاحظ من طرف آخر أنه يقبح بهم أن يوردوا كلام الأعراب أو كلام العامة في ثنايا كلامهم في صناعتهم»[5].

---

[1]–ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص47، لمزيد من التفصيل.

[2]–البيان والتبيين: الجاحظ:، ح1، ص145.

[3]–المصدر نفسه، ص 144.

[4]–البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص46.

[5]–المصدر نفسه، ص 47

يقول الجاحظ: «ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها (...) وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار، أو في مخاطبة أهله (...) أو في حديثه إذا حدث أو في خبره إذا أخبر، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل»[1].

و عليه لما كان لكل مقام مقال، فإن المقاييس التي يعتمدها الجاحظ للحكم على جودة الكلام، ولتحديد أدبية النص، لا تتعلق فقط بمجرد خصائص معينة في ذلك الكلام، أو بمواصفات ذاتية تتولد داخله؛ إذ تختلف المقاييس باختلاف المقامات فنجاعة المقياس تقاس بمدى ملاءمته للسياق الذي يكون فيه، ومدى مشاكلته للحالات التي يتوجه لها بالخطاب، ولعل ما يؤكد هذا اعتماد الجاحظ في اختيار الأساليب البلاغية، واستحسانها على مدى موافقتها للمقام الذي تكون فيه، يقول الجاحظ: «ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا انشدوا بين السماطين في مديح الملوك أطالوا، وللإطالة موضوع وليس ذلك بخلط والإقلال موضوع، وليس ذلك عن عجز»[2].

فالعبرة كما يؤكدها قول الجاحظ ليست بالأسلوب البلاغي في حد ذاته، إذ ليس الأسلوب وحده من يضفي السمات النوعية على الكلام، ويكسبه الحسن والقبول.

إذ يجب على المتكلم أن يكون قادرا على التصرف مع كل حالة يصادفها، وأن يخضع كلامه للظروف التي يتنزل فيها، ويجعله ملائما للمقامات التي يكون ضمنها.

فللإطالة موضوع يكون فيه هذا الأسلوب هو الأنسب والأنجع لبلوغ الغاية وتحقيق المقصد ويضرب الجاحظ مثالا للمقامات التي تستدعي الإطالة كالصلح بين العشائر.

كما أن الإطالة تحسن في بعض المواضيع إلا أنها ليست دائما سببا للحسن والجودة إنما العبرة بالمقامات وما تقتضيه والحالات وما تستدعيه، والأمر نفسه للإيجاز يقول الجاحظ: «والإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الإطالة،و إنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص368.

[2]-المصدر نفسه، ج1، ص93.

ولا يردد وهو يكتفي بالإفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو الخطل»[1].

«وبهذه الكيفية خلص الجاحظ نظريته في بعض الأساليب كالإيجاز والإطناب من الاعتبارات "الكمية" وأقامها على "الكيفية" فجعل منها أدوات طبيعية مرنة ذات قيمة أدبية وجمالية متحولة»[2].

و يقول بهذا الصدد: «وربما كان الإيجاز محمودا والإكثار مذموما،و ربما رأت الإكثار أحمد من الإيجاز، وكل مذهب ووجه عند العاقل،و لكل مقام مقال ولكل كلام جواب، مع أن الإيجاز أسهل مراما وأسهل مطلبا من الإطناب، ومن قدر الكثير كان على القليل أكثر»[3].

و يتجاوز الجاحظ هذين الأسلوبين، ليعمم هذه النظرية على كل الأساليب التعبيرية ويجعلها بمثابة القاعدة العامة أو القانون الذي يحكم ظاهرة اللغوية وينظمها يقول أبو عثمان: «ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء (...) والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضوع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال»[4].

و لهذا نجد الجاحظ يستحسن الأسلوب في موضع، ثم يستقبحه في موضوع آخر ويستحسن نقيضه، كما فعل مع الصمت والكلام، والإفصاح والكناية والإيجاز والإطالة وغيرها.. يقول الجاحظ – على لسان ابن المقفع: «البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج...»[5].

و مثال ذلك حديثه عن "الإفصاح والكناية"، فلئن اشتهر عنه تمسكه بالإبانة والإفصاح، حتى إنه يجعل أحسن الكلام وأجوده الذي يفصح عن المراد بأوضح الوسائل يقول أبو عثمان: «وأحسن الكلام، ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه»[6].

---

(1)-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 91.

(2)-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 196.

(3)-رسائل الجاحظ:الجاحظ، رسالة البلاغة والإيجاز، ج4، ص 152.

(4)-الحيوان: الجاحظ، ج 3، ص 39.

(5)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 115-116.

(6)-المصدر نفسه، ص 83.

إلا أنه في بعض السياقات المغايرة، لا يتردد في تقديم " الكناية" على "الإفصاح " مراعيا بذلك ما تقتضيه المقامات وما تستدعيه الحالات، يقول بهذا الصدد: «وربما كانت الكناية أبلغ من التعظيم، وأدعى إلى التقديم من الشرح والإفصاح»[1].

و الكناية في بعض المقامات أبلغ مثل: مقام التعظيم، أو مقام الستر والتغطية أو في موضوع الرغبة عن اللفظ الشين... وغيرها.

و يقول أيضا: «أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف»[2].

من هنا يمكننا القول أن الجاحظ عندما يستحسن أسلوبا في موضع،ثم يعود ويستقبحه في موضع آخر، ويستحسن غيره لا يعد تناقضا كما قد يعتبر البعض ممن ينظر إلى نظريته نظرة سطحية فاصلة بين الكلام والسياقات التي يرد فيها؛ إذ باعتبار الكلام عند الجاحظ يتأسس على نظرية المقامات ومتصلا بالسياقات، وبما أن المقامات تختلف باختلاف الأزمان والأماكن، وكذلك الحالات فإن "الاستراتيجيات المنتهجة" والأساليب البلاغية المتبعة في عملية إنتاج الكلام تختلف باختلاف تلك المقامات، وتتنوع حسب تنوع تلك الحالات؛ إذ إن غاية الجاحظ ليس "الحسن " فقط، إنما معه أيضا "النفع و النجاعة" والتي عليها مدار الأمر، وتعد الغاية الأساسية، والوظيفة الهامة للظاهرة اللغوية، يقول: «لا خير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي نزعت»[3].

إذن لعل هذه النظرية النفعية للفعل اللغوي عند الجاحظ، والتي تنبني أساسا على مقياس الاختيار والتمحيص بين مختلف الأساليب لتحقيق الملائمة بين المتكلم والظروف الحافة به إذ يختلف الكلام باختلاف المقام الذي يقتضيه، وتتنوع الأساليب بتنوع الحالة التي تستدعيه هي التي دفعت بالجاحظ إلى عدم الاهتمام بالتعريفات والتحديدات للأساليب البلاغية والمصطلحات لأن البلاغة عنده بلاغات، والفصاحة فصاحات، فلا توجد بلاغة مطلقة صالحة لكل زمان ومكان إذ ما يعد بلاغة وجودة في موضع قد ينقلب إلى قبح وخطل موضع آخر باعتبار الجاحظ

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص115 ــ 116 .

[2]-المصدر نفسه، ص 117.

[3]-المصدر نفسه، ص 115-116.

يقيم كل تصوراته البلاغية على نظرية المقامات.

و الجاحظ لا يرى للكلام مزية في ذاته فقط، إنما يكتسب حسنه وجماله من سياقه وتقاس نجاعته بمدى ملاءمته للمقام الذي يكون فيه والحالة التي تستدعيه.

و أبو عثمان لم يكن عاجزا عن إعطاء التحديدات والتعريفات البلاغية، خاصة أنه صاحب اللسن والاقتدار، والذكاء الخارق النفاذ، الذاكرة القوية في العلم والمعرفة، إلا أن إضافة إلى تصوراته البلاغة تنبني على نظرية المواضع، فإن منطلقاته الفكرية وهمومه المذهبية وكذلك القومية أكبر من ذلك بكثير، فمعركة الجاحظ كانت فكرية حضارية،إذ كان يقدم تصورا شاملا لبلاغة إقناعية نفعية قائمة أساسا على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في صور من المقام الذي كان يعتبره أساس الفهم والإقناع الخطابي.

و لعله يمكننا القول لتأسيس ما يدعى "بنفعية الخطاب".

ثانيا: مقتضيات الإبانة

من دلائل تكريم الإنسان على سائر الحيوان أن الله -سبحانه وتعالى- رزقه القدرة على الإبانة عما في نفسه بمختلف الدلالات من لفظ وإشارة وكتابة وغيرها وحاجة المرء إلى القدرة على البيان لا تقل أهمية عن حاجته إلى عقله، لأنه إن لم يستطع الإبانة عما في نفسه، قلت فائدة عقله أو تلاشت.

و قد رأينا سابقا أن مفهوم البيان عند الجاحظ يختلف باختلاف السياقات التي يكون ضمنها، فهو يدل في بعض المواضع على مختلف الوسائل التعبيرية والممكنة بين البشر التي بها يؤدون المعنى و يتفاهمون بينهم، ويضيق هذا المفهوم الواسع في سياقات أخرى ليدل على التعبير الفني الجمالي، الذي يكتسب فيه الخطاب لفظه ومعناه وبنيته خصائص نوعية، يتحول بمقتضاها من مجرد وسيلة تحقق غاية محددة ووظيفة معينة، أساساها التأثير في المتلقي.

لهذا وجب على المتكلم الاهتمام بمختلف الكيفيات والهيئات التي يصوغ على أساسها كلامه، والعناية باختيار الأساليب التعبيرية الملائمة، وتفحص أشكال الخطاب والتغيرات اللفظية التي تطرأ عليه وتتحكم في التنوعات الأسلوبية، وما يرافقها من اختيارات بلاغية وتركيبية تبعا لما يتطلبه المقام وطبق ما تستدعيه الملابسات على اعتبار أن الكلام يستدعي طريقة معينة وهيئة مخصوصة تجعل له وقعا خاصا في الضمير، وتقوي تأثيره في النفس وتمكن له في الفصاحة والبلاغة.

و لما كان مذهب الجاحظ الذي يله جبه في مؤلفاته "هو التوسط والاعتدال"، إذ كانت نزعته توفيقية في مختل فالأمور، فإنه لا يهتم بأمر ويهمل الآخر، فعندما يتحدث عن مقاصد الفعل اللغوي وغاياته، التي تعد الأساس الذي يقوم عليه فإنه من جهة أخرى حريص على حذق مختلف الوسائل اللغوية والأساليب التعبيرية التي تضفي الصفات النوعية على الكلام وتمنحه سمات فنية، لأن «مقصد المؤلف ليس مقصدا لغويا عاديا يترصد مستلزمات الإبلاغ البسيط، وإنما هو بحث على سبل إخراج الكلام على هيئة» تمكن له في الفصاحة والبلاغة،وتقوي مفعوله عند ومما يؤكد هذا التعريف الذي اختاره الجاحظ للبلاغة وارتضاه لأنه يتناسب ومذهبه،يقول: «وقال بعضهم -وهو أحسن ما اجتبيناه ودونها-: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه

لفظه،فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[1].

واختيار الجاحظ لهذا التعريف، وتفضيله على غيره لأنه يتفق مع مذهبه في التوسط، الذي يدعو فيه إلى التجويد اللفظي وحسن الصياغة مع تحري المعاني الشريفة،حتى يقع في النفس ويصنع فيها صنيع الغيث في التربة الكريمة،يقول الجاحظ: «...وإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه، وميزها عن الاختلال مصونا عن التكلف صنع في القلـــوب صنيع الغيث في التربة الكريمة»[2].

ويقول أيضا:

«ومتى شاكل – أبقاك الله – اللفظ معناه وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقـــا، ولذلك القدر لفقا،وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع...»[3].

إلا أن كمال التركيب وحسن الصياغة لا يكون إلا بتمام الآلة وإحكـــام الصـــنعة لأن "سياسة البلاغة أشد من البلاغة" على حد قول الجاحظ.

من هنا كان لابد من توفر جملة من المؤهلات الفكرية والحسية في المتكلم الذي يتصـــدر لمثل هذه المقامات، لأن فيض النفس عن مكنوناتها بلغة متمكنة جميلة لا يكون لكل متكلم.

أما عن أهم هذه المقتضيات فتتمثل في:

1-الطبع والميل الفطري للإبداع:

لما كانت الميولات النفسية للناس متنوعة، وأهدافهم متباينة تبعا لذلك مما أدى إلى تعـــدد الاختصاصات بين البشر، راح أبو عثمان يشترط المتكلم الذي يتصدى لميـــدان الأدب، ويريـــد إثبات وجوده فيه، ويسعى إلى الإلمام بأسرار هذه الصناعة ضرورة توفر ملكة الإبداع الفني فيه، أو ما أطلق عليه الطبع؛ إذ أول شرط في المتكلم الذي يخوض في فن معين، وأبرز مقوم تنبني عليـــه عملية الخلق الأدبي يقول الجاحظ: «وليس ينبغي العاقل أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتـــها،و

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحـــظ، ج 1، ص155.

[2]-المصدر نفسه، ص83.

[3]-المصدر نفسه،ج2،ص07.

يسوم النفوس ما ليس في جلبتها...»[1].

«و الطبع هو استعداد فطري يولد مع المرء ولا يكتسب بالرياضة والتلقين» [2].

يقول أبو عثمان: «وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بـــديا إلى طبيعـــة ثم إلى المعرفـــة ثم إلى إنصاف...»[3].

فالجاحظ يرى أن المبدع الحق لا بد له من التحلي بأهم مؤهل وهو الطبع أو الطبيعة – على حد تعبيره –، إذ يتيح لصاحبه أن يستحق عن جدارة لقب المبدع الحق.

و قال أيضا: «... قد زعم ناس أن كل إنسان في آلة لمرفق من المرافق وأداة لمنفعـــة مـــن المنافع ولابد لتلك الطبيعة من حركة وإن أبطأت، ولابد لذلك الكامن من الظهور، فإن أمكنـــه ذلك بعثه وإلا سرى إليه كما يسري السم في البدن (...) ولذلك صار طلب الحساب أخـــف على بعضهم وطلب الطب أحب إلى بعضهم، وكذلك التراع إلى الهندسة، وشغف أهل النجـــوم بالنجوم (...) ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض يعلم لم اختار ذلك جملـــة ولا تفسير، إذ كان لم يجر منه على عرق، ولا اختاره على ارث...»[4].

إذن فلا بد من مراعاة الميولات النفسية للأدب وأهله، وأن تكون لمتصدر هذه المقامـــات طبيعة مواتية للصناعة التي يريدها، كما يؤكد بهذا الصدد على أن مختلف الصناعات لا تجري في المرء على عرق، ولا يختارها كشيء متوارث إنما هي جبلة فطر عليها المرء، وهبه الله إياهـــا دون غيره.

و لهذه الأسباب ينصح أبو عثمان المتأدبين من الناشئة أن يختبروا ميولهم للأدب بأنفســـهم فإذا كان الكتاب والأدب أحب إليه مما سواه من مال الدنيا ومتاعها فهـــو مـــن أهـــل الأدب ولا بأس أن يستمر في هذا الطريق، وإلا فعليه أن ينسحب من ميدان الأدب وليفتش عن ســـبيل آخر[5].

---

[1]-الحيـــوان: الجاحظ، ج3، ص 08.

[2]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص 326.

[3]-الحيـــوان: الجاحظ ، ج4،ص 202.

[4]-المصدر نفسه، ج1، ص201.

[5]-**ينظر**: المصدر نفسه، ص55 لمزيد من التفصيل.

إذن «فلا بد من ميول نفسه للأدب وأهله وطبيعته، مواتية، حتى لا يتكلف ما لا يناسب طبيعة شخصيته، فلا ينتج شيئا ذا بال، وتذهب جهوده أدراج الرياح وقد كان من الممكن أن يستغلها في مجالات أخرى من الحياة»[1].

و يقول الجاحظ أيضا في تباين طباع الناس، واختلاف المواهب التي أودعها الله فيهم: «وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب، وليس له طبيعة بالكلام، ويكون له طبيعة في التجارة، وليست له طبيعة في الفلاحة، وتكون له طبيعة في الحداء أو في التغبير[2] ،أو في القراءة بالألحان، وليست له طبيعة في الغناء، وإن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحون (...) ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع، ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر، ومثل هذا كثير جدا وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامها، وألسنتها لا يستطيعان من الشعر، إلا ما لا يذكر فيه»[3].

و يمضي الجاحظ في إيضاح مسألة تنوع المواهب، وما يلحقها من فروق فهي التخصصات ضمن الفن الواحد، مستعينا كعادته بضرب الأمثلة التوضيحية، فمن الناس من ليس له استعداد فطري لقول الشعر رغم رسوخ قدميه في البلاغة والخطابة وغيرها من فنون الأدب، كابن المقفع الذي عندما تيقن أن ليست له من طبيعة في الشعر توجه إلى غيره من الفنون، حتى أجاد وأبدع فيه.

فالطبع هو «غريزة في الإنسان واستعداد جبلي يودعه الله من عباده من يشاء»[4].

إضافة لهذا تحدث الجاحظ عن مسألة الطبع في خضم حديثه عن الشعر وأسباب انتشاره في قبائل دون غيرها، والعوامل التي تتحكم في كثرته، يقول: «وثقيف أهل دار ناهيك بها خصبا وطيبا، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب، وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس،وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله

---

[1]-نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر في النقد الأدبي: محمد عبد المغني المصري، دار المجد للنشر والتوزيع – عمان – ط1 (1407 هـ- 1987 م)، ص 33.

[2]-**التغبير**: قد سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تغبيرا، كأنهم إذا تناشدوا بالألحان طربوا فرقصوا وأرهجوا.

ينظر: البيان والتبيين: الجاحظ:، ج 1، ص288.

[3]-المصدر نفسه.

[4]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 201.

لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق مكانها»[1].

فالجاحظ يربط الشعر بالطبع، وما وهب الله لقبيلة "ثقيف" من نصيب في قرض الشعر إذ أودع فيهم هذه الغريزة، وعليه فأبو عثمان يرجع سبب قلة الشعر أو كثرته إلى ما قسم الله لهم من نصيب.

والمطبوعون هم الذين «تأتيهم المعاني سهوا ورهوا،وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا»[2].

«أي دون جهد ولا معاناة يحصلون على معانيهم التي تسعفهم في كلامهم، ومن دون إجالة فكر ولا استعانة تنثال عليهم الألفاظ دون تكفل، بل مع الطواعية والسهولة؛ إذ تصدر عنه كما يصدر الماء عن ينبوعه والشذى عن زهره»[3].

بينما يلتمس أصحاب الصنعة والتكلف قهر الكلام واغتصاب الألفاظ، ذلك لأنهم ليسوا أهلا لذلك،و لا يوجد لديهم الاستعداد الفطري لهذه الصناعة إضافة لهذا تعتبر رسالة "بشر بن المعتمر" من أبرز المواطن التي تتحدث عن المؤهلات الواجب توفرها في المتكلم البليغ فنراه «في أول كلامه ينصح كل أديب سواء أكان خطيبا أم كاتبا أم شاعرا أن لا يقبل على عمله، إلا إذا كان مستعدا له استعدادا كاملا، بحيث يكون فارغ البال من كل شيء، موفور التهيؤ له، تام النشاط»[4].

يقول الجاحظ – على لسان "بشر بن المعتمر" –: «خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهر، وأشرف حسبا وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطاء، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك إلا طول (كذا) بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكليف والمعاودة»[5].

يؤكد "بشر بن المعتمر" على أن الطبع بمفرده لا يصون من التكلف، فعلى المبدع أن يكون

---

[1]–الحيوان: الجاحظ ، ج4، ص 380 -381.

[2]–البيان والتبيين: الجاحظ:، ج2، ص13.

[3]–البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص 43-44

[4]–المصدر نفسه، ص 43.

[5]–البيان والتبيين: الجاحظ،ج 1 ص 135 – 136.

على أتم الاستعداد، خالي الفكر، من مختلف الأمور التي قد تلهيه عن صناعته.

أيضا يرى الجاحظ -في معرض رده على الشعوبية التي حطت من قدر العرب- أن كل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال كأنه إلهام، «وهذا راجع لطبيعة حياتهم في الجزيرة العربية تلك الحياة السهلة الواضحة، كأن وضوح الصحراء انعكس صفاء على نفسياتهم وأدبهم»[1].

يقول الجاحظ: «وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال كأنه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر، ولا استعانة (...) فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحد من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع...»[2].

فالعرب أمة تقتدر على القول، وتحذق مختلف سبل التعبير دون معاناة ولا مكابدة لهذا نجده يربط بين الطبع والكلام الجيد، والتكلف ضده.

و الجاحظ يميل إلى الطبع ويمقت التكلف، ويعلن ذلك صراحة بقوله: «ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف، وبيانا يمازجه التزيد»[3].

ومن شدة مقت الجاحظ نجده ينعته "بالسماجة"، يقول: «ثم اعلم – أبقاك الله – أن أصحاب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء، مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عيي يتكلف الخطابة....»[4].

فأبو عثمان يمقت التكلف الذي يلتمس فيه المتكلم قهر الألفاظ واغتصابها حتى تظهر عليها صفة الاستكراه.

يقول الجاحظ «ولم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتطرف

---

[1]-نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر في النقد الأدبي: محمد عبد المغني المصري، ص134.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ ،ج3، ص 26 – 28.

[3]-المصدر نفسه، ج1، ص 13.

[4]-المصدر نفسه، ص13.

والمتكلف للغناء،ولا يكادون يضعون اسم المتكلف إلا في المواضع التي يذمونها»[1].

والجاحظ يحبب الكلام المطبوع الذي اعتبره أحلى في النفس وأشد تأثير، لأن ما خرج من القلب يقع في القلب كالكلام المطبوع، وما خرج من اللسان مع الكد والمعاناة فلا يجاوز الآذان كالكلام المتكلف.

ولعله يمكننا القول إن موقف الجاحظ من مسألة "الطبع والصنعة" وتفضيله الطبع ومقته التكلف، يعود إلى أن هذا الأخير يتعارض مع أصول نظريته البلاغية التي تنبني أساسا على الملاءمة والمناسبة، فالذي يتكلف مالا يحسن إنما يحمل نفسه على ما لا طاقة له به، وهو بهذا يخرج عن المبدأ الذي تقوم عليه العلاقة بين المتكلم وصناعته، أي مبدأ المشاكلة والمناسبة، يقول الجاحظ «... وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيها طبيعة وأنهما يناسبانك بعض المناسبة»[2].

ويقول أيضا – على لسان بشر بن المعتمر-: «...فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأحقها عليك، فإنك لم تشهه و لم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله»[3].

كما وقف الجاحظ عند بلاغة النبي ﷺ، والتي عدها خير مثال لمدرسة الطبع وأحسن قدوة وقد كان يرى أن قريش أفصح العرب، وأن الرسول ﷺ خير من يمثلها، وعليه يجب أن نأخذ من حديثه خير مثال لمدرسة الطبع، مادام المولى – تبارك وتعالى – نزهه عن التكلف [4]، قال تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص،86]؛ أي قل يا محمد.

ويقول الجاحظ بهذا الصدد: «وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف»[5].

إذن ما على الإنسان إلا التفتيش عن مواهبه الطبيعية وميوله النفسية التي وهبه الله – تبارك

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ ، ج 2، ص18

[2]-المصدر نفسه، ج1، ص 200

[3]-المصدر نفسه، ص 138

[4]-نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر في النقد الأدبي: محمد عبد المغني المصري، ص 139.

[5]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص 17.

وتعالى-، ويسير وفقها وينطلق في إطارها، مستعينا بالعلم والمراقبة لإدراك حقيقة هـــذه الميـــول والغرائز وتحفيزها، حتى يعمل في إطارها، فينتج ويبدع على أكمل وجه وبأحسن صورة، ويتمكن من قضاء حاجاته وبلوغ مقاصده بأروع أسلوب، فالمرء إذا أحب شيئا أبدع فيه.

2- الدربة ودورها في حذق الصناعة:

أولى الجاحظ "الدربة" و"الرياضة " مكانة رفيعة ودرجة عالية في نظريته البلاغية، واعتبرها من أهم الشروط الواجب توفرها في المبدع قبل خوضه مجال الخلق الفني، إذا جعلها مقياسا هاما لتفوق الأدباء والبلغاء وخاصة منهم الخطباء لما لها من فضل كبير في إنتاج أدب رفيـــع رصـــين والحصول على عمل جيد متقن، يترك أثرا فنيا ساميا في متلقيه، ويمكّن المتكلم من بلوغ هدفـــه المقصود وغايته المنشودة.

إذ إن «الطبع وحده لا يكفي، فلا بد من الدربة لتنمية الموهبة وصقلها وشحذها»[1].

يقول الجاحظ: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليهـــا الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ»[2].

ولعل اهتمام الجاحظ "بالدربة"، وتأكيده على ضرورتها للمتكلم في حذق صناعته يعود إلى أن الرجل عاش في فترة شهدت ظهور مختلف الطوائف الدينية والفرق المذهبية التي احتدمت بينها المناظرات وكثرت مجالس الجدل، وكن الجاحظ أحد رؤوس المعتزلة، وإحـــدى أهـــم الفـــرق الكلامية.

وقد كانت كل نحلة تعنى بجمع الصبيان والشبان حولها حتى لا ينصـــرفوا إلى خصـــومهم وأخذوا يعلمونهم أسرار المهارة في الإقناع والظفر بالخصوم وأسرار البراعة في القول وطرق الإلقاء تدريبا لهم[3].

إلا أن المبدع في أي صناعة من الصناعات يواجه بعض الصعوبات في بدايتـــه، وخاصـــة

---

[1]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم:، ص 327.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 44.

[3]-**ينظر**:البلاغة تطور وتاريخ :شوقي ضيف، ص 33. لمزيد من التفصيل.

الكتابة، ففي أول عهد المتصدر لها لا تواتيه منازلها تمام المواتاة، ويجد بعض العنت في تحصيل ما يصبو إليه.

يقول الجاحظ -نقلا عن بشر بن المعتمر-: «فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة ، و لم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعاصى عليك بعد إحالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جرت من الصناعة على عرق»[1].

فالمبدع الحق عليه بالمعاودة والمكابدة والصبر على مايجد من مصاعب بادئ الأمر إذ «المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث في طلبه واجتهاد في نيله»[2].

فمن اجتهد في نيل مطلبه، وصبر في سبيل بلوغ مقصده فذلك البليغ التام.

ويؤكد الجاحظ الأمر نفسه، من أن كل خطيب عليه بالممارسة والرياضة أول عهده بالخطابة، وقد ذكر حالة شاذة عن القاعدة العامة، وهي حالة " **شبيب بن شيبة** "(**ت 170هـ**) الذي حاز المراتب العليا في أول عهدة بالخطابة، ويقول أبو عثمان:

«ويقال أنهم لم يروا خطيبا قط بلديا، إلا وهو في أول تكلفه لتلك للمقامات كان مستثقلا مستغلقا أيام رياضته كلها، إلا أن يتوقح وتستجيب له المعاني، ويتمكن من الألفاظ، إلا "**شبيب بن شيبة**"، فإنه كان قد ابتدأ بحلاوة ورشاقة، وسهولة وعذوبة، فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره»[3].

«وقد رشحت عن تعلقه بهذا الجانب مجموعة من المصطلحات تدل على أهمية الممارسة وتعهد الطبع في حذف الصناعة واشتداد المعارضة "كالتمييز"و"السياسة" و"الترتيب" و"الرياضة" و"المعاودة"» [4].

فالإبداع يحتاج إلى دقة الفطنة وصفاء القريحة ولطف الفكر وبعد الغوص، وملاك ذلك كله

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 138.

[2]-أسرار البلاغة في علم البيان :عبد القاهر الجرجاني، علق على حواشيه، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، - بيروت - ط 1 (1409 هـ -1988 م) ص 133.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 112- 113.

[4]-التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، ص 203.

وتمامه والجامع له صحة الطبع وإدمان الرياضة.

«وقد حافظ القدماء على هذا الشرط سواء كانوا رواة الشعر أم شعراء أم نقادا ... فلا دخول في مضمار الشعر دون الرياضة»[1].

فالدربة والممارسة والصلة الطويلة بالصناعة تساعد المبدع على الإلمام بأصول صناعته وخباياها، وتمكنه من حذقها والإجادة فيها ؛من هنا احتلت أهمية كبرى في تصورات الجاحظ الأدبية والجمالية.

يقول الجاحظ: «ولا تهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوة القريحة، ويستبد بها سوء العادة»[2].

ويقول أيضا: «فأما أرباب الكلام، ورؤساء أهل البيان، والمطبوعون المعادون وأصحاب التحصيل والمحاسبة، والتوخي والشفقة...»[3].

فالجاحظ شديد العناية بالمبتدئين من الكتاب، وينصحهم بعدم إهمال المواهب التي أودعها الله فيهم، وأن يسعوا إلى صقلها بالدربة، وتنميتها بالرياضة، حتى لا يستولي عليها الإهمال وتستبد بها سوء العادة.

ويؤكد على أن السمو في درجات البلاغة والارتقاء في سلم البيان يكون عن طبع ورياضة،فالطبيعة دون رياضة وتنمية مآلها الزوال،والدربة دون طبع لا فائدة منها. وقد راح الجاحظ يضرب لهم أمثلة من اجتهادات أقطاب البلاغة ومصاقع الخطباء لتشجيعهم على حذق الصناعة، وإبراز أهمية الصبر والمثابرة في التفوق.

يقول الجاحظ عن "واصل بن عطاء": «ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة ورئيس نحلة (....) وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، والى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة (...) رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه،وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى

---

[1]-استقبال النص عند العرب،محمد مبارك ص 23.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 200.

[3]-المصدر نفسه.

لستره والراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمّل»[1].

وآراء الجاحظ المهمة حول توفر هذا الشرط في المتكلم الذي يبتغي الجودة مع المنفعة تدعمها دلالات أخرى.

يقول **الآمدي(ت 631 هـ)**: «... ويبقى ما لا يمكن إخراجه إلى البيان، وإظهاره إلى الاحتجاج وهي علة ما لا يعرف إلا بالدربة، ودائم التجربة، وطول الملابسة، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته، وقلت دربته، بعد أن يكون هناك طبع تقبل لتلك الطباع وامتزاج بها،وإلا فلا يتم ذلك»[2].

وهذا تأكيد على أن الدربة شرط هام للموهبة الشعرية لأنها تكسب صاحبها خبرة علمية وبصرا بمضايق الشعر، وطرق الأداء، وعن طريق الدربة والمران يستطيع الأديب –وبخاصة الناشئ– أن يصل إلى الغاية التي يرجوها من الجودة والإتقان [3].

وفي الأخير يقدم الجاحظ نصيحة للناشئة تعينهم في طريقهم، وهي عدم العجب والغرور وتجنب فرط الثقة بالنفس، والحرص على عرض ما يبدعون على جهابذة الألفاظ نقاد المعاني من أصحاب الخبرة لتقديره، فإن لقي الاستحسان فقد بلغوا الإجادة وحذقوا الصناعة، وان استهجنوه فإن المتكلم لم يوفق في تلك المرة وعليه بالمعاودة والمثابرة، يقول: «فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة، وتنسب إلى هذا الأدب، فعرضت قصيدة أو حبرت خطبة، أو ألفت رسالة أو أشعارا أو خطبا، فإن رأيت الأسماع تصغي له، والعيون تحدج إليه، ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله (...) واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه»[4].

---

[1]–البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 13 ــ 14.

[2]–الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: الآمدي، تحقيق: عبد الله حمد محارب، مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ، (د. ط) (1990م) ص 372 – 373.

[3]–في النقد الأدبي القديم عند العرب: مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، مكة للطباعة، ــ القاهرة ــ، (د.ط) (1419هـ ــ 1998م)، ص 20.

[4]–البيان والتبيين: الجاحظ، ج1،ص203.

3-التحصن بباع من العلم والمعرفة:

لما كان حرص الجاحظ على ضرورة إتقان المتكلم لمختلف المستويات التعبيرية، والأساليب البلاغية، التي تمكنه من إخراج كلامه على هيئة مخصوصة تجعله في أعلى منازل البيان، وأرفع مراتب البلاغة،و هذا لا يكون لكل متكلم، راح أبو عثمان يضع بعض المقاييس التي يجب توفرها في المبدع حتى يحذق وسائل صناعته، التي تساعده على التصرف مع كل المخاطبين باختلاف طبقاتهم وتباين مستوياتهم،و حسب ما يقتضيه سياق الكلام.

فإضافة إلى الطبع والدربة، اشترط الجاحظ في المتكلم أن يتحصن بباع من العلم والمعرفة في مختلف العلوم؛باعتبار الجاحظ نفسه كان موسوعة زمانه ودائرة معارف عصره.

و يعد تحصيل المتكلم لقدر من العلم والمعرفة نعم العون له في عملية الخلق الفني؛ إذ بقدر تمكنه في استعمال الأساليب، وحذقه فنون القول المختلفة، يكون له فضل التصرف مع كل الحالات التي تواجهه والمقامات التي يكون ضمنها،وبالتالي يضمن الحسن والجودة لكلامه و يتمكن من بلوغ هدفه الجمالي أو الإقناعي.

«و اشتراطه العلم في البيان مرتبط بفكرة كانت منتشرة في أوساط الكتاب والبلغاء يحتجون بها لفضل صناعتهم وتفوقها على سائر الصناعات،فنهجوا لذلك نهج الفلاسفة في ترتيب قوى النفس،و بنوا تصنيفهم على هيئة تحله المحل الأرفع وتربطه بالعلم ربطا لا ينفصم»[1].

يقول الجاحظ: «وقال **سهل بن هارون(ت 830 هـ)**:العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم(...). وقالوا:حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف وحياة الحلم العلم وحياة العلم البيان»[2].

و الجاحظ كثيرا ما يربط بين العلم والبيان،فيربط الأدب الحسن بالاختلاف إلى العلماء والأخذ عنهم والاستفادة من علمهم،و مدارسة كتب الحكماء،كما يقول الجاحظ: «الإنسان بالتعلم والتكلف، وبطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسه كتب الحكماء، يجود لفظه ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل أكثر من ترك العلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير»[3].

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود،ص206.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 77.

[3]-المصدر نفسه، ص 86.

فالمتكلم لا يكون بيّنا عنده إلا إذا كان له حظ من العلم، وعلى قدر تمكنه في العلوم وإحاطته بمختلف المعارف يكون رسوخ قدمه في البيان وحظه من البلاغة فالمرء إذا ألمّ بالعلوم المختلفة يمكنه التعامل مع كل الحالات وإيفاء حق كل المقامات.

يقول الجاحظ: «واللسان لا يكون أبرأ، ذاهبا في طريق البيان، متصرفا في الألفاظ إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به، منقلة له، واضعة له في مواضع حقوقه وعلى أماكن حظوظه، وهو علة الأماكن العميقة، ومصرفة له في المواضع المختلفة»[1].

فهو يحض على دور المعرفة التي تعتبر وسيلة الفرد لدخول دائرة الأبيناء، وتمنحه القدرة على استعمال فنون القول المناسبة لكل موضع.

لهذا فالتزود بباع من العلم والمعرفة يحقق القانون الأساس الذي تنبني عليه الظاهرة اللغوية عند الجاحظ وهو "المناسبة" و"الملاءمة" بين مختلف أطراف الكلام: بين الكلام والمقامات، وبين الكلام والحالات الخاصة.إلا انه في سياقات أخرى يضيق الجاحظ استعمال العلم والمعرفة، يخصصها بالتمكن في أصول اللغة العربية والمعرفة الوافية لأساليب العرب في كلامها، وفنون القول، والمعرفة الدقيقة لقواعد اللغة، والضوابط التي تتحكم في ما قد يقوم بين أقسامها من علاقات وتوسع العرب في استعمال لغتها، وما جوزته من أساليب..... وغيرها.

يقول الجاحظ: «فللعرب أمثلة واشتقا قات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك»[2].

فالجاحظ يؤكد على ضرورة إلمام المتكلم بمختلف جوانب اللغة، ومقاييسها، في "الاشتقاق" "والبناء" و"النحو" وغيرها[3]، حتى إنه من شدة أهميتها لديه يربط بينها وبين فهم الكتاب والسنة، فحذف علوم العربية هو سبيل فهم الشريعة والمرء إن لم يكن متزودا بقدر كاف من العلم سوف يؤدي تأويله الخاطئ إلى مخاطر جمة.

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص 204.

[2]-المصدر نفسه، ج1، ص 153-154.

[3]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 208. لمزيد من التفصيل.

كما حث على الإحاطة بمختلف الأطوار التاريخية التي مرت بها العربية، لمعرفة الألفاظ "المتروكة" من "المحدثة"[1]، حتى يتجنب المتكلم إيراد الألفاظ التي تركتها العرب في كلامه، لأنها لم تعد "على مجاري كلام العرب الفصحاء".

يقول الجاحظ في باب (ما ترك الناس من ألفاظ الجاهلية): «ترك الناس مما كان مستعملا في الجاهلية أمورا كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان الحملان والمكس...»[2].

إضافة إلى ضرورة ملاءمة الألفاظ للسياقات التي ترد فيها، أوجب الجاحظ أيضا على المتكلم أن يكون حاذقا بالمكروه من ألفاظ العرب والمستحب منها، خاصة مع تغير الظروف واختلاف الأزمان وكثرة الحاجات، يقول الجاحظ في (ما يكره من الكلام): «أما الكلام الذي جاءت به الكراهية من طريق الروايات، فروي عن رسول الله ﷺ أنه قال «لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي»، كأنه كره ﷺ أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه.

كما دعا الجاحظ المتكلم إلى العناية بمختلف فنون القول، وحذق الطرق الخاصة في استعمال اللغة، وتصنيف الأساليب، وإتقان المجازات وتوسع العرب في كلامها والإحاطة بمستويات الدلالة، والفرق فيما بين الحقيقة والمجاز؛ إذ تختلف سبل القول عند العرب وتتنوع طرقه، فمنها ما يأتي وفق ما استعملته العرب في ممارستها اللغوية وقوانينها التواضعية وفق الأصول النحوية المجردة، ومنها ما يأتي خارجا عن هذه القواعد تبعا لإرادة المتكلم وقصده من كلامه ومن قبيل التوسع وهذا في الشعر والنثر.

وحذق هذه الأساليب والإحاطة بمختلف علوم العربية يكون برواية عيون الشعر العربي والإطلاع، على روائع النثر الأدبي، خطبه ورسائله.... وغيرها، إضافة إلى دراسة أيام العرب وأخبارها، باعتبارها سياقات مساعدة على الفهم، فالرواية لها دور بالغا في تنمية قدرات المتكلم وصقل مواهبه وتهذيب ذوقه، لذا اعتبرها أبو عثمان أهم شروط الإجادة، كما كان المعتزلة أنفسهم أكثر الناس حرصا على حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، إضافة إلى أن الجاحظ طبق هذا المنهج على نفسه حتى صار موسوعة زمانه ودائرة معارف القرن الهجري الثالث.

---

[1]-**ينظر**: التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 208. لمزيد من التفصيل.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 227.

ثالثا: مقتضيات المقام.

كان للحدث الكلامي مكانة عظيمة في نظرية الجاحظ البيانية، وقد كان المفهوم الخاص للبيان عنده يعد التأسيس المنطقي، أو النظرية البلاغية للخطاب الشفوي الإقناعي؛ القائم أساسا على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام،الذي كان بمثابة الحكم في خضم الاقتراحات، وفي ظل هموم الرجل التربوية والتعليمية؛ إذ كان تعليم الخطابة للناشئة، ومحاولة تلقينهم أسرار المهارة في القول الغاية الأولى للمعتزلة، وباقي الفرق عامة، كما كان الهدف الأسمى للجاحظ على وجه الخصوص.

لهذا كان أبو عثمان كثير التنويه بأهمية المقام، واعتبره أساس الفهم والإفهام الذي يعد اللبنة الأولى للإقناع الخطابي، «وراح يربط بين الأداة التعبيرية المستعملة من طرف المتكلم والخصائص النصية للخطاب ومدى مناسبتها للمقام»[1].

وقد شرح الجاحظ ما يقصده، وأرجعه إلى أمرين، يجب على المتكلم أن يلائم بينهما وبين كلامه ويصوغ خطابه وفقهما وهما: أقدار المستمعين، وأقدار الحالات.

يقول الجاحظ –ناقلا عن بشر في المعتمر– «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات،فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[2].

فالمتكلم عليه تخير أسلوب التعبير الملائم لكل مجتمع ولكل سياق، وانتقاء القالب اللغوي الذي يقتضيه كل مقام وتستدعيه كل حالة، والكفيل بإنجاز بإنجاح الفحوى وبلوغ المقاصد ودفع السامع إلى تحقيق المضامين النصية[3].

لذلك وجب على المتكلم أن يلائم بين كلامه ومختلف الظروف والملابسات التي تحف بعملية إنتاجه،حتى يتمكن من إفهام المخاطبين وبالتالي تحقيق مختلف الوظائف الأخرى: الإمتاع،

---

(1)–البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: محمد العمري، ص 202.

(2)–البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 138 – 139.

(3)–**ينظر**:الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ص 214. لمزيد من التفصيل.

الإقناع الإضحاك...و غيرها.

«وفكرة المقام هي التي أوحت إلى الجاحظ الاهتمام بسياسة القول، والنطق بالحجة وتخير اللفظ الملائم، وترتيب الحجج، أحوال المخاطبين، وأقدارهم، وثقافتهم إلى غير ذلك من الأمـــور التي من تصميم نظريته الحجاجية»[1].

فحسن استحضار المقام، أو بعبارة أخرى، حسن استغلال إمكاناته يمنح المسار الحجـــاجي قوة ذات تأثير دامغ؛ لهذا يمكن القول إن نظرية (**بيرلمان**) الحجاجية تعد نظرية مقامية بالدرجـــة الأولى[2].

إذن لما كان المقام عند الجاحظ منظور فيه المعنى التأثيري والإقناعي الذي به تتحقق الجدوى والمنفعة المنشودة من أي خطاب، وجب على المتكلم مراعاة مقامات خطابه بكـــل عناصـــرها وتحليه بمرونة التكيف المستمر مع تقلب السياقات وتجدد المقامات.

1- مستلزمات المقام:

اهتم الجاحظ كثيرا بالمقام التخاطبي، باعتباره جزءا رئيسا في العملية اللغوية خاصة منـــها ذات المسحة الفنية والغرض التأثيري الإقناعي، وكما سبق القول فقد بنى أبو عثمان نظريتـــه في الكلام البليغ باعتماد مقام الخطابة؛ إذ إن حضور الخطبة في "البيان والتبيين" حضور طاغ من جهة النصوص التي أثبتها ومن جهة التفكير في الكلام والمتكلم والسامع، فقد أفاض الحديث عن الخطبة وسياق الخطبة، وتوسع في دور كل طرف من أطراف العملية التخاطبيـــة: المـــتكلم والســـامع والخطاب في جعل النص بليغا مؤثرا مقنعا.

وقد ألحّ الجاحظ على مقتضيات هذا الموضع، وما يجب أن يتوفر في من يتصدر لهذا الموقف ويتوق إلى هذه المترلة من أحوال الخطيب وكفاءته اللغوية وهيئته وصفاته الخلقية وما يحسن له وما يقبح.

ويمكن أن نرجح حرص الجاحظ على المقتضيات التي يجب على الخطيب التحلي بها قبـــل التصدر لهذا المقام، كون الخطابة من الأجناس الأدبية التي تعتمد على "المشـــافهة" و"المواجهـــة"

---

[1]-كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج:علي محمد علي سليمان، ص 163.

[2]-**ينظر**:المرجع نفسه، ص 164. لمزيد من التفصيل

فالخطيب أكثر من غيره مضطر إلى مراعاة أحوال المتلقين وظروفهم الراهنة مما يجب على الخطيب إخضاع كلامه إخضاعا آنيا لهذه الظروف المتغيرة من لحظة إلى أخرى، كما يوجب عليه الثقة بالنفس وقوة العارضة والاقتدار على الكلام وذلك بأن يكون له فضل التصرف في كل طبقة ومع كل ظرف آنيا حسب ما يقتضيه، الخطاب المباشر. واعتماد مقام الخطابة، "على المشافهة" أو الاتصال المباشر بين المتكلم والسامع يوجب من الخطيب أن يكون نصه إبان الإلقاء مادة جاهزة قابلة للاستهلاك، لهذا يجب على الخطيب التحلي ببعض الصفات الأساسية لهذا المقام،كالخصائص المتعلقة بالجانب الفيزيائي لعملية التلفظ: قوة الصوت، وصفاته، وتصريفه حسب المعنى، وكيفية النطق، والقدرة على النطق السليم وفق المخارج الصحيحة، وإحلال الكلام، محله من الإعراب والبناء وغيرها[1].

أما صوت الخطيب فهو « المترجم عن مقاصده، والكاشف عن أغراضه، وهو المعول عليه في إيصال الخطاب إلى السامعين»[2].

والجاحظ يعتبره «آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف» [3].

إضافة إلى أن صوت الخطيب هو الذي يبين تغير أحوال الخطيب ويوضح انفعالاته التي تتبع المعاني التي يلقيها على السامعين، فألفاظ الاستفهام، التعجب، التوبيخ واللّوم، والعتاب والزجر والتفخيم والتهويل ونحوها، لها كيفيات صوتية في الإلقاء تدل على المعنى المراد، وكذلك يقال في خفض الصوت ورفعه ولينه وشدته وتكرار الكلمة وقطعها ومد الصوت بها لها حالات خاصة في الخطبة، حتى يستشير خطيب السامعين ويلفت انتباههم، مما يكون له عنوانا في بلوغ مقصده وتحقيق هدفه.

فالخطيب إذا لم يراع معاني الألفاظ في صوته، وجاء نمطيا على وتيرة واحدة فقدت معانيها ولربما استعجمت على السامعين، إذن على الخطيب أن يغير النبرة الصوتية بما يتناسب مع المعنى الذي تحويه.

أما عن أهم الصفات الصوتية الواجب توفرها في الخطيب، والتي تمكنه من تصدر مقام

---

[1]-**ينظر**:التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 212. لمزيد من التفصيل.

[2]-استراتجيات الخطاب: عبد القادر بن ظافر الشهري، ص 46.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1،ص 79.

الخطابة وتجعله مؤهلا لتلك الوظيفة، تأتي في مقدمتها صفة "الجهارة" يقول الجاحظ: «وكانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم وذموا صغر الفم»[1].

ويقصدون بالجهارة قوة الصوت وقدرته على بلوغ السامع على مدى بعيد. «واعتبروا جهارة الصوت من آلات الخطابة لأن الخطيب الذي يتكلم في جمهور غفير من الناس، يحتاج إلى قوة الصوت وحدة النبرات ليصل إلى مسامع القوم ويؤدي إليهم أفكارهم ويؤثر بهم»[2].

فإذا كان الصوت خافتا لم يصل إلى كل المستمعين، وبذلك لا يسمع جلّ الناس ما يقال وبالتالي لا يفهمون، ولما ينتفي الفهم والإفهام تنتفي معه مختلف المقاصد الأخرى، لأن كل الوظائف الأخرى للفعل اللغوي تنبني أساسا على الفهم والإفهام من هنا كان من الطبيعي أن تحتل "الجهارة" صدارة الخصال الواجب توفرها في الخطيب.

«إضافة إلى ما يتميز به الصوت من تأثير نفسي على السامعين، وما له من طاقة تحميس وإثارة الهمم»[3].

يقول الجاحظ: «وقد كان العباس بن عبد المطلب جهير الصوت، وقد مدح بذلك وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين، حين ذهب الناس عن رسول الله ﷺ فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله فتراجع القوم، وأنزل الله ﷻ النصر وأتى بالفتح»[4].

وقد ارتبطت جهارة الصوت برحب الشدق، وسعة الفم، حتى صار يضرب المثل في براعة الخطيب وتفوقه في صناعته بالأشدق.

يقول الجاحظ: «قيل لأعرابي:ما الجمال ؟ قال: طول القامة وضخم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت»[5].

إلا أن الجاحظ وعلى عادته في التوسط والاعتدال، حذر من التكلف في النطق والتزيد

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 121.

[2]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم، ص 327.

[3]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص 215، بتصرف.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج 1، ص 123.

[5]-المصدر نفسه، ص121.

في جهارة الصوت، والإغراق في تضخيم الصوت، وقد سمي أبو عثمان هؤلاء بـــ«أصحاب التشديق والتقعير والتقعيب»[1].

إضافة إلى حديث الجاحظ على ضرورة ما يجب توفره في الخطيب حتى يتمكن من التصدر لهذا المقام، لم يغفل الحديث عن ما يجب على الخطيب تجنبه، على عادته في معالجة المسائل بطريقة البرهان بالخلف أو إظهار السلب لتجنبه واستنتاج الإيجاب منه.

وقد تحدث عن هذه الصفات تحت باب (آفات النطق)سواء الخلقية منها أو الانحرافات الطارئة نتيجة لشوائب اللغات الأجنبية التي جرت على الألسنة بسبب التداخل العرقي والتمازج الثقافي نتيجة للتوسع الإسلامي.أو ما أطلق عليه في اللسانيات الحديثة (**L'interférence**) وهي ما أطلق عليه الجاحظ (اللكنة والرطانة) مع فرق بينهما.

أما عن الصفات الخلقية، ففي مقدمتها ظاهرة "اللثغة" [2]، التي أولاها عناية خاصة، و فصّل فيها، كما تحدث عن أشهر من أصابتهم، ودعا الخطيب إلى محاولة تقويمها بالجهد والمثابرة.

كما تحدث عن عيوب أخرى تصيب نطق الخطيب، وتمنع جريان الكلام على اللسان، وتقف حاجزا أمامه، وتحول دون بلوغ مقصده.

وأهمها: " التمتمة"، " الفأفأة "، "الحكلة والعقلة "، "الحبسة"، "اللفف" وغيرها [3].

وعناية الجاحظ بهذه العيوب يؤكد على مدى تأثيرها على الخطيب وكلامه؛ إذ تعد عيبا يتخوّن محاسن الكلام، وشينا يحطّ من منزلة الخطيب.

واعتماد الخطابة على الاتصال المباشر بين المتكلم والسامع أدى بالجاحظ إلى مراعاة بعض المقتضيات النفسية للخطيب،وصفاته وهيئته الخارجية؛ إذ إن إلقاء الخطاب أمام جمهور من الناس يستدعي مستلزمات خاصة.

يقول الجاحظ – نقلا عن صحيفة هندية -: «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج 1، ص13.

[2]-تطرقنا إلى هذه الظاهرة بالتفصيل في الفصل الأول من بحثنا هذا.

[3]-تعرضنا إلى مختلف هذه العيوب النطقية في الفصل الأول.

أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ»[1].

«فالصحيفة تطلب بوضوح من الخطيب أن يكون ثبت الجنان هادئ النفس، حتى لا يصيبه دهش من شأنه أن يعقد لسانه»[2].

يقول الجاحظ: «إنما يجترئ على الخطبة الغر الجاهل الماضي، الذي لا يثنيه شيء أو المطبوع الحاذق، الواثق بغزارته واقتداره، فالثقة تنفي عن قبله كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة والانقطاع والبهر والعرق»[3].

فالجاحظ يلح على ضرورة أن يكون الخطيب رابط الجأش، شديد الثقة بنفسه مقتدرا حتى لا تصيبه الدهشة والارتباك أمام جمهور السامعين، وتظهر عليه عوارض متنوعة كالارتعاش والرعدة والنحنحة والسعلة والعرق....وغيرها.

ومنه يضطرب كلامه، ويقل بيانه نتيجة فقدان توازنه بسبب الاضطراب الشديد ويقول أيضا «وأعيب عندهم من دقة الصدق وضيق مخرجه، وضعف قوته، أن يعتري الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق»[4].

وكانوا يؤثرون في الخطيب قلة الإشارات والحركات عند إلقاء الخطبة ويحكى عن أبي شمر أنه «إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة»[5].

ولم يغفل الجاحظ ربط الكلام في الخطابة ببعض الشارات الخاصة التي تصاحب الخطبة منذ العصر الجاهلي، وأهمها حمل المخصرة ووضع العمامة تأهبا للخطبة وهي صفة العربي الأصيل صاحب البيان الرفيع.

يقول الجاحظ: «وقد لا يلبس الخطيب الملحفة والجبة ولا القميص ولا الرداء والذي لابد منه العمة والمخصرة، وربما قام فيهم وعليه إزاره وقد خالف بين طرفيه، وربما قام فيهم وعليه

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 92.

[2]-البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص 37.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 134

[4]-المصدر نفسه، ص 133.

[5]-المصدر نفسه، ص 91.

عمامته، وفي يده مخصرته»[1].

وقد احتل الحديث عن "العصا" قسطا وفيرا من حديث الجاحظ، في مواطن عديدة وفي أبواب مطولة من كتابه "البيان والتبيين"[2].

وذلك لأنها كانت من مطاعن الشعوبية ضد العرب؛ إذ كان الشعوبيون لا يرون أي مناسبة بين الكلام والعصا، والنجاح في الخطبة ن وجعلها دليلا على التأهب للخطبة، يقول: «وأيضا إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، وقصور عليهم ومنسوب إليهم»[3].

ولعله يمكننا القول: إن أخذ المخصرة أثناء إلقاء الخطبة، مع الأخذ بعين الاعتبار الأصل الشريف للعصا والفضائل النبيلة لها والتي فصلها الجاحظ، إلا أنها تظل ممارسة ثقافية، وميزة الهوية العربية الأصلية أكثر منها صلة بالكلام.

«و لم يغفلوا أثر هيئة الخطيب وتركيبه الجسمي، فاعتبروا جمال الهيئة ذا تأثير في الناس،أضف إلى ذلك الصفات المعنوية والخلقية، فهي مبعث للثقة ودافع إلى الاحترام والتقدير والتصديق»[4].

يقول الجاحظ: «وزين ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة والألفاظ معدّلة اللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تمّ كلّ التّمام، وكمل كلّ الكمال»[5].

وعليه فإن عناية الجاحظ بمقام الخطابة جعلته يلح على ضرورة تحلي المتصدر لها بجملة من المواصفات المادية والنفسية تشد أزره وتقوي عزمه وتضفي على خطابه صفة الكلام البليغ وتطبعه بطابع الجمالية والإقناعية، إذ سعى إلى ضبط الصفات الصوتية الضرورية للخطيب حتى يتقنها وتكون سلاحه الذي به يحذق صناعته، كما حاول عرض الآفات التي تحط من مترلة

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج 3،ص 92.

[2]-**ينظر**:المصدر نفسه، ج1، 370-388، ج3، 45-48، 49-113، 243- 263.

[3]-المصدر نفسه، ج3، ص117.

[4]-المناحي الفلسفية عند الجاحظ: علي بوملحم، ص 327 -328.

[5]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص89.

الخطيب، حتى يتجنبها، إضافة إلى حديثه عن بعض الصفات النفسية الواجب على الخطيب أن يتحلى بها خاصة الثقة بالنفس، ولما للجانب النفسي من تأثير بليغ على المتكلم والسامع، دعا الخطباء إلى الاهتمام بهيئتهم الخارجية وصفاتهم الخلقية لما لها من أهمية في شد انتباه المخاطبين.

وبهذه الخصال يستطيع الخطيب حذق مختلف فنون القول باقتدار، والتصرف في كل طبقة ومع كل حالة دون خوف ولا رهبة، وبالتالي تحصل له الإجادة في قوله،وتتم له الغاية من كلامه والمقصد من خطابه، فيجمع بين الجمالية والوظيفية.

2- منزلة المتلقي الاجتماعية وانتماؤه الطبقي:

إن عملية التواصل مبنية على أساس الفهم المشترك بين المتكلم والمخاطب إذ يفترض وجوده ضرورة في كل عملية تخاطب عادي أو فني، لهذا نجد الجاحظ يشدد على ضرورة مراعاة منزلة المخاطب الاجتماعية وانتمائه الطبقي، إذ يجب على المتكلم مخاطبة الناس بما يعهدون ويفهمون فلا يخرج في خطابهم عما توجبه أوضاع الكلام، باعتبار أن المخاطبين ينتمون إلى نوعيات متفاوتة في الجنس والعمر والثقافة والطبقة والاهتمامات الخاصة والميولات العامة

لأن المخاطب له دور هام في بناء الخطاب ونجاحه؛ إذ تبعا لأقدار المستمعين وحالاتهم يصوغ المتكلم خطابه، وبمدى ملاءمة هذا الكلام لأقدار المخاطبين يكون نجاحه، وبلوغ المتكلم مقاصده.

يقول الجاحظ: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدر الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما»[1].

فالمخاطب عنصر أساس في عملية الخلق الفني، ليس باعتباره غاية المخاطب فقط بل باعتباره عنصرا ضروريا في بنائه وتكوينه؛ إذ إن اختلاف الناس في طبيعة تقبلهم للكلام تبعا لاختلاف أذواقهم وطرق عيشهم، وبسطهم وانقباضهم مدعاة لاختلاف استجابتهم للظاهرة اللغوية فالعوامل الثقافية والفكرية والأحوال النفسية والمنزلة الاجتماعية للمخاطب لها القسط الأوفر

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 138-139.

من عناية المتكلم أثناء عملية الخلق الفني[1].

يقول الجاحظ: «وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل، وكله عربي ن وبكل قد تكلموا...»[2].

فتفاضل الناس في طبقات يؤدي إلى تباين مستويات الأداء اللغوي من طرف المتكلم ضرورة، فلكل طبقة معانيها الخاصة التي تدور في كلامها، وأسلوبها المحدد الذي تفهم به وعلى المتكلم أن يكون لديه فضل التصرف مع كل طبقة؛ إذ لكل طبقة كلام، ولكل حالة مقام فعلى المتكلم أن يخاطب كل طبقة بما تفهم، فلا يحلق إذا خاطب العامة، ولا يسفّ إذا خاطب الخاصة «لا يكلم سيّد الأمّة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة»[3] لأن «مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم،والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[4].

إذن؛ على المتكلم أن يأخذ بعين الاعتبار الزاد اللغوي لمخاطبيه، ومنزلتهم في العلم وحظوظهم في المعرفة، إضافة إلى رتبتهم في السلم الاجتماعي، ونصيبهم من الجاه والسلطان.

لأنه «تختلف ثقافة المتلقي من شخص لآخر، وكذلك ذكاؤه، وكذلك ذكاؤه، لذلك على المتكلم مراعاة الفروق الفردية والثقافية بين الأفراد، والأخذ بعين الاعتبار فئاتهم العمرية وطبقاتهم الاجتماعية»[5].

وعليه «فمراعاة مقتضي الحال، لبّ الخطابة وروحها، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان تخاطب به، لذلك وجب على الخطيب أن يكون قادر على إدراك طبقات الجماعة

---

[1]-**ينظر**:استقبال النص عند العرب: محمد مبارك، ص 187، لمزيد من التفصيل.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1،ص 144.

[3]-المصدر نفسه، ص92.

[4]-المصدر نفسه، ص93.

[5]-البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: محمد بركات حمدي أبو علي، ص 57.

وما تقتضيه والإتيان بالأسلوب الذي يلائمها»[1].

فالمتكلم مدعوّ لتحقيق المناسبة بين كلامه ومخاطبيه، وعليه أن يوفي كل منزلة حقها، وكل طبقة وما يناسبها.

إضافة إلى هذا استهجن من المتكلم استخدام اللفظ المنطقي إلا إذا كان من أهل الصناعة وكان الموضوع يدخل في علم الكلام، وعليه في هذا الموضع أن يتجنب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوام، وبالمقابل، إذا كان المتكلم يوجه كلامه إلى العامة ، أو غيرهم من الذين لا دخل لهم بصناعة الكلام، فعليه تجنب ألفاظ المتكلمين، لأن لكل فئة ألفاظها التي تتفاهم بها، وأسلوبها الذي درجت عليه وعهدته يقول في هذا:

«وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين مادمت خائضا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهم عنّي، وأخف لمؤونتهم عليّ، ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها (...)، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة، أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا تحدث أو في خبره إذا أخبر، وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل»[2].

ويمكننا القول إن البيئة الجديدة، نتيجة لتوسع المعارف، وتمازج الأجناس وتفاعل الثقافات فرضت ظروفا جديدة، انعكست بدورها على الوضع اللغوي في العصر واستطاع الجاحظ بعين المصور الواقعي البارع أن ينقل لنا ذلك الواقع ضمن إطار تاريخي؛ إذ إن فكرة تقسيم المخاطبين إلى طبقات لم تكن في الفنون الأدبية من قبل إلا أنها برزت فيما بعد نتيجة للطبقية التي سادت بشكل واضح في العصر العباسي سواء الاجتماعية منها التي كانت نتيجة تباين الناس في السلّم الاجتماعي واختلاف درجة ثرائهم، أم اللغوية الناتجة من تباين حظوظهم في الفصاحة وتنوع مقدرتهم اللغوية وزادهم المعرفي.

---

[1]-**ينظر**:استقبال النص عند العرب: محمد مبارك، ص 164، لمزيد من التفصيل.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص 368-369.

3-مقتضيات الحال:

تتعدد استراتجيات إنتاج الخطاب تبعا لاختلاف الظروف المحيطة، فما يكون مناسبا في سياق ما قد لا يكون كذلك في سياق مغاير، وبهذا فإن تغير بعض العناصر يستتبع تغيرا في الإستراتجية المنتقاة لتحقيق المقصد المنشود، فلا ينحصر اختيار المتكلم في اختيار إستراتجية واحدة ثابتة دوما، وهنا يصبح انتقاء أنسب الإستراتجيات للخطاب عملا ضروريا تبعا لما تستدعيه الحالات، ويؤكد الجاحظ على عادته أن العبرة في صياغة الكلام بالمعنى والمقام وأحوال المستمعين النفسية، حيث لاحظ أن الذكر الحكيم حين يتجه بخطابه إلى العرب الفصحاء يعمد إلى الإيجاز والاقتضاب، ويخرج الكلام مخرج الإشارة والحذف لفطنتهم ودهائهم وكون العرب أرباب البيان وأهل الفصاحة، ولو قسّم التراث بين الأمم لكان نصيبهم البيان، فإذا عمد إلى مخاطبة بني إسرائيل أطال في الكلام وزاد فيه وجعل الخطاب مبسوطا لبلادتهم ونقص فصاحتهم وصعوبة فهمهم فنحن نرى كيف راعى القرآن الكريم أحوال المتلقين النفسية وفصّل الخطاب وفقا لذلك [1].

يقول الجاحظ: «ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل،أو حكى عنهم جعله مبسوطا، وزاد في الكلام»[2].

كما نرى الجاحظ يتوسع في الحديث عن الإطناب والإيجاز ومواضعهما، وأن ما يستحب في موضع قد لا يرتضى في موضع آخر تبعا لما تستدعيه الحالات، من ذلك حديثه عن الترداد في القصص القرآني ومواعظ الوعاظ، يقول: «وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص، وقد رأينا الله – عز وجل – ردّد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم عيي غافل أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب، وأما أحاديث القصص والرقة فإني لم أر أحدا يعيب ذلك، وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني

---

[1]-**ينظر**:البلاغة تطور وتاريخ:شوقي ضيف، ص 47، لمزيد من التفصيل.

[2]-الحيوان:الجاحظ،ج1، ص 94.

عيا»[1].

فالجاحظ قد ارتضى الترداد في قصص القرآن، وفي الحديث عن الجنة والنار وغيرها من المواضع، كما استحبه أيضا في خطب الوعاظ، مراعيا بذلك مختلف الحالات التي عليها المخاطب، وذلك قصد حصول الفهم لأكبر عدد ومن ثم بلوغ الغاية المقصودة. كما ارتضاه أيضا في الخطابة باعتبارها جنسا أدبيا يعتمد على المشافهة والمواجهة، ويكون الخطيب فيها مضطرا لإخضاع كلامه إخضاعا آنيا بما تقتضيه الحالات.

«وبينما نراه يرتضي الإطناب في الخطابة نراه لا يرتضيه في الرسائل، وقد وقف في بيانه ينوّه بجعفر بن يحي وإيجازه في رسائله»[2].

«وقال أيضا عن توقيعات **جعفر بن يحي**: نقلا عن عمرو بن مسعدة .... قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصارا، وأجمع فللمعاني»[3].

كما قال أيضا: «... ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة»[4].

ولعل الجاحظ ارتضى الإطناب في الخطب، لأن الخطبة تكون لفئة من الناس تختلف قدراتهم فمنهم ذوو المدارك العقلية البسيطة، ومنهم ذوو الفهم الثاقب فهذه تدرك المعنى من المرة الأولى وتلك تحتاج إلى الإعادة والتوكيد حتى تتمكن من الفهم، فيجب أن تكون الخطبة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب.

فالخطيب مضطر إلى مراعاة أحوال المستمعين النفسية، وأقدارهم وما يطرأ عليهم من ظروف، مما يوجب عليه أن يخضع كلامه وقت إلقاء الخطبة لتلك الظروف التي تتغير من لحظة لأخرى ، بخلاف الكاتب الذي يتمتع بحدود زمانية ومكانية تسمح له بتجبير كلامه وانتقاء ألفاظه والتصرف في مطابقة كلامه،لهذا كره منه الإعادة. وترتّب عن مراعاة الجاحظ للحالات التي تستدعي كلام الخطيب ، أنه اعتمد في تحديده للأساليب البلاغية على مدى ملاءمتها

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 105.

[2]-البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص 48.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 106 – 107.

[4]-المصدر نفسه.

للسياق، فهو يستحسن أسلوبا في موضع ويستهجنه في آخر، وعليه فإن قيمته البلاغية مرتبطة بمدى مناسبته للموضع الذي يكون فيه، فلا يمكن ضبط الأساليب في قوائم تصلح لكل حال يقول الجاحظ: «ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا انشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا، وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك عن عجز»[1].

فعلى المتكلم أن يكون عارفا بمواضع القول وحالات المخاطبين، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة فيقصر عن بلوغ الإرادة، ولا الإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملل ولعل أبرز مثال عن استراتجيات الخطاب التي تراعي الحالات، وتتنوع بتنوعها قصة (غيلان بن خرشة) التي أوردها الجاحظ، وفيها يمدح النهر مرة، ويذم النهر نفسه مرة أخرى:

«مر غيلان بن خرشة الضبي، مع عبد الله بن عامر، على نهر أم عبد الله، الذي يشق البصرة، فقال عبد الله: ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر ؟ فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير يعلم القوم صبيانهم فيه السباحة، ويكون لسقياهم ومسيل مياههم، وتأتيهم فيه ميرتهم،قال: ثم مرّ غيلان يساير زيادا على ذلك النهر، وقد كان عادى ابن عامر، فقال زياد: ما أضرّ هذا النهر بأهل هذا المصر ! فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير، تتر منه دورهم، وتغرق فيه صبيانهم، ومن أجله يكثر بعوضهم»[2].

فقد لاحظنا كيف راعى "غيلان" في الحالتين حال مخاطبه، مما دفع به تغيير رأيه كليا في الحكم على النهر، إذ يغير طبيعة خطابه من الإيجاب إلى السلب منتحيا منحى الموافقة والتوافق مع محاوره موظفا – في كلتا الحالتين –إمكاناته البيانية في مسلك استدلالي.

وعليه فالجاحظ يولي أهمية بالغة لتحقيق المناسبة بين كلامه ومقتضى حالات مخاطبيه إذ يستدعي من المتكلم الفطن توظيف اللغة في مستوياتها المتمايزة بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التفعيل الذي ينوّع طاقاتها الكامنة، خاصة وأن الجاحظ كان بصدد تكوين الخطيب المقتدر في معركة الحجاج التي كان يخوضها مع المعتزلة.

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص 13.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص 394 – 395.

الفصل الثالث:

مقوّمات الكلام عند الجاحظ

أولا: دائرة فن الصّياغة التركيبية.

1ــ الخبر، الوصل والفصل.

2 ــ الإيجاز، الإطناب، و المساواة.

ثانيــا:دائرة فن التشكيل التعبيري.

1ــ التشبيه، و الاستعارة.

2ــ الكنايــة، و المجــاز.

ثالثــا: دائرة فن الجماليات البنائية.

1ــ المحسنات اللفظية.

2ــ المحسنات المعنوية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد:

بالإضافة إلى المفهوم العام للبيان عند الجاحظ، والذي يهتم فيه بتحقيق الغاية الأساسية وهي وظيفة "الفهم والإفهام"، مما جعله خلوا من كل أبعاد فنية وبلاغية، لا هم صاحبه إلا الوقوف على الوسائل التي تضمن التواصل بين الناس من خلال تحقيق الوظيفة الإفهامية ليتم من الناس مرادهم من اجتماعهم، ويسهل عليهم قضاء حاجاتهم ، نجد مفهوما خاصا للبيان يهتم فيه صاحبه إلى جانب الغاية المتوخاة بالوسيلة المستعملة، ويتحدد إضافة إلى وظيفة بنيته وشكله ؛من هنا يتصف الخطاب في هذه الحالة بصفات نوعية، ويتسم بصفات فنية تخرجه من جاري الاستعمال إلى البلاغة والبيان، حيث يكتسب لفظ الخطاب ومعناه وبنيته خصائص نوعية يتحول بمقتضاها من مرتبة الوسائل إلى مرتبة الوسائل والغايات، وتوظف فيه اللغة توظيفا أدبيا جماليا، لأن اللغة تتعدد وجوه تصريفها حسب مقاصد المستعمل ومقضيات المقام، فهي تتمتع بطاقات إيحائية، بتوظيفها وتفجيرها يصبح المتكلم قادر على رسم شبكة من العلاقات المؤدية إلى المعنى.

إلا أن الجاحظ لم يخص البحث البلاغي بمؤلف مستقل، يجمع فيه مسائله ويبوبها، واكتفى بإدراجه في ثنايا مؤلفاته بنسب متفاوتة، تتحكم فيها ضرورات البحث ومحركاته، فجاءت المادة البلاغية في صورة ملاحظات وتعليقات متناثرة، لا يوحّد بينها إلا السياق العام واهتمام المؤلف بأفانين القول وطرقه وعليه فقد كانت المادة البلاغية رهينة منهج معين واستطراداته وتداعي الفكر لديه، فقد أقام أبو عثمان كل مادته البلاغية على فكرة ضرورة ربط المقال بالمقام وملاءمته لمقتضى الحال، إذ تختلف المقاييس البلاغية باختلاف المقامات؛ حيث تكتسب قيمتها بمدى ملاءمتها للسياق الذي ترد فيه ولمدى غايتها لأن النظرية البلاغية عند الجاحظ تنبني أساسا على الصواب وإحراز المنفعة، باعتبار الخلفية العقائدية التي ينطلق منها، والتصورات الفكرية التي تحركه. وعليه لما كان الخطاب عند أبي عثمان يقوم أساسا على المنفعة والنّجاعة احتلت نظرية المواضع والمقامات قطب الرحى في نظريته البلاغية.

ولعل أهم ما تولد عن هذه النظرية نسبية الأحكام الأسلوبية، فكانت عنده البلاغة بلاغات والفصاحة فصاحات، تبعا لمدى الملاءمة بين المقال والمقام، انطلاقا من مبدأ الاختيار والانتقاء حسب ما يقتضيه المقام ويستلزمه الحال، فبلاغة الخطابة مقام يستدعي أساليب معينة لتحقيق

الغرض والمنفعة، تختلف عن الأساليب التي يستلزمها مقام بلاغة الشعر أو بلاغة الكتابة،أو بلاغة الأراجيز.... وغيرها.

من هنا تتضح لنا رغبة الجاحظ عن تصنيف الوجوه البلاغية وضبطها في مقاييس، لأنها متحولة بتحول المقام.

وباستقراء وتتبع بسيط المادة البلاغية في "البيان والتبيين" نجد أن معاني البلاغة عند الجاحظ تدور أولا حول البلاغة الشفوية النثرية وخصوصا بلاغة الخطابة؛ فقد وقف كتابه على "الخطابة" وإذا عرض لغيرها ففي مقام الاستدلال والمقارنة، فلم يخص الشعر كفن مستقل إلا بصفحات قليلة إذ انطلق الجاحظ من البلاغة الخطابية ثم توسع في معناها حتى شمل مختلف فنون القول الأخرى.

يقول "**حمادي صمود**" بهذا الصدد: «يعتبر مقام الخطابة أبرز المقامات التي اعتنى بها صاحب البيان والتبيين، فهو محور تأليفه في البيان ومنطلق تصوراته لبلاغة النص»[1].

واهتمامه بمقام الخطابة يرجع إلى انه كان بصدد بناء نظرية بلاغية للخطاب الإقناعي الشفهي؛ إذ كانت الخطابة أبرز سلاح للمعتزلة في مناظراتهم باعتبار الجاحظ معتزلي يسعى إلى نشر مذهبه والإقناع بصحة مبادئه في خصم الصراعات المذهبية، التي كانت في عصره آنذاك.

إضافة إلى هذا، يعود سبب عنايته بهذا المقام إلى أنه في معرض دفاع عن العرب والبيان العربي الذي نزل القرآن الكريم بلغته، ضد الشعوبية التي حطت من قدر العرب وطعنت في بيانهم الذي بني عليه إعجاز قرآنهم.

و كما سبق القول، فهؤلاء لا يتقنون الخطابة التي تعتمد على البديهة والارتجال، لنقص فطنتهم وبلادة عقولهم، وأتقنوا الشعر لما فيه من الصنعة والتكلف، فرد عليهم بما ليس في مقدرتهم مفحما إياهم.

يقول "**حمادي صمود**" عن السبب الذي كان وراء احتفال الجاحظ ببلاغة الخطابة «فالجاحظ معتزلي، والاعتزال عقيدة (متحدّية) تتأسس على مبادئ سعى أصحابها في خضم الصراعات المذهبية القائمة آنذاك إلى نشرها والإقناع بصحتها أو الذود عنها، فوجدوا في الخطابة

---

[1]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص233.

بغيتهم، ووسيلتهم التي لا تضاهي بحكم كونها وظّفت منذ نشأتها لتأدية أغراض شبيهة بأغراضهم وهو من جهة أخرى، ملتزم بخط سياسي وثقافي أساسه الدفاع عن تفوق العرق العربي وموروثه الثقافي من طعنات الفئات المستعربة المتوثبة التي كانت لا تتورع من التشكيك في أعز مميزات العرب: قدرتهم البيانية التي بني عليها إعجازهم القرآني»[1].

إذن؛ هذا الالتزام العقائدي من جهة والسياسي الثقافي من جهة أخرى ، هو الذي دفع بالجاحظ إلى الاهتمام بمقام الخطابة دون غيره من المقامات بل وصل به هذا الاهتمام إلى المطابقة بين مدلول الخطابة ومدلول البلاغة وأساس هذه المطابقة كما سبق أن ذكرناه ربطه الحسن بالنّجاعة والمنفعة، فقد عرف عن أبو عثمان عن دراسة الكلام في ذاته بغض النظر عن هدفه والغاية منه. فغرض الخطابة ومقصدها هو النجاعة والتأثير في المتلقي وإقناعه وهذا لا يكون دون وسيلة تعبير جيدة.

إذن فارتباط الخطابة نشأة وتطورا بأغراض عقائدية وسياسية هو العامل الحاسم في لفت نظره إلى هذا المقام، واعتماده عليه في تحسس خصائص الفن القولي.

والرسم الموالي يوضح العلاقة بين كل من البيان، والبلاغة والخطابة عنده.

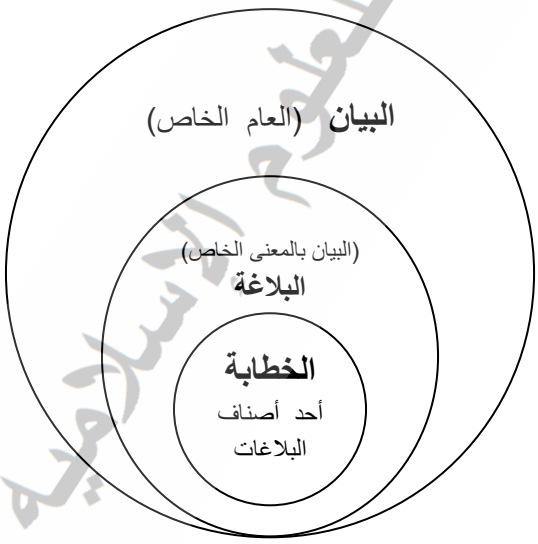

[1]-التفكير البلاغي عند العرب: حمادي صمود، ص233.

إذن؛ تندرج كل من البيان والبلاغة والخطابة عنده كلها ضمن دائرة الكلام الجيد الناجع باعتبار البلاغة عنده مهارة بيانية إقناعية مثّلتها الخطابة أحسن تمثيل.

يقول الجاحظ حول تنوع البلاغات باختلاف المقامات:

" ونحن – أبقاك الله – إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج ولا يزدوج، فمعنا العلم أن ذالك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذالك إلا في اليسير، والنبذ القليل " [1].

و في هذا المعنى،أورد الجاحظ قول "ابن المقفع"(ت143هـ) في تفسير البلاغة، وقد سئل عنها، يقول:

«البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل» [2].

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج3، ص29.

[2]-المصدر نفسه، ج1، ص115-116.

أولا: دائرة فن الصياغة التركيبية (المعاني):

لما كان الخطاب عند الجاحظ ينبني أساسا على المنفعة والنجاعة، ولا يمكن إحراز هذه المنفعة ولا تحقيق المقاصد المتوخاة، إلا بمراعاة المقام بكل عناصره، وبالتالي يجب على المتحدث التحلي بالمرونة التكيف المستمر مع تقلب سياقات النص، وتجدد مقتضيات مقام الكلام واختلاف مستلزمات الأحوال، وتنوع مقاصد المتكلم وغاياته.

من هنا «كانت مطابقة الكلام لمقتضى الحال» الأصل الأول الذي عليه انبنى علم المعاني عند الجاحظ، الذي بالرغم أنه لم يتطرق إليه بمعناه الاصطلاحي الذي استقر عليه عند المتأخرين إلا أنه بحث أهم موضوعاته خاصة أثناء حديثه عن مقام الخطابة، حيث أكد في غير موضع على وجوب مطابقة الكلام لما تتطلبه حال السامع، وما يقتضيه الموضوع وما يستدعيه الموقف، وألحّ كثيرا على ضرورة مخاطبة كل امرئ على قدر استعداده للفهم وقدره في السلم الاجتماعي وحظّه من العلم والمعرفة، فمثلا الذكي الفطن تكفيه الإشارة والإيجاز، بينما يحتاج المكابر والبليد إلى الإسهاب والإطناب ؛إذن فمقدار تحقق هذا الأصل الذي يعد قاعدة المعاني في الكلام يكون حظّه من البلاغة والإصابة.

ويعد الكلام طرفا مهما في بناء المرسلة اللسانية، والاجتماعية، مما يجعله مستوعبا لحركة المقاييس المعيارية[1].

ومن هنا وردت آراء أهل اللغة، والبيان مؤكدة هذا الحضور يقول "ابن خلدون": «كل معنى لابد أن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب أن نعبر عن تلك الأحوال في تأدية المقصود، لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع، وأما في اللسان العربي، فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تركيب الألفاظ وتأليفها من تقديم وتأخير أو حذف أو حركة إعراب، وقد يدل عليها بالحروف غير مستقلة، لذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة عن تلك الكيفيات، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل لفظا، وعبارة من جميع الألسن»[2].

---

[1]-**ينظر**:الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ،ط1 (1422ه ــ 2002م)، ص225 226. لمزيد من التفصيل.

[2]-المقدمة:ابن خلدون، ص345.

فابن خلدون في محتويات نصه، يؤكد على مقتضيات الأحوال، من حيث تمثلها لدرجات التشكيل اللساني، والصياغة الفنية لصور الكلام المنجز، وعلى أساس هذا الأصل الذي انبنت عليه نظرية المقامات والمواضع عند الجاحظ، أقام كل البلاغيين والنقاد الذين أتوا بعده "علم البيان" إذ نجد **السّكاكي (ت 626 هـ)** في كتابه "**مفتاح العلوم**"، يأتي بعد الجاحظ بأربعة قرون ويعرّف علم المعاني على أنه: «تتبع خواص الكلام في الإفادة،وما يتصل بها من الاستحسان، وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره» [1].

فهو أيضا يؤكد على ضرورة ربط المقال بالمقام الذي يقتضيه حتى تحدث الإفادة.

والأمر نفسه الذي دعا اليه الجاحظ في بيانه – كما سبق القول –.

أما "الخطيب القزويني" (ت 739هـ) في كتابه " الإيضاح في علوم البلاغة " فإنه يعرّف هذا العلم على أنه: «علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»[2].

فارتفاع قدر الكلام، في الحسن أو القبول أو النجاعة، يكون بمدى ملاءمته للاعتبار المناسب، وانحطاطه في ذلك يكون بعدم مطابقته لمقتضى الحال.

والأمر نفسه أيضا الذي فصله الجاحظ حول اختلاف مقامات الكلام باختلاف الأحوال وتباينها بتباين المناسبات، هو الذي نجده عند" **الخطيب القزويني**" الذي يقول: «ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ومقام القصر يباين مقام خلافه ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام...»[3].

إذن فعلم المعاني يدرس أحوال الكلام من حيث حركتها الفنية داخل السياقات الكلامية وما يقتضيه المقام لحدوثها، وممارستها الصياغية وأحوالها التعبيرية؛ إذ إن الكلام هو منطلق سعي الجاحظ في ضبط نواميس البيان وغايته.

---

[1]-مفتاح العلوم: السكاكي،دار الكتب العلمية، بيروت ،(د.ط)،(1937ه)، ص70.

[2]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني, اعتنى به: محمد فاضلي , دار الأبحاث، الجزائر , ط1(2007م)، ص23.

[3]-المرجع نفسه، ص16.

1- الخبر، الوصل والفصل:

1-1- الخبر:

اللغة في منظورها الإدراكي العام لا تخرج عن مستويين:

إما خبري أو إنشائي وهذان المستويان يتوفران في أوراق النحويين، وملفات دائـرة فـن الصياغة التركيبية، لكن مع بيان اختلاف في التوجه ن والبناء والوظيفة الفنية، حيث يخضـعهما النحوي لقواعد الإعراب ولمقتضى البناء، أما البلاغي فإنه يتناولهما فنيا صياغيا داخل محتوى نص لساني، تبينه بيانات قرائنية، وعلاقات أواصرية بين مركبات الوحدات الكلامية.

فقد قسم البلاغيون الكلام إلى خبر وإنشاء، وعرفوا الخبر بأنه ما يحتمل الصدق والكذب والإنشاء بأن ما ليس كذلك.

«وجرّهم استخدام الصدق والكذب في هذا التعريف إلى الخوض في معنى كل منهما، وهل الصدق مدلول الكلام للواقع الخارجي والكذب انتفاء هذه المطابقة؟ أو أن الصدق هو مطابقـة الخبر لاعتقاد المخبر ولو كان غير مطابق للواقع، والكذب فقدان هذه المطابقة»[1].

فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما (الصدق والكذب)، ثم اختلفوا فقال الأكثر منـهم صدقه مطابقة حممه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، هذا هو المشهور وعليه التعويل وقال بعضهم: صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ، وكذبه عدم مطابقة حكمـه له[2].

واحتج أصحاب هذا المذهب بوجهين:

أحدهما: أن من اعتقد أمرا فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع: «ما كذب ولكنه أخطأ كما روى عن عائشة -رضي الله عنها- قالت فيمن شأنه كذلك: "ما كذب ولكنه وهـم" وردّ بأن المنفي تعمد الكذب، لا الكذب، بدليل تكذيب الكافر – كاليهودي – إذا قـال الإسـلام باطل، وتصديقه إذا قال: الإسلام حق، فقولها "ما كذب" متأوّل بما كذب عمدا.

الثاني: قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [**المنافقون،01**].

---

(1)-البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم : شفيع السيد، دار الفكر العربي، القاهرة ، (د.ط) (د.ت.ط)، ص181.

(2)-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص25.

كذبهم في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [**المنافقون،01**]. وإن كان مطابقا للواقع؛ لأنهم لم يعتقدوه»[1].

وقد ردّ أصحاب الرأي الأول على ذلك بما يأتي:

1) أن المعنى " **نشهد** " شهادة وافقت فيها قلوبنا ألسنتنا كما يرشد إلى ذلك التأكيد (بأن) واللام والجملة الاسمية، في قولهم: "إنك لرسول الله". فالتكذيب راجع إلى الشهادة باعتبار تضمنها خبرا كاذبا وهو أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد.

2) أن التكذيب متجه إلى تسمية إخبارهم شهادة، لأن الإخبار إذا خلا عن المواطأة للاعتقاد لم يكن شهادة في الحقيقة.

3) أن المراد "لكاذبون" في قولهم " إنك لرسول الله "، في زعمهم واعتقادهم لا في الواقع لأنهم يعتقدون أنه غير مطابق للواقع، فيكون كذبا باعتبار اعتقادهم، وإن كان صادقا في الواقع والحقيقة فكأنه قيل أنهم يزعمون أنهم كاذبون في هذا الخبر الصادق [2].

إلا أن الجاحظ أنكر انحصار الخبر في هذين القسمين، وزعم أنه ثلاثة أقسام: «صادق وكاذب، وغير صادق ولا كاذب:

- فأما **الصادق** فهو المطابق للواقع، مع الاعتقاد أنه مطابق.
- وأما **الكاذب** فهو الذي لا يطابق الواقع، مع الاعتقاد بعدم مطابقته.
- وأما الخبر **الغير صادق وغير الكاذب** فإنه على أربعة أنواع:

01- الخبر المطابق للواقع مع اعتقاد أنه غير مطابق.

02- الخبر المطابق للواقع بلا اعتقاد أصلا.

03- الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد أنه مطابق.

04- الخبر غير المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلا »[3]

---

[1]-**ينظر**:الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص25. لمزيد من التفصيل.

[2]-**ينظر**:البحث البلاغي عند العرب:شفيع السيد،ص181 182.لمزيد من التفصيل.

[3]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل، ص235.

واحتج بقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ،08].

فإنهم حصروا دعوى النبي ﷺ، الرسالة في الافتراء والإخبار حال الجنون، بمعنى امتناع الخلو،وليس إخباره حال الجنون كذبا، لجعلهم الافتراء في مقابلته ولا صدقا، لأنهم لم يعتقدوا صدقه[1].

فثبت بهذا أن من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب.

ويظهر من هذا الكلام أن الجاحظ وغيره من المتكلمين والمعتزلة **كأبي إسحاق النظّام** كانوا من أوائل الذين تعرضوا لهذا البحث، الذي اعتمد عليه البلاغيون المتأخرون في تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، وما يتفرع عنهما من مباحث تتصل بالأغراض الحقيقية والمجازية.

إلا أن كل هذه المحاور تدور حول قطب جدلي من حيث الارتباط بالواقع، أو الاعتقاد. وكل ما ورد في هذا الملف يغلب عليه الطابع الذهني المحض، والتجريد والتصور العقلي والبناء المنطقي الاستدلالي، في التقسيم، والتصنيف، والحصر، وغلبة روح الفلسفة وعلم الكلام، وكلها تحاول الابتعاد عن التذوق الفني الجمالي عند المنشئ أو المتلقي.

وهكذا تحولت الدراسة الأسلوبية إلى ساحة للجدل العقلي الذي يبتعد عن جوهر الموضوع ولو وقف البلاغيون في تحديد معنى الخبر عند حد القول بأنه «ما لا يتوقف تحقق مدلوله على النطق به» لكفاهم ذلك [2].

وعلى هذا فالخبر كلام يجري في قناتين ويحتمل خارج حدود التركيب: الصدق والكذب.

وخرج من هذا، الأخبار المقطوع بصدقها وهي الصادرة عن الله تعالى، وعن رسله والبديهية مثل: السماء فوقنا، الماء سائل، الهواء غاز، الحقائق العلمية والكونية الأخرى.

كذلك الأخبار المقطوع بكذبها مثل: الجزء أكبر من الكل، الأرض ثابتة، كلام سجاح ومسيلمة، وغيره.

---

[1]-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص75.بتصرف.

[2]-البحث البلاغي عند العرب:شفيع السيد، ص182.بتصرف.

1-2-الفصل والوصل:

إن ظاهرة الفصل والوصل ضرورية لكل من المتكلم والمتلقي، ولابد لهما من معرفة أسرارهما قبل تعاطي مقامات البلغاء، وإدراك آلية عملها قبل الخوض في أي كلام من أجل بلوغ الناتج الدلالي المتميز «والوصل هو عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه»[1]، يقول عبد القاهر الجرجاني (**ت741هـ**):

«اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة ومما لا يتأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة وأتوا فنا من المعرفة، في ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: «معرفة الفصل من الوصل» ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معاني البلاغة»[2].

إذن تمييز موضع الفصل عن موضع الوصل على ما تقتضيه البلاغة، أمر عظيم الخطر صعب المسلك، دقيق المأخذ، لا يعرفه على وجهه الصحيح، ولا يحيط علما بكنهه إلا من أوتي فهم كلام العرب طبعا سليما، ورزق في إدراك أسراره ذوقا صحيحا، ولهذا قصر بعض البلاغين البلاغة على هذا الفن [3].

«وقد قال **أبو العباس(ت136هـ)** لكاتبه يوما: " قف عند مقاطع الكلام وحدوده، وإياك أن تخلط المرعى بالمهمل".

و أشار المتقدمون إلى الفصل والوصل، وكان "**أكثم بن صيفي**"(**ت 09هـ**) إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: "افصلوا بين كل معنى منقض، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه

---

[1]-الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، ص151.

[2]-دلائل الإعجاز:عبد القاهر الجرجاني, قرأه وعلق عليه:محمود محمد شاكر, مكتبة الخانجي, القاهرة ط5(2004م)، ص 222.

[3]-**يتظر**:الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، ص151.لمزيد من التفصيل.

ببعض"»[1].

وكان "**الحارث بن أبي شمر الغساني**" يقول لكاتبه "**المرقش**": «إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها،وملّته الأسماع،واستثقلته الرواة»[2].

وقد نقل الجاحظ على لسان الفارسي الذي سئل عن ماهية البلاغة تعريفه لها على أنها «معرفة الفصل من الوصل»[3].

وشاعت هذه المقولة ، وترددت في كتب البلاغين فيما بعد، «ولكن البلاغيين لا يريدون بها أن البلاغة تنحصر في الفصل والوصل، وإنما يريدون صعوبة هذا الموضوع وأن من أتقنه عرف مسلك البلاغة»[4].

يقول القزويني بهذا الصدد (قصر البلاغة على الفصل والوصل):

«وما قصرها عليه لأن الأمر كذلك، وإنما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه، وأن أحدا لا يكمل فيه إلا كمل في سائر فنونها، فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان»[5].

والجاحظ عندما تحدث عن هذا الفن لم يخصصه بالحديث، وإنما أشار إلى أسلوبه و لم يسمه، و لم يدخله ضمن علوم البلاغة، ولكن جعل العلم به من شروط الكلام الجيد المفيد باعتبار الكلام عنده ينبني أساسا على الحسن والمنفعة، فإن جهل المتكلم مواضع الفصل والوصل كان كلامه على غير ما أراد وبذلك تنتفي الفائدة المرجوة منه.

ومن جملة ما نقل الجاحظ عن هذا الفن، إضافة إلى تعريف الفارسي للبلاغة السابق الذي نقله، ما نقله عن أبي بكرﷺ، «فقد مرّ به رجل فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا عافاك الله، فقال

---

[1]-الصناعتين الكتابة والشعر :أبو هلال العسكري، تحقيق:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت ، (د.ط)، (1986)، ص497.

[2]-الصناعتين :أبو هلال العسكري ، ص440.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص88.

[4]-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص74.

[5]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص151.

أبو بكر: لقد علّمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله»[1].

فهذه من المواضع التي يجب الفصل فيها، لأنه إن وصل كما فعل الرجل لأوهم خلاف المقصود التي يرمي إليه السائل، ففي الأصل هو يريد الدعاء له، لكنه عندما أخطأ ووصل قام بالدعاء عليه، وطبعا شتان بين المعنيين، بل إنه وقع في عكس ما أراد، وبالتالي لا يصبح لكلامه أية فائدة تذكر.

وقد ظلت مثل هذه المقولات تتواتر على أقلام دارسي البلاغة، وتتكرر في كتبهم، يمثلون بها لفنون البلاغة، ويوضحون بها آراءهم ويقدمون بها دراستهم للمباحث البلاغية.

2-الإيجاز، الإطناب، والمساواة:

2-1- الإيجاز والإطناب:

رافق مبحث الإيجاز في المنظوم الشعري والنثري السليقة العربية، من أجل تحقيق أبنية فنية في الصناعة التعبيرية، تتميز بالكثافة، والتوازن والبعد عن الدلالية الضبابية الدلالية، لكي تكون سهلة المأخذ، قوية التأثير في ذات المتلقي، سريعة الانتشار على ساحة المقروء والمحفوظ.

«وقد سئل **أبو عمرو بن العلاء(ت154هـ)**: هل كانت العرب تطيل؟ فأجاب، نعم كانت تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها» [2].

ويقول **الخليل بن أحمد**: «يختصر الكتاب ليحفظ، ويبسط ليفهم »[3].

ويروي **أبو هلال العسكري(ت395هـ)** انه قيل لبعض من يقرض الشعر: «لم لا تطيل الشعر؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق» [4].

«وقد كان العرب يميلون إليه ويفضلونه على الكلام المسهب، حتى إن أكثم بن صيفي كان يعد الإيجاز هو البلاغة، وصحار بن عياش العبدي(**ت40هـ**) عرّفها لمعاوية كذلك. وحينما

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج5، ص126.

[2]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص359.

[3]-المرجع نفسه.

[4]-الصناعتين:أبو هلال العسكري، ص193.

سأله معاوية: «وما الإيجاز»، قال: «أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ»»[1].

و يقول الجاحظ: «قال لي ابن الأعرابي:قال لي المفضل بن محمد الضبي:قلت لأعرابي منا ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل.

وقال **ابن الأعرابي(ت231هـ)**: « فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندكم؟ قال: ترك الفضول وتقريب البعيد».

وقال: «قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات، فقال: اللهم عافنا وارزقنا.فقال له رجل لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن، فقال: نعوذ بالله من الإسهاب»[2].

وكان «**جعفر بن يحي** يقول لكتابه: «إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا»[3]، ويقول **ابن المقفع**: «.... والإيجاز هو البلاغة»» [4].

وقد اهتم الجاحظ بهذا الأسلوب اهتماما بالغا، وكان أول من اهتم به وبيّن مواضعه على اعتبار أن الكلام عند الجاحظ يبنى أساسا على المنفعة والنجاعة، وبالتالي تكون العبرة في صياغة الكلام بالمعنى والمقام وأحوال المستمعين النفسية. وفي كل ما نقله الجاحظ عن هذا الأسلوب يتضح أنه عماد البلاغة وأساسها.

إلا أن الجاحظ لا يعني بالإيجاز مجرد قصر الألفاظ وقلة كميتها وإنما أراد مساواتها الدقيقة للمعاني دون زيادة ولا نقصان ، يقول في هذا: « الإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لإغلاقه ولا يردد ولا يكتفي في الإفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو الخطل»[5].

«واضح أنه كما ينكر أن يكون الإيجاز بقصر الكلام، ينكر أن يكون الإطناب باتساع

---

[1]-**ينظر**:البيان والتبيين: الجاحظ،ج1،ص96.
الحيوان: الجاحظ، ج1، ص91.
[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص97.
[3]-المصدر نفسه، ص115.
[4]-المصدر نفسه،ص116.
[5]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص91.

القول من حيث هو، فقد يكون الاتساع فيه من باب الإيجاز، وقد يكون الكلام قصيرا ومع ذلك يكون مطنبا»[1].

لأن العبرة عند الجاحظ بالمقامات التي تستدعي الكلام والمواقف التي تقتضيه، على اعتبار أن أبا عثمان ينشد الملاءمة بين الكلام ومقتضى الحال، وما يحتاج كل مقام من المقال فليس الإيجاز كله بلاغة ولا الإطناب كله بلاغة، فما يحسن في موضع قد لا يحسن في غيره.

لهذا لاحظ الجاحظ أن الذكر الحكيم حين يتجه بخطابه إلى العرب والأعراب يجعل الكلام موجزا ويخرجه مخرج الوحي والإشارة مراعيا بذلك حالتهم، وفطنتهم، وسرعة البديهة لديهم فإذا عمد إلى مخاطبة اليهود أطال وأطنب، وجعل الكلام مبسوطا، مراعاة لبلادتهم وقلة فطنتهم وبطء فهمهم يقول في هذا الصدد: «وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل وللإقلال موضع وليس ذالك عن عجز... ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب أو الأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام» [2].

وقد أوضح الجاحظ هذا الفن في سياق حديثه عن بعض كلمات النبي ﷺ فقال: «وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزه من التكلف»[3].

فحسن الإفهام مع الإيجاز لا يتأتى لعامة الناس، إنما يخص الله به من يشاء. يقول الجاحظ «والذي يدلك على أن الله ﷻ قد خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني قوله ﷺ: «نصرت بالصّبا وأعطيت جوامع الكلم»»[4].

لما كان الكلام عند الجاحظ ينبني أساسا على المنفعة والنجاعة، فإنه دائم الحرص على ما تقتضيه المقامات التي يكون ضمنها كلامه، وما تستدعيه نفسية المستمعين، لهذا نجده يربط هذه الظاهرة الأسلوبية بنفسية السامع يقول في هذا الشأن: «إلا أني لا أشك على حال أن النفوس إذا

---

[1]-البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص48.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص93.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص16.

[4]-المصدر نفسه، ص28.

كانت إلى الطرائف أحنّ وبالنوادر أشغف، وإلى قصار الأحاديث أميل وبها أصبّ، إنها خليقة لاستثقال الكثير، وان استحقت تلك المعاني الكثيرة، وإن كان ذلك الطويل أنفع، وذلك الكثير أرد»[1].

فالجاحظ يهتم بالأحوال النفسية للمتلقين أكثر من أي أمر آخر، لأنه بمدى ملاءمة الحالة النفسية للمتلقي ومناسبته للمقام تكون الفائدة المرجوة، ويتحقق الغرض المطلوب.

ويقول أيضا في هذا الصدد: «وربما كان الإيجاز محمودا والإكثار مذموما، وربما رأيت الإكثار أحمد من الإيجاز، ولكل مذهب ووجه عند العاقل ولكل مقال مقام، ولكل كلام جواب مع أنم الإيجاز أسهل مراما وأيسر مطلبا من الإطناب، ومن قدر على الكثير كان على القليل أقدر والتقليل للتخفيف، والتطويل للتعريف، والتكرار للتوكيد، والإكثار للتشديد»[2].

إذن فليس الإيجاز كله محمودا ولا الإطناب كله مذموما، ولا العكس أيضا، فالعبرة دائما عند الجاحظ بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومدى ما يتركه ذلك الكلام من أثر في النفس وكما قال الجاحظ "لكل مقال مقام".

ويتوسع الجاحظ في الحديث عن الإيجاز والإطناب، ويتحدث عنه في سياق كلامه عن الترداد في القصص القرآني ومواعظ الوعاظ فنراه يقول: «وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يؤتي على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصص موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم عي غافل أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب، وأما أحاديث القصص والرقة فإني لم أرى أحدا يعيب ذلك. وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عيا»[3].

فالجاحظ قد ارتضى الإطناب في قصص القرآن مراعيا بذالك الحالات النفسية لكل المستمعين على اعتبار أن القران موجه لكافة الأمم على تباين مستوياتهم واختلاف جنسياتهم

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص08.

[2]-رسائل الجاحظ:الجاحظ،رسالة في البلاغة والإيجاز،ج4،ص152.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص105.

من عرب وعجم.

كما ارتضى الترداد والإطناب في الخطب دون الرسائل، على اعتبار أن الخطابة تعد جنسا أدبيا يعتمد على المواجهة والمشافهة، والخطيب يكون مضطر أكثر من غيره إلى إخضاع كلامه إخضاعا آنيا لما تقتضيه المقامات، إضافة إلى تباين طبقات المتلقين واختلاف درجاتهم العلمية فوجب عليه مراعاة الحالة النفسية لجل المستمعين، على خلاف ما تقتضيه الرسائل.

«وقد وقف في بيانه ينوه بجعفر بن يحي البرمكي وإيجازه في رسائله» [1].

يقول «... ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة»[2].

«ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي والإشارة قول **أبي داؤد الإيادي**:

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحي الملاحظ خيفة الرقباء**

فإنه مدح الإطالة في موضعها والحذف في موضعه»[3].

إذن فالمقام والسياق هما اللذان يوجهان بنية الإيجاز في النص.

و قد اقتفى **ابن قتيبة(ت276هـ)** منهج الجاحظ في مسألة الإيجاز والإطناب؛ حيث يقول «ولو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله في القرآن، و لم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام»[4].

وقد ذكر الجاحظ نوعا من الإيجاز هو في قمة البلاغة، تمثل في إيجازات القرآن يقول «ومن الكلام كلام يذهب السامع منه الى معاني أهله، وإلى قصد صاحبه كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ **[الحج،02]**.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾**[الأعلى،13]**

---

[1]-البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص48.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص106.

[3]-المصدر نفسه، ص155.

[4]-أدب الكاتب:أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد،دار التراث، القاهرة ،(د.ط) (1958)،ص15.

و قال أيضا: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ **[إبراهيم، 17]**

وسئل عن قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ **[مريم،62]**،فقال: ليس فيها بكرة ولا عشي»[1]. وذكر قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ **[البقرة،179]**، وقول بعض الحكماء «قتل البعض إحياء الجميع».

وهذه الآية الكريمة وتلك العبارة صارتا مثالا للموازنة بين قوله تعالى وكلام العرب «القتل أنفى للقتل»[2].

«فالإيجاز عند الجاحظ هو الإيجاز بالقصر، ويتضح ذلك في معظم ما ذكر من أمثلة ولكن قوله عن كلام الر سول ﷺ أكثر دلالة»[3] عندما قال: «هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه»[4]. وهذا يقترب كثيرا من تعريف البلاغيين لإيجاز القصر.

أما الإيجاز بالحذف فقد سماه حذفا، ولعله كان يشعر أنه هناك فرق بين المصطلحين وإن لم يصرح بذلك،ولكن استعماله للمصطلحين يدل على ذلك دلالة واضحة.

والحذف يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرنية تعيين المحذوف [5].

و قد عقد له الجاحظ أبوابا منها: «باب من الكلام المحذوف»[6].

أما عن الإطناب قول الأعرابي الذي أوردناه سابقا عن البلاغة عندما سئل عن البلاغة فأجاب بأنها «الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل»[7].

فقد تستدعي المقامات في بعض الأحيان الإطالة، وتصبح الحاجة إليها ماسة، حتى يحدث الإفهام ويتحقق الغرض،يقول الجاحظ:

---

(1)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص281.

(2)-**ينظر**:الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص182 183.لمزيد من التفصيل.

(3)-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص74.

(4)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص16.

(5)-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص79.

(6)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص278.

(7)-المصدر نفسه، ص97.

«وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة ووقف عند منتهى البغية»[1].

و قد قرن الجاحظ الإطالة بالإطناب، وقاس عليها الأسلوب، ونقل في ذلك قول "**شبيب بن شيبة**": «فإن ابتليت لا بد لك فيه من الإطالة، فقدم أحكام البلوغ في طلب السلامة من الخطل قبل التقدم في أحكام البلوغ في شريف التجويد، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئا، فإن قليلا كافيا خير من كثير غير شاف»[2].

إذن فالعبرة بالمقامات والحكم للحالات التي يكون الكلام موجها إليها.

و كعادة أبي عثمان في اعتماده على الشاهد والمثل، نجده يضرب لنا أمثلة عن مواطن الإطالة، انطلاقا من خبرته وتجاربه الشخصية و اعتمادا على الوقائع التي عايشها ؛حيث يقول «ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا، وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز»[3].

وكما مدحوا الإيجاز فإنهم عابوا الإكثار والإسهاب الفاضل وان كان صوابا، فقد أورد الجاحظ أنه قيل **لإياس**: «ما فيك عيب إلا كثرة الكلام» قال: «فتسمعون صوابا أو خطأ؟» قالوا: «لا بل صوابا» قال «فالزيادة من الخير خير».

ولكن «للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي عابه الحكماء لما في ذلك من التزيد والتكلف»[4].

و الإسهاب يختلف عن الإطناب، فالإطناب إطالة في الكلام يتطلبها المعنى، ويأتي لغرض التأكيد والتأثير، بينما الإسهاب إطالة الكلام لا يتطلبها المعنى، فهو فضول وزيادة وعليه فالإطناب بلاغة والإسهاب عي[5].

---

(1)-الحيوان: الجاحظ،ج6، ص07.

(2)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص112.

(3)-الحيوان: الجاحظ،ج1، ص92 93.

(4)-**ينظر**: البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص191،99، 201.لمزيد من التفصيل.

(5)-**ينظر**: المختصر في تاريخ البلاغة العربية: عبد القادر حسين، دار الشروق، القاهرة ، (د.ط)، (1982) ص90.

إذن الإيجاز والإطناب يحتاج إلى كليهما في الكلام، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مقامه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل أحدهما مكان الآخر حاد عن البلاغة.

2-2- المساواة:

عرفها **ابن سنان الخفاجي** بقوله: «أن يكون اللفظ مساويا للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه»[1].

«ويبدو أن المساواة في الصياغة التعبيرية للنص هي الأصل، حيث تجري على معيار الوضع اللساني للوحدة اللغوية» [2].

أي أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد، لا ناقصا عنه بحذف أو غيره، ولا زائد عليه، يقول الجاحظ: «وإنما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة»[3].

وممن كان يحسن المساواة في كلامه " **ثمامة بن أشرس**"(**ت 225 هـ**) الذي قال الجاحظ عنه: «فقد كان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك»[4].

---

[1]-سر الفصاحة:ابن سنان الخفاجي، ص243.

[2]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص355.

[3]-الحيوان: الجاحظ،ج6، ص08.

[4]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص111.

ثانيا: دائرة فن التشكيل التعبيري (علم البيان):

دارت البلاغة العربية القديمة في شواهدها وأدلتها حول محاور هذه الدائرة (التشبيه ، المجاز والكناية)، اعتمادا على ما قدمه رجالاتها من رصد لمعاييرها المنطقية، ورصد مناطق عملها في دائرة البيان العام.

ويعد الجاحظ – كما سبق القول – أول من فصل القول، وبسطه ووسع فيه دلالة البيان وقد سجل لنا خمسة دلالات على المعاني: اللفظ والإشارة والعقد والخط والنصبة[1].

ويعرفه "**القزويني**" بأنه: «علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[2].

ولعله يمكننا القول، إن البلاغيين بعد الجاحظ استنبطوا تعريف هذا العلم انطلاقا من تعريف الجاحظ للبيان الذي عرّفه بأنه كشف قناع المعنى بمختلف الوسائل التعبيرية بهدف إفهام السامع أو التأثير فيه.

والبيان في عصر الجاحظ وحتى زمن **عبد القاهر الجرجاني** يتعامل مع ثلاثية البلاغة (المعاني – البيان – البديع) مجتمعة لا فاصل بينها إلا السياقات الواردة فيها.

أما في منظور المتأخرين فأصبح إيصال المعنى إلى المتلقي بطرائق متعددة تبعا لاختلاف المقامات وتباين المستويات وتنوع الأهداف والمقاصد. كما نص على ذلك الجاحظ.

1-التشبيه والاستعارة:

1-1-التشبيه:

عرض الجاحظ للتشبيه في كتبه وبخاصة كتاب الحيوان، وحديثه عنه يأتي عن طريق الشاهد والمثل كعادته، إذ يقوم بعرض نماذج شتى من الشعر، ويعلق على هذه النماذج صراحة حينا وضمنا أحيانا أخرى، ومن خلال هذه التعليقات وضمن هذه السياقات يتضح أن الجاحظ كان

---

[1]-**ينظر**:البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص76.لمزيد من التفصيل.

[2]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني،ص211.

على علم بأركان التشبيه، ومواضع حسنه وقبحه، وقيمته البلاغية في الدلالة على المعنى.

وقد تواتر ذكر هذا الفن في مؤلفات الجاحظ، ولا عجب في ذلك،لأن هذا الفن من أكثر الفنون البيانية دورانا في الكلام، يقول المبرد: «والتشبيه جار كثيرا في الكلام أعني كلام العرب حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد»[1].

و لئن كان الباحث لا يقف في المتبقي من آثار أبي عثمان على تعريف لهذا الوجه، فإن كثرة المعطيات النظرية والتطبيقية كافية لتبين أهمية مساهمة الجاحظ في هذا الأسلوب، وإدراك عمق تأثيرها في نحت معالم هذا المبحث في التراث البلاغي العربي.

« بالرغم من أن الجاحظ لم يبحثه كما بحثه المتأخرون، فليس في كتبه تعريف أو تقسيم له وإنما هي الأمثلة التي تمر، فيشير إلى ما فيها من تشبيه يتصل بالحيوان أو النبات، ولذلك كانت إشاراته إليه في كتاب "الحيوان " أكثر، لاتصاله بالطبيعة ومظاهرها»[2].

فنراه يورد نماذج لما يشيع في الشعر العربي من أجناس المشبه به،وغير ذلك إذ يقول وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر، والشمس، والغيث والبحر، بالأسد والحية وبالنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان، وإذا ذموّا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار، وهو الثور والتيس، وهو الذيب، وهو العقرب، وهو الجمل وهو القرنبى ثم لا يدخلون الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء، وسموا الجارية غزالا، وسموها أيضا خشفا ومهرة (...).

وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب، فذكروا الأسد والثور والحمل والجدي والعقرب والحوت، وسموها بالقوس والسنبلة والميزان وغيرها (...)[3].

ومن التشبيهات التي ذكرها: تشبيه الفرس بالظليم، وتشبيه الغيوم بالنعام، وتشبيه مشي الشيخ بمشي الرئال، والتشبيه بالجرذان، والتشبيه بالعسل، والتشبيه بالكباش، وتشبيه مسامير الدرع بحدق الجراد، وتشبيه مشي المرأة بمشي القطاة، والتشبيه بالجنّ، وتشبيه كفّ المرأة والبنان

---

[1]-الكامل في اللغة والأدب: المبرد ، مؤسسة المعارف، بيروت ،(د.ط)،(د.ت.ط)،ج3،ص818.

[2]-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص79.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص212.

بشحمة الأرض[1].

وقد انتبه الجاحظ إلى أداة التشبيه من نحو الكاف وكأن، ومثل وأخواتها، كما أشـــار في بعض التشبيهات إلى وجه الشبه، ولزوم كونه أقوى في المشبه به منه في المشبه.

ومما يدل على التفاته لوجه الشبه ودقة فهمه له، تعليقه على قول **ذي الرمة(ت117هـــ)**:

وليل كجلباب العروس أدرعته * بأربعة والشخص في العين واحد**

فقد علق عليه بقوله: «فإنه ليس يريد لون الجلباب ولكنه يريد سبوغه»[2].

وتعليقه أيضا على قول **عروة بن الورد(ت 30ق. هـــ)**:

أليس ورائي أن أدب على العصا * فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي**

رهينة قعر البيـــت كل عشـــية * يطيف بي الولدان أهدج كالرأل**

حيث قال: «شبه هدجان الشيخ الضعيف في مشيته بهدجان الرأل»[3].

ووجه الشبه هنا الضعف والمشي من غير إرادة.

وأشار الى التشابه من وجوه، عند تعليقه على بيت **حسان بن ثابت**:

لعمرك إنّ إلّك في قريش * كإلّ السّقب من رأل النعام**

حيث قال: «وقد عاب عليه هذا البيت وظنوا أنه أراد التبعيد فذكر شيئين قد يتشابهان من وجوه، وحسّان لم يرد هذا، وإنما أراد ضعف نسبه في قريش، وأنه حين وجد أدنى نسب انتحل ذلك النسب»[4].

كما كان يوازي أحيانا بين التشبيهان،ومن ذلك موازنته بين قول النبي ﷺ الناس كلـــهم سواء كأسنان المشط "، وقول الشاعر:

---

[1]-**ينظر**:الحيوان: الجاحظ،ج1،ص211، 272 / ج3، ص310 / ج4، ص166، 350،338،334، 353، 366 ج5،ص259، 558،473،430، 561 / ج6، ص180، 348، 350، 360، 484.لمزيد من التفصيل.

[2]-المصدر نفسه، ج3، ص250.

[3]-المصدر نفسه، ج4، ص357.

[4]-المصدر نفسه، ص361.

سواء كأسنان الحمار فلا ترى * لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا**

إذ يقول: «وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي ﷺ وحقيقته عرفت فضل مابين الكلامين»[1].

كما كان أول من حدد بصورة صريحة علاقة المشبه بالمشبه به، وهي علاقة قياسية عقلية تقوم على مابين الطرفين من خصائص مشتركة، مع ضرورة الإبقاء على تباينهما أو انفصالهما إذ لا يجب أن يؤدي التشبيه إلى المطابقة، وتحويل الأطراف عن جنسها وإنما تقرب المشبه من المشبه به لأنه "المثل" في المعنى الذي قصدت.

يقول الجاحظ: «وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث والبحر،وبالأسد والسيف،وبالحية وبالنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان»[2].

ويقول أيضا: «...وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم،فصاروا في ذالك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع»[3].

إذن يمكن القول إنه حاول جهده إدراك الفارق الجوهري بين صورتين فنيتين، التشبيه من ناحية،و الاستعارة من ناحية أخرى، إذ تقوم هذه الأخيرة على انصهار الطرفين واتحادهما، وبذلك يمكن اعتبار الاستعارة تحولا من تحولات التشبيه، أو مرحلة متطورة من مراحله.

إضافة لهذا عرض الجاحظ الى تشبيه شيئين بشيئين وشاهده في ذلك بيت"**امرئ القيس**"(**ت80ق. هـ**)،وذكر استحسان البلاغين له.

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالي**

حيث شبه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين في بيت واحد [4].

وسوف يقتفي جل البالغين أثر الجاحظ من غير أن يذكروه، في الاستشهاد لهذا القسم من

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص19.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص211.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص139.

[4]-**ينظر**:الحيوان: الجاحظ، ج3، ص52 53. لمزيد من التفصيل.

التشبيه بهذا المثل، ويتبنون رأيه في الإعجاب به وإن اختلفت عباراتهم، فنرى " **ابن المعتز**" يجعله من " **حسن التشبيه** "و"**أبو هلال العسكري**" من"**بديع التشبيه** " و"**ابن رشيق القيرواني**" من " **البديع المخترع**".

أما **عبد القاهر الجرجاني** فسيجعله لبيان ما سماه تشبيه الشيء في حالتين مختلفتين.

ولا يقتصر تأثير الجاحظ في من بعده على هذا الجانب، فقد اقتفوا أثره في وصف "**عنترة**" للذباب:

فترى الذباب بها يغني وحده * هزجا كفعل الشارب المترنم**

غردا يحك ذراعه بذراعه * فعل المكب على الزناد الأجذم**

حيث اعتبره تشبيها مصيبا تاما تحامي معناه بجميع الشعراء فلم يعرض له أحد فيهم، وقد عرض له بعض الحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى، ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر [1].

وقد وجد **ابن رشيق** في القرن الخامس المصطلح الملائم لهذا من التشبيهات فسماها "**العقم**" وهي «ما لم يسبق أصحابها إليها، ولا تعدى أحد بعدهم عليها»[2].

وقد استعمل عبارة " التشبيه والقرابة " وكأنه أراد بذلك الصلة بين المشبه والمشبه به. قال «فالأصم في الحقيقة إنما هو الأخرس،والأخرس إنما سمي بذلك على التشبيه والقرابة»[3]

وربط المثل بالتشبيه كما ربطه بالمجاز، قال: «ومن المثل والتشبيه قول **أبي النجم (ت130هـ)**

وقام جني السنام الأميل * وامتهد الغارب فعل الدّمّل**» [4].

وربط التشبيه بالتمثيل فقال: «قد زعم ناس من أهل العلم أن السمك كله يلد، وأنهم سموا ذلك الحب بيضا على التشبيه والتمثيل»[5].

---

[1]-ينظر: الحيوان: الجاحظ، ج3، ص311 312.لمزيد من التفصيل.

[2]-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده:ابن رشيق القيرواني، ج1، ص296.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص52 53.

[4]-المصدر نفسه، ج6،ص156.

[5]-المصدر نفسه، ج7، ص127.

أي أنه حتى عصر الجاحظ لم تستقل هذه الفنون البلاغية بعد، وإنما جمعت كلها تحت فن واحد وهو التشبيه.

1-2-الاستعارة:

الاستعارة عند الجاحظ هي «تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[1]

ويعد الجاحظ من أوائل الذين عرفوا الاستعارة، وقد ورد ذلك في سياق تعليقه على قول الشاعر:

يا دار قــد غيّرها بلاهــا * كــأنما بقــلــم محــاهــا**

وطفقت سحابة تغشاها * تبكي على عراصها عيناها**

وقد قال الجاحظ معلقا: «و طفقت؛ يعني ظلت تبكي على عراصها عيناها.عيناها هاهنا للسحاب، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[2].

«ونظن ظنا أن تحليله لاستعارة هذا البيت وما يماثله هي التي جعلت البلاغيين فيما بعد ينظمون مثل هذه الاستعارة في باب الاستعارة التصريحية التبعية، إذا أجروا الاستعارة في القرينة أي في مثل: "تبكي" في البيت،و قد يجعلونها في باب الاستعارة المكنية، إذا أجروا الاستعارة في "السحابة"، على نحو ما هو معروف مشهور.

و كأن الجاحظ هو المسؤول عن إدخال مثل هذه الصورة في باب الاستعارة.و كان يحسن به أن يفردها عنها، لأن الشاعر حين يجعل السحابة تبكي لا يشبه ولا يستعير وإنما يشخص ويبث الحياة والمشاعر في عنصر من عناصر الطبيعة. وسنرى المتأخرين يضطربون إزاء هذه الاستعارة اضطرابا شديدا»[3].

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص152.

[2]-المصدر نفسه.

[3]-البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص54 55.

ثم يستطرد الجاحظ إلى بيان الاستعارة، بذكر أمثلة ترد فيها بعض الألفاظ مستعملة في غير ما وضعت له، فيقول « في قوله تعالى: ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة،56].

والعذاب لا يكون نزلا، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم، سمي باسمه. وقال الله ﷻ : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم،62].

و ليس في الجنة بكرة ولا عشي ولكن على مقدار البكر والعشيات»[1].

كما أورد في "الحيوان" في باب "ما يحتاج إلى معرفته" بعض الألفاظ أطلق عليها استعارة وذلك لما يلاحظ في الاستعمال من علاقة المشابهة بين المستعار منه والمستعار له[2].

كما ذكر أن الشعراء تستعير بعض الأسماء والآلات إذا احتاجت إلى إقامة الوزن[3]،أو إلى غير إقامة الوزن، كاستعارات الشعراء التي ذكرها الجاحظ في حيوانه[4].

إضافة إلى هذا؛ فقد ذكر بأن العرب تستعير الشيء وتنقله وتضعه في مواضع كثيرة، قال «و البياض والأوضاح تستعير ذكره العرب وتنقله في الأماكن» [5].

ثم قال: «وأصل البلق إنما هو في الفرس والعرب، تستعير ذلك وتضعه في مواضع كثيرة»[6].

«والجاحظ قد يستعمل عبارات: "على التشبيه"و" على الاشتقاق"و"على المثل"أو عبارات في معنى التشبيه والاشتقاق، قبل أو تعد أمثلة تشتمل على استعمالات مجازية،وهو يقصد بها الاستعارة على أساس أن الاستعارة مجاز لغوي علاقته المشابهة»[7].

ومن أمثلة ما يؤكد ذلك قول الجاحظ: «و الأنثى من ولد النعامة يقال لها: قلوص، على

---

(1)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص153.

(2)-**ينظر**: الحيوان: الجاحظ، ج2، ص280.

(3)-رسائل الجاحظ: الجاحظ، البغال، ج2، ص321.

(4)-**ينظر**: الحيوان: الجاحظ، ج2، ص280 283.

(5)-رسائل الجاحظ: الجاحظ،البرصان والعرجان والعميان والحولان، ج2، ص26 27.

(6)-المصدر نفسه.

(7)-في تاريخ البلاغة العربية:عبد العزيز عتيق،دار النهضة العربية، بيروت ،(د.ط)،(د.ت.ط)،ص100.

التشبيه بالنعام من الإبل»[1].

و يقول أيضا: «و الخرطوم في الأصل للفيل، ولكن خطم الكلب والذئب والخنزير يسمى خرطوما على التشبيه»[2].

و في حديث له عن "خبث الضب"، يقول الجاحظ:«و الضب إذا خدع في حجره وصف عند ذلك بالخبث والمكر، ولذلك قال الشاعر:

إنّا منينا بضب من بني جمح * يرى الخيانة مثل الماء بالعسل**

ولذلك شبهوا الحقد الكامن في القلب، الذي يسري ضرره وتدب عقاربة بالضب، فسموا ذلك الحقد ضبا»[3].

فالضب في البيت استعمل على سبيل الاستعارة لا التشبيه.

ومما يلفت النظر هنا أن تعليقه التحليلي على ما في المثال من استعارة يبدو شبيها بما سماه البلاغيون فيما بعد "اجراء الاستعارة "

إضافة إلى هذا نراه يشير إلى الاستعارة التمثيلية، ويدخلها في باب المجاز، وذلك إذ يقول " ويذكرون نارا أخرى، وهي على طريق الحقيقة، كقولهم في نار الحرب، قال **ابن ميادة(ت 146 هـ)**

يداه يد تنهل بالخير والنّدا * وأخرى شديد بالأعادي ضريرها**

وناراه: نار نار كل مدفع * وأخرى يصيب المجرمين سعيرها**[4]

إذن فالجاحظ ليس همه تحديد الوجوه البلاغية وتفصيلها وتقسيمها إنما همومه أكبر من هذا إضافة إلى أن هذه الأساليب البلاغية تختلف باختلاف المقامات، فما يعد بلاغة في موضع يعد عيا في آخر، والمجاز عنده هو توسع العرب في كلامها على اختلاف أنواعه.

لهذا لم يصنف أقسام المجاز وأفاض فيها الحديث في أبواب ذات صبغة عملية مجردة

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج4، ص359.

[2]-المصدر نفسه، ج2، ص212.

[3]-المصدر نفسه،ج6، ص65. بتصرف.

[4]-المصدر نفسه،ج5، ص133.

في الغالب من البعد النظري، تعين على دراسة الصورة دراسة تاريخية انطلاقا من الأمثلة التي يجمعها تحت نفس العنوان.

فالاستعارة مجاز علاقته المشابهة، كما تعد أيضا في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه. ويمكن القول إن الاستعارة لم تتبلور كصورة فنية ووظيفة إلا في وقت متأخر.

2- المجاز والكناية:

2-1- المجاز:

يعد **أبو عبيدة** من أوائل من أذاعوا هذا المصطلح واستعملوه، وكتابه " مجاز القرآن " أقدم مؤلف وصلنا بهذا العنوان. إلا أن مفهوم المجاز فيه لم يتمخض للدلالة على مفهومه الذي استقر عليه عند المتأخرين.

ويقول **ابن قتيبة** عن المجاز: «وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها: الاستعارة: والتمثيل، والقلب والتقديم،والتأخير، والحذف، والتكرار والإخفاء، والإظهار والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص بمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوم، مع أشياء كثيرة ستراها في "أبواب المجاز" إن شاء الله»[1].

وقد تطور هذا الأسلوب البلاغي أكثر على يد المعتزلة، لأن انتماءهم العقائدي يضطرهم إلى الاستفادة منه بل،وتعميق دراسته باعتباره مبحثا مكملا لعقيدتهم في باب التوحيد ومجازهم إلى التأويل كمنهج ينضبط به الآيات المشكلة في القرآن والمشتبهة في إطار أصولهم الاعتزالية.

إذ كان لابد لهم من حل يوفقون به بين احترام قداسة النص القرآني وبين مبادئهم التي قامت على " أدلة العقول "، فقالوا في اللغة بالظاهر والباطن وقسموا دلالتها مستويين مترابطين بحيث نستطيع أن ننتقل من مستوى إلى أخر حسب ما تمليه الضرورات[2].

---

[1]-تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة ط2 (1393هـ - 1973م)، ص20 21.

[2]-**ينظر**: التفكير البلاغي عند العرب:حمادي صمود، ص39-40. لمزيد من التفصيل.

إذن فالجاحظ باعتباره أحد أهم رؤوس المعتزلة قال بالمجاز واعتنى به وحمل عليه كل الآيات التي ينافي ظاهرها أصول الاعتزال وقولهم في صفات الله وتنزيهه، خاصة الآيات التي يمكن أن يفهم منها التشبيه،وإحلال الذات الإلهية في حيز زماني ومكاني. يقول الجاحظ «وقد علم الدهري أنا نعتقد أن لنا ربّا يخترع الأجسام اختراعا، وأنه حي لا بحياة، وعالم لا بعلم، وأنه شيء لا ينقسم وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق، وأن الأنبياء تحيي الموتى، وهذا كله عند الدهري مستنكر»[1].

وقد استمد الجاحظ شرعية القول بالمجاز من الممارسات العربية السابقة للغة، ومن اجتهادات علماء العرب المسلمين، وأقام على هذه الحجة النقلية واللغوية الصلبة، وانتهى إلى انه سمة اللغة العربية،وموطن افتخار العرب. يقول الجاحظ في هذا الصدد:

«وأما قوله عز وجل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ **[النحل،69]**.

فالعسل ليس بشراب وإنما هو شيء يحوّل بالماء شرابا أو بالماء نبيذا، فسماه كما ترى شرابا، إذ كان يجيء منه الشراب.

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم،وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم * رعيناه وإن كانوا غضابا**

فزعموا أنهم يرعون السماء وأن السماء تسقط.

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها ومن حمل اللغة على هذا المركب، لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا، وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم،وبه وبأشباهه اتسعت،وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيلا وضواحي كنانة وهؤلاء أصحاب العسل، والأعراب أعرف بكل صفحة سائلة، وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعن عليه من هذه الحجة؟»[2].

و المجاز من أهم وسائل التعبير، وقد جاءت به العرب على سبيل التوسع في الكلام، يقول «العرب تتوسع في كلامها، وبأي شيء تفاهم الناس فهو بيان، إلا أن بعضه أحسن

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج4، ص90.

[2]-المصدر نفسه، ص524 526.

من بعض»[1].

فالعبرة إذن بالمواضع والمقامات التي تعد أهم مقياس بلاغي عند الجاحظ، وعليها أقام أبو عثمان نظريته البلاغية، فالمجاز يحسن في موضع ولا يحسن في غيره بالضرورة؛ إنما العبرة بما تستدعيه المقامات،وقد نبه الجاحظ على أن للألفاظ في العربية دلالات أخرى غير الدلالات الأولى التي وضعتها لها العرب، يقول: «فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل، فإن نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك»[2].

إذن فقد أعطى الجاحظ هذا الأسلوب البلاغي أهمية كبيرة، والحقيقة عنده يعني استعمال اللفظ في غير ما وضع له؛ أي أن المجاز مقابل للحقيقة .

والجاحظ على طريقته في تناول المادة البلاغية لا يسوق الحديث فيها قصدا، إنما يوردها بقدر ما تستدعيه السياقات ويستطرد إليه استطرادا عند الكلام عن موضوعه الأساسي خدمة لذلك الموضوع،إضافة إلى أنه لا يجعلها في قوالب جامدة كما فعل البلاغيون المتأخرون، بل يسوقها في نماذج من بليغ القول نثرا وشعرا، مع شرح بعضها أحيانا والتعليق على بعضها أحيانا أخرى.

يقول عن الحقيقة والمجاز: «و تسموا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة»[3].

و يقال: «زعم أن أفكار الطبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة»[4].

ويقال: «فلاسم الجود موضوعان أحدهما حقيقة والآخر مجاز»[5].

ويقول أيضا:«ويذكرون نارا أخرى وهي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة كقولهم في نار الحرب، قال **ابن ميادة:**

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج5 ص287.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص153.

[3]-رسائل الجاحظ: الجاحظ، فصل ما بين العداوة والحسد، ج1، ص339.

[4]-المصدر نفسه، خلق القرآن، ج3، ص288.

[5]-البخلاء: الجاحظ ، تحقيق: طه الحاجري، مطبعة المعارف, مصر ،(د.ط) (1971م)، ص174.

يداه يد تنهل بالخير والندى * وأخرى شديد بالأعادي ضريرها**

وناراه: نار نار كل مدفـــع * وأخرى يصيب المجرمين سعيرها**

(...) ونار أخرى، وهي مذكورة على الحقيقة لا على المثل،وهي من أعظم مفاخر العرب وهي النار التي ترفع للسفر ولمن يلتمس القرى، فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر»[1].

ويقولون: «فلان يأكل الناس وإن لم يأكل من طعامهم شيئا»[2].

«فهذه من أقدم الإشارات إلى الحقيقة والمجاز والفرق بينهما، وليس في كتـــب البلاغـــة المتأخرة إلا الشرح والتفصيل، وتقسيم الحقيقة والمجاز إلى أنواعها المعروفة»[3].

و قد أجاز الجاحظ أن يضع الناس كلامهم حيث أحبوا إلا في المعاملات يقول «ولـــو أن رجلا قال:أكلت لحما، وإنما أكل رأسا، أو كبدا، أو سمكا، لم يكن كاذبا. وللناس أن يضـــعوا كلامهم حيث أحبوا، إذا كان لهم مجاز ؛إلا في المعاملات»[4].

«أي أن المجاز أسلوب أدبي أكثر منه أسلوبا علميا، وهذه التفاتة مبكرة إلى الفصل بين لغة العلم ولغة الأدب»[5].

و من أمثلة المجاز التي أوردها الجاحظ:

«ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه وهو حامل المزادة، فسميت المـــزادة باسم حامل المزادة، ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية»[6].

وهذا من المجاز الذي علاقته المجاورة.

و يقول: «والعقيقة دعوة على لحم الكبش الذي يعق عن الصبي، والعقيقة اسم للشعر نفسه والأشعار هي العقائق، وقولهم: عقوا عنه، أي: احلقوا عقيقته، ويقولون: عق عنه وعـــق عليـــه

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج5، ص133.

[2]-المصدر نفسه، ص27.

[3]-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص87.

[4]-الحيوان: الجاحظ، ج4، ص76.

[5]-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص87

[6]-الحيوان: الجاحظ، ج1، ص333.

فسمي الكبش لقرب الجوار وسبب الملتبس عقيقة، ثم سموا ذلك الطعام باسم الكبش»[1].

ومثال ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء،10].

وقوله أيضا: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة، 42].

قال الجاحظ:"وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل، وركبوا الدواب و لم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكل وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارًا﴾ [النساء،10] وهذا مجاز آخر»[2].

أما المجازات البعيدة فلا يحمل عليها إلا عند بعض الضرورة، وإن المجاز لا يقاس عليه ولذلك علّق الجاحظ على قوله ﷺ: «نعمة العمة لكم النخلة خلقت من فضلة لبن آدم » وقال «وهذا الكلام صحيح المعنى لايعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام وليس هذا مما يطرد لنا أن نقيسه وإنما نقدم على ما أقدموا، ونحجم عما أحجموا وننتهي إلى حيث انتهوا»[3].

وهذه من المسائل التي توقف عندها النقاد طويلا حينما تحدثوا على أنه المقابل للحقيقة وأنه من باب توسع العرب في كلامها، ويكون حسب ما تقتضيه المقامات وما تستدعيه الحالات فلا المجاز كله محمود ولا الحقيقة كلها مذمومة، كما يتضح منهجه في البحث البلاغي المعتمد على الشاهد والمثل والنماذج التي استعان بها من جاء بعده من البلاغين لبناء صرح البلاغة، ووضع التحديدات والتقسيمات لبعض الأساليب البيانية.

2-2-الكناية:

الكناية لون من ألوان التعبير البياني، وقد كثر استعمالها في كلام العرب، وكتاب الله تعالى، لهذا عنى بها البلاغيون وعرفوا لها مكانتها في الإيضاح والتأثير.

و هي «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ، كقولك: «فلان طويل

---

[1]-البخلاء: الجاحظ ، ص 215.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج5، ص25.

[3]-المصدر نفسه، ج1، ص212.

النجاد» أي طويل القامة...»[1].

فالكناية مقابلة للمصارحة، لهذا تحمل معنى "الستر" و"الصون" وقد ذكرها الجاحظ في كتبه بعدة صيغ فهي: الكنية والكناية يقول: «ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل وقالت أم عمرو، وذهبت أم حكيم، نعم دعاهم ذلك إلى التقدم في تلك الكنى وقد فسرنا ذلك كله في كتاب الأسماء والكنى والألقاب والأنباز»[2].

و يقول أيضا: " والرجل يكنى أبا كبشة "[3].

وقد عدد الفقهاء الأسباب التي يعدل فيها عن اللفظ الصريح إلى الكناية فجعلوها منها:

فطنة المخاطب كقوله تعالى: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص،22].فكنّى داود على لسان ملكين تعريضا، وترك اللفظ ؛باعتبار الكناية أبلغ في هذا المقام.

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [ص،23]. فكنّى بالمرأة عن النعجة، كعادة العرب أنها تكني بها عن المرأة.

ومنها تحسين اللفظ، كقوله تعالى: ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة،23]. فإن العرب كانت من عادتهم الكناية عن حرائر النساء باللؤلؤ والبيض وغيرها.

ومنها أيضا قصد البلاغة،كقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف،18] فإنه سبحانه كنى عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزين والتشاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني...وسواها من الأسباب[4].

وبناء عليه، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الجاحظ دائم الربط بين مادته البلاغية والسياقات الواردة فيها، لأن هذه المادة مما تستدعيه تلك المقامات إذ هو لا يريد الأسلوب في ذاته إنما يستطرد إليه استطرادا أثناء حديثه عن موضوع معين؛لأنه ليس بصدد تحديد وتصنيف الأساليب

---

[1]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص316.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص146.

[3]-الحيوان: الجاحظ، ج5، ص463.

[4]-**ينظر**: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة (د.ط)،(1957م)، ج2، ص301 309. لمزيد من التفصيل.

البلاغية؛ لأن همومه المذهبية خاصة، والقومية والإنسانية عامة أكبر من ذلك بكثير، يتضح لنا الدافع الذي أدى بالجاحظ أن يعرف هذا اللون من التعبير البياني في رسالة "العشق والنساء".

وانطلاقا من ربط الجاحظ بين تعريف الكناية والسياق الذي ورد فيه هذا التعريف يتضح لنا أن تقييم دور الجاحظ تقييمها دقيقا ومنصفا رهين الانتباه إلى هذا السياق وأمثاله، وهذا ما بعث الحيوية في البلاغة قبل أن تجمد. يقول الجاحظ في تعريف هذا الفن: «وقد يستعمل الناس الكناية وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون أن يظهر المعنى بألين اللفظ إما تنويها أو تفضيلا كما سموا المعزول عن ولايته مصروفا، والمنهزم عن عدوه منحازا نعم حتى سمّى بعضهم البخيل مقتصدا ومصلحا، وسمي عامل الخراج المتعدي بحق السلطان مستقصيا»[1].

إذن فقد «وردت الكناية عند الجاحظ بمعناها العام، وهو التعبير عن المعنى تلميحا لا تصريحا وإفصاحا، كلما اقتضى الحال ذلك»[2].

يقول الجاحظ عن هذا: «وقال بعض الهنود: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة. ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالظفر»[3].

إذن فليست الكناية كلها محمودة ولا الإفصاح كله مذموم، إنما العبرة عند الجاحظ كعادته بما تقتضيه المقامات، وما تستدعيه الحالات وما يجب لكل مقام من المقال، لأن مقياس الجودة عنده دوما هو الملاءمة، والمناسبة، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال،فإذا اقتضى الحال أن يكون التعبير عن المعنى بالوحي واللّمحة، كانت البلاغة في الأسلوب الكنائي والعدول عن اللفظ الصريح، أما إن اقتضى الحال أن يكون التعبير مباشرا باللفظ الصريح عن المراد كانت البلاغة في الأسلوب المباشر، واللفظ الصريح.ومما يؤكد ذلك ما أورده الجاحظ في معرض حديثه عن الخطابة والخطب حيث يورد بيتا في صفة خطباء "**إياد**" لأبي داؤد الإيادي، يقول:

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحي الملاحظ خيفة الرقباء**

ثم يعلق بقوله: «فذكر المبسوط في موضعه، والمحذوف في موضعه، والموجز والكناية

---

[1]-رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة العشق والنساء، ج3، ص140.

[2]-في تاريخ البلاغة العربية:عبد العزيز عتيق، ص106.

[3]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص88.

والوحي باللفظ ودلالة الإشارة»[1].

فهو يجعل الكناية كغيرها من الأساليب البلاغية الأخرى مثل الإيجاز والإطناب، لكل منها موضع تحسن فيه، ولا تحسن في غيره.

ويقول أيضا في معرض الكلام عن تناسب الألفاظ مع الأغراض:

«ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال»[2].

ومن المواضع التي تناسبها الكناية والتي ذكرها الجاحظ: الكناية عن الشيء الذي يستفحش ذكره هربا من الفحش، وحاجة للستر.

يقول: «ويقال لموضع الغائط الخلاء،والمذهب والمخرج والكنيف والحش والمرحاض والمرفق. وكل ذلك كناية واشتقاق. وهذا أيضا يدلك على شدة هربهم من الدناءة والفسولة والفحش والقذع»[3].

وقال: «وكانوا إذا أرادوا الكناية عن زنت وتكسبت بالزنا قالوا: قحبت أي سعلت كناية(...) وكذلك كان كنايتهم عن انكشاف عورة الرجل يقال:كشف علينا متاعه وعورته وشواره»[4].

و قال: «وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت،21].

قالوا: الجلود كناية عن الفروج، كأنه كان لا يرى كلام الجلد من أعجب العجب. وقالوا في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة،75]. أنّ هذا إنما كناية عن الغائط»[5]

إذن «فالكناية عند الجاحظ ينبغي أن توضع في مكانها الذي يقتضيها، فكثيرا من الأحيان

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص44.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص39.

[3]-المصدر نفسه، ج5، ص295.

[4]-المصدر نفسه، ج1، ص334.

[5]-المصدر نفسه.

لا يصح الكلام إلا بها»[1].

يقول الجاحظ: «ربّ كناية تربي على إفصاح»[2].

ويقول أيضا: «وربما كانت الكناية أبلغ في التعظيم وأدعى إلى التقديم»[3].

إلا أن هناك مقامات تستدعي الإفصاح ، وتحتاج اللفظ المباشر، فإن استعملنا الكناية لم تتناسب مع تلك المقامات وتخل بالبلاغة، ولا تحصل النجاعة التي يرمي إليه المتكلم والتي بنى عليها الجاحظ نظريته البلاغية.

يقول: «إن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف»[4].

«فالكناية عند الجاحظ كما نرى هنا معدودة من الأساليب البلاغية التي قد يتطلبها المعنى للتعبير عنه ولا يجود إلا فيها، وأن العدول عنها إلى صريح اللفظ في المواطن التي تتطلبها أمر مخل بالبلاغة»[5].

وهما أورده الجاحظ من معان عبر عنها بصريح اللفظ في حين كان المقام يقتضي التعبير بالكناية، كالذي أراد أن يعبر عن سوء حال أصحاب الكهف وبشاعة منظرهم فتورط في وصفهم وصفا صريحا زاعما أنه دخل عليهم فعرف عددهم،وكانت عليهم ثياب سبنية وكلهم ممعط. ثم يعقب على ذلك بإيراد وصف القرآن الكريم لأصحاب الكهف في أسلوب كنائي بلغ غاية الروعة والإعجاز،وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [**الكهف، 18**]»[6].

وقد قرن الجاحظ الكناية بالتعريض كما سبق في الأمثلة السابقة، إذ أحيانا يجعلهما مترادفان، وأحيانا أخرى يجعل التعريض نقيض الإفصاح. كما قرنه أيضا بالإشارة،كما في حديثه السابق عن خطباء "**إياد**" وذكر مواضعها وأسباب العدول عن الإفصاح إلى الإشارة.

---

(1)-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص98.

(2)-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص39.

(3)-رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة في نفي التشبيه، ج1، ص307.

(4)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص117.

(5)-في تاريخ البلاغة العربية:عبد العزيز عتيق، ص107.

(6)-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص44.

ويمكن القول إن التعريض والإشارة من أقسام الكناية التي قسمها البلاغيون المتأخرون فيما بعد،إلا أنهم لم يخرجوا عما قرره الجاحظ وغيره من القدماء.

وخلاصة القول إن من يتتبع الجاحظ فيما قاله عن الأسلوب الكنائي وفيما أورده له من أمثلة يتضح له أنه استعمله استعمالا عاما يشمل جميع أضرب المجاز والتشبيه والاستعارة والتعريض،دون أن يفرق بينها وبين أي من هذه الأساليب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: دائرة فن الجماليات البنائية:

كان فكر الجاحظ يؤلف بين رافدين كبيرين في دراسة الكلام هما الرافد الخطابي والرافد الشعري، ويقرب في مقاييسه بين ما يجري على النص وما يجري على الخطاب وينتبه إلى الملفوظ انتباهه إلى ظروف تلفظه.

والرافد الشعري يقوم أساسا على نوع من الانحراف عما هو عادي أو مألوف، مما يكسب المادة اللغوية فعالية تكسر سكونية البناء النحوي والدلالي في نسقه الثابت ونظامه الرتيب ودلالته الحرفية، وذلك باستغلال إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة فلا يستعمل المعنى كما هو بل يستعير ويشبه ويبدل حتى يجمل إلى الدلالة حسن التخيل فالشاعر بحسه المرهق وذوقه الجمالي يستطيع أن يستثمر المنابع الفنية في اللغة معتمدا في ذلك على علاقات توفر لعناصر فئة الانسجام والتآلف.

إلا أننا حين نتحدث مع الجاحظ على مفهوم البيان كنظرية بلاغية للخطاب الشفوي ونغضّ الطرف على الشعر باعتباره كيانا مستقلا عن الخطابة لا نحس بأية مغامرة لأن البلاغة في "البيان والتبيين" هي البلاغة الشفوية أو البلاغة الخطابية فلم يكد يهتم بالبلاغة الشعرية إلا في مقام الاستدلال والمقارنة.

ذلك أن معركة القدماء والمحدثين، ومعركة الإبداع والإتباع كانت على أشدها وهي معركة تتوجه مباشرة إلى البنيات اللغوية الشعرية مثل التجنيس والاستعارة والتطبيق وما شاكل ذلك الصور التي دعاها المحدثون بديعا، فالمسألة مسألة اختيار ناتج عن انتماء إن معركة الجاحظ لم تكن فنية بين شاعر قديم وشاعر حديث، وليست همومه في حدود الفرق بين استعارة الشاعر الجاهلي واستعارة الشاعر العباسي.

إن معركة البيان كانت معركة فكرية حضارية، والخطابة كانت دائما ملتبسة بالسياسة والعدالة ففي الوقت الذي كان الجاحظ مشغولا بتجميع الأمثلة والحكم والخطب الجيد من أجل تكوين الخطيب المقتدر في معركة الحجاج التي يخوضها مع المعتزلة، كان الشعراء والنقاد يجمعون الصور البلاغية وينتخبون الأمثلة من القديم والحديث للاحتجاج بها في معركتهم الأدبية، ومن هنا افترق المنشآن: منشأ البيان ومنشأ البديع[1].

---

[1]-**ينظر**: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها:محمد العمري،ص205. لمزيد من التفصيل.

و قد سبق للجاحظ أن عرف الشعر بأنه «صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[1].

أي أن الشعر ينبني أساسا على التخييل، عكس الخطابة التي تقوم على الوضوح.

«والبديع في عرف العصر الأول كل شيء مستظرف في الكلام، من الاستعارة وتشبيه وكناية وتمثيل وسجع وجناس وتقسيم وطباق، وهو ما قسمه المتأخرون إلى بيان وبديع»[2].

إذن فالبديع كان يطلق على كل ما فيه طرافة وجمال، وهو أيضا المخترع والمبتدع فالاختراع هو خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإبداع هو الإتقان بالمعنى المستظرف والتي لم تجر العادة بمثله ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع.

و قد اطرد استعمال مصطلح البديع عند الجاحظ في معنى حديثه عن المولدين وموقفه منهم ويؤكد على أنه مصطلح عربي الأرومة، وهذا النوع من الفن الجميل الخلاب مقصور على العرب ولهذا فاقت لغتهم كل لغات الدنيا ؛ كل هذا بسبب عصبيته للعرق العربي ودفاعه عن البيان العربي ورده على الشعوبية التي حطت من قدر العرب وطعنت في البيان العربي الذي يقوم عليه القرآن الكريم، وبالرغم من أن الجاحظ يأخذ كل احتياطاته ويحرص على أن ينأى بنفسه عن شرور عصبيته إلا أنها تأبى إلا أن تظهر علينا.

يقول: «قال **الأشهب بن رميلة(ت 86 هـ)**:

إن الألى حانت بفلج دماؤهم ** هم القوم كل القوم يا أم خالد

هم ساعد الدهر الذي يتقى به ** وما خير كف لا تنوء بساعد

أسود شرى لاقت أسود خفية ** تساقوا على حرد دماء الأساود

قوله: " هم ساعد الدهر " إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع.

و قد قال الراعي:

هم كاهل الدهر الذي يتقى به * ومنكبه إن كان للدهر منكب**

---

[1]-الحيوان: الجاحظ، ج3، ص131 132.

[2]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص68.

و قد جاء في الحديث: «موسى الله أحد، وساعد الله أشد».

و البديع مقصور على العـــرب، ومن أجلـــه فاقت لغتهـــم، وأربت على كل لســـان، والراعـــي

كثير البديع في شعره، ويشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البـــديع مـــذهب بشار»[1].

يقول الجاحظ عن بعض أسرار صناعة التصوير الشعري عند الشعراء:

«وأنشدنا أصحابنا عن بعض الأعراب، وشعرائهم أنه قال في أمه:

فما أم الردين – وإن أدلت – ** بعالمة بأخلاق الكرام

إذا الشيطان قصع في قـــفاها ** تنقفناه بالحبل التؤام.

يقول: إذا دخل الشيطان في قاصعها قفاها، تنقفناه أي: أخرجناه من النافقاء بالحبل المثنى و قد مثل، وقد أحسن في نعت الشعر، وإن لم يكن قد أحسن في العقوق»[2].

«وهكذا فقد سمى هذا الشعر الحسن "مثلا" أي شعر جيد يشتهر بين الناس وأما من الناحية الأخرى، فإن هذا الشعر يقوم جمال التصوير فيه على التمثيل، لأن الشاعر يختار الصورة الغنيـــة يستعين بها على رسم فكرة مجردة يصعب شرحها دون تصوير، فإذا كانت الصورة مرسومة بيد فنان مبدع أدهشتنا، واستولت على قلوبنا، حتى ننسى أنها تتعارض مع الأخلاق كما حـــدث في هذه الصورة الجملية التي أنستنا عقوق الابن لأمه»[3].

إن هذه الصورة البيانية الغنية بنواحي الجمال، هي ما نسميه اليوم "الاســـتعارة التمثيليـــة" تترك للقارئ الفرصة حتى يطلق العنان لخياله ويتذوق النص من الناحية التي تلائم ميوله النفسية.

إذن فالبديع عنده يقصد به "التمثيل" والتصوير،وتندرج تحته مختلف المجـــازات والصـــور البيانية والمحسنات.

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص55 56.

[2]-الحيوان: الجاحظ، ج6، ص396 397.

[3]-**ينظر**:نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي:محمد عبد المغني المصري، ص121.لمزيد من التفصيل.

و قد أشار الجاحظ إلى البدايات الأولى لهذا الفن عند العرب منذ العصر الجاهلي في أيام "**عمرو بن كلثوم**"(**ت39ق.هـ**) ، فذكر أبياتا للشاعر الجاهلي: "حجر بن خالد بن مرثد"، كما تابع مدرسة البديع في المخضرمين "**كحسان بن ثابت**"، وفي العصر الأموي رأى الجاحظ بديعات في شعر "زفر بن الحارث الكلابي" و"**الراعي**"،الذي بدأت معه تتوضح ملامح هذا الفن؛ لجمال التصوير في شعره، وإكثاره منه حتى عده المؤسس الأول لمدرسة البديع في الشعر العربي،يليه"**بشار بن برد**" فتلميذه " **العتابي** "، «و يرجع إعجاب الجاحظ به إلى جمال التصوير لدى العتابي وإلى إبداعه في اختيار الصور الفنية بجوانب الجمال من ناحية، وإلى غنى جوانب الإبداع الفني لديه، فهو خطيب، شاعر، مترسل، مع بيان حسن»[1].

إذن مع العظمة السياسية والنهضة الحضارية، والتقدم الفكري الذي شهده العصر العباسي، ترقت الفنون جميعا، وقد كان للفن القولي نصيبه من النهوض، واتجه أيضا الشعراء المولدين إلى الاختراع والإبداع".

«وكان ذلك بأن نظر الشعراء ونقاد المتأدبين منهم إلى محاسن الكلام وأوجه جماله يلتمسونها في النثر والشعر، ليستكثروا منها في أشعارهم، وسموها البديع»[2].

فالبديع هو «فن يتعامل مع الدلالات الأسلوبية، خارج الحدود التقريرية النمطية، باعتبار أنه كل ما جاء مستحدثا، ومنسوجا على نيل الإثارة والغرابة والجمال»[3].

أما ابن المعتز فيقول عنه: «البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة، والشعر القديم، فلا يعرفون هذا الاسم، ولا يدرون ما هو..»[4].

إذن فالفنون البديعية، طرائق صياغية، على هيئات فنية مخصوصة وفي هذا يقول الخطيب القزويني: «البديع هو اسم يعرف به، وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقية مقتضى الحال ووضوح الدلالة»[5].

---

[1]-نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي:محمد عبد المغني المصري، ص 124.

[2]-**ينظر**: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده:ابن رشيق القيرواني، ج1، ص175.لمزيد من التفصيل.

[3]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص515.

[4]-كتاب البديع: ابن المعتز ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت ، (د.ط)، (1990م) ص05.

[5]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص335.

1-المحسنات المعنوية:

1-1-التورية:

تفتح التورية باب التأويل على مصراعيه، بحيث تسمح للتعددية الدلالية أن تمارس نشاطها داخل بني التراكيب بشكل واسع بعيد عن المواضعة. وتسمي الإبهام والتوجيه والتغيير والمغالطة.

و هي: «أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، ويراد به البعيد بينهما»[1].

«وتعد التورية من أكثر الفنون البديعية شهرة خاصة في ميدان الرمز بين رواد الأدب الكلاسيكي والحداثيين»[2].

فالتورية تؤكد على فطنة المتكلم وذكائه، وخاصة في العصر الذي عاش فيه الجاحظ ؛ أين كان الصمت على الظلم والرضا بقرارات السلطان وعدم الاعتراض عليها ولا الإدلاء بالرأي أمرا لا بد منه تحفظا من الأذى واتقاء للشر، لذلك عدّ هذا الأسلوب مخرجا وسطا يسمح للناس،بالإدلاء بآرائهم وذلك بأن يذكر المتكلم لفظا يحتمل معنيين، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، ويوري عنه بالقريب، فيتوهم السامع لأول وهلة أنه يريد القريب في حين أنه يريد البعيد.

و قد تطرق الجاحظ إلى هذا اللون البديعي بمعناه اللغوي، وذلك سياق قوله: «وإنما سمى الله عز وجل – الكافر في باطنه الموارى بالإيمان والمستتر بخلاف ما يسر بالمنافق على النافقاء والقاصعاء، وعلى تدبير اليربوع في التورية بشيء عن شيء»[3].

و قال أيضا: «وإلى حيائه عن التعريض وإلى فطنته عند الرشق والتورية»[4].

فالملاحظ في هذين السياقين أن الجاحظ استعمل التورية بمعناه الاصطلاحي الذي استقر عن البلاغيين المتأخرين، وإن كان يكتنفه بعض الغموض، وليس واضح المعالم تمام الوضوح،لأن أسلوب التورية لم يكن شائعا في ذلك العهد وإنما أصبح من سمات الأدب بعد القرن السادس الهجري.

---

(1)-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص350.

(2)-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص538.

(3)-الحيوان: الجاحظ، ج5، ص280.

(4)-رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ج1، ص237.

1-2-اللغز في الجواب:

وقف الجاحظ عند طائفة من اللغز في الجواب الذي أدخله **ابن المعتز** في "**التعريض والكناية**"[1]. وسماه بعض أهل البلاغة، منهم **الخطيب القزويني**" "**القول بالموجب**"[2]. وسماه **السكاكي** " **أسلوب الحكيم** "[3]. وهو يعني «إجابة المتلقي بما لا يقصده»[4].

«فهي بنية تقوم على أسلوب صياغي يعتمد في السياق على "المحاورة"، وتؤسس بنيتها على أساس مخالفة مقتضى الظاهر بواسطة بدائل البث التلقائي، التي يعتمدها المنشئ ذات الدرجات اللونية المتقاربة، والمخالفة في هذه البنية تؤدي إلى ناتج دلالي يدور في منطقة العمق، ويكمل دورته مارا بمنطقة السطح»[5].

إذن فاللغز في الجواب هو أن يتلقى المخاطب بغير ما كان يترقب، إما بترك السؤال الذي طرحه، أو بالإجابة عن السؤال آخر لم يطرحه، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنه ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى[6].

من أمثلته: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة، 189]

فالسؤال هنا عن حقيقة الأهلة: لما تبدو صغيرة ثم تزداد حتى يتكامل نورها ثم تتضاءل حتى لا ترى؟

لكن عندما كانت هذه المسألة من مسائل علم الفلك، وفهما في ذلك العهد يحتاج إلى دراسة معقدة،لا يمكن أن يستوعبها عقل العربي الذي تعود البساطة، فإن القرآن عدل عن الإجابة عنها إلى بيان أن الأهلة وسائل تحدد للناس المواقيت في العبادات والمعاملات[7].

---

[1]-كتاب البديع: ابن المعتز ، ص65.

[2]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص374.

[3]-مفتاح العلوم: السكاكي، ص 155.

[4]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص560.

[5]-المرجع نفسه.

[6]-**ينظر**: في تاريخ البلاغة العربية:عبد العزيز عتيق، 122، لمزيد من التفصيل.

[7]-**ينظر**:المرجع نفسه ، لمزيد من التفصيل.

و في هذا إشارة إلى ما كان ينبغي أن يسأل عنه، ألا وهو فائدة هذه الأهلة لا حقيقتها إلى أن تتيسر لهم الحقائق العلمية التي تعينهم على فهم مثل هذه الظواهر الفلكية.

و قد أورد الجاحظ له العديد من الأمثلة والشواهد في الباب الذي عقد له حتى يوضح هذا اللون من ذلك قوله:

«قالو: كان الحطيئة يرعى غنما له، وفي يده عصا، فمر به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟ قال: عجراء من سلم، يعني عصاه، قال: إني ضيف، فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها»[1].

«وقال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القرآن؟ قال أمتفرقا كان فأجمعه؟ قال: أتقرؤه ظاهرا؟ قال: بل أقرؤه وأنا أنظر إليه ، قال: أفتحفظه؟ قال: أفخشيت فراره فأحفظه؟ فقال: ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: لعنه الله ولعنك معه، قال: إنك مقتول فكيف تلقى الله؟ قال: ألقى الله بعملي وتلقاه أنت بدمي»[2].

«وسأل رجل بلالا مولى أبي بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلبة، فقال له: من سبق؟ قال: سبق المقربون، قال: إنما أسألك عن الخيل، فقال: وأنا أجيبك عن الخير فترك بلال جواب لفظه إلى خبر هو أنفع له»[3].

وما قبيل ذلك ما أورده الجاحظ في "باب الموسوسين والجفاة والأغبياء"، وهو قوله: «وقدم آخر على صاحب له من فارس، فقال: قد كنت عند الأمير فأي شيء ولاّك؟ قال: ولاّني قفاه»[4].

إضافة إلى هذا ذكر أبو عثمان بعض الأشعار في اللغز، من ذلك أكل أولاد العقرب بطن الأم، من ذلك قول الشاعر:

وحاملة لا يكمل الدهر حملها ** تموت ويبقى حملها حين تعطب[5]

من خلال الشواهد السابقة يتضح لنا أن العرب استعملت هذا اللون البديعي لأغراض

---

(1)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص147.

(2)-المصدر نفسه، ص148.

(3)-المصدر نفسه، ص282.

(4)-المصدر نفسه ، ج4، ص06.

(5)-الحيوان: الجاحظ، ج5، ص358.

مختلفة في كلامها، كالظرف، أو التخلص من حرج السؤال،أو الإعراض عن الإجابة أو تقديم الأهم من السؤال الذي سئل،أو لإخفاء أمر ما وستره أو التهكم، وقد فطن الجاحظ إلى هذا اللون وأهميته في الكلام، خاصة في معركته المذهبية التي تحتاج إلى استخدام مختلف الأساليب التعبيرية الممكنة.

و ما من شك أن ما قدمه الجاحظ في هذا اللون أفاد البلاغيين من بعده وبنوا عليه واتخذوه أساسا للونين من البديع هما: اللغز، وأسلوب الحكيم.

1-3-المذهب الكلامي:

«هو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام»[1].

أو هو «أن يدل المنشئ على نصه بأدلة تثبيت جدواها، وصحة متجهها ويقوم على المنطق الصوري الآتي: «التسليم بالمقدمات يستلزم التسليم بالمطلوب»[2].

و تنهض جمالية هذا اللون الأسلوبي، على التسلسل المنطقي لمقتضيات الإدعاء التي يعرضها الدليل، حيث تكون بيد المنشئ قوة يستخدمها في بناء أسلوبه التأثيري في فضاء الملتقى، فهو إذن بناء يقوم على ثنائية التخيل والإقناع»[3].

وقد عده ابن المعتز أحد فنون البديع الخمسة الأساسية التي بنى عليها كتابه ونسبه إلى الجاحظ، يقول في هذا «وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي،و هذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئا، وهو ينسب إلى التكلف، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا»[4].

و لكن **ابن المعتز** لم يذكر مفهوم الجاحظ لهذا الفن، و لم يحدده،فكل ما قام به أنه ذكر بعض الأمثلة التي توضحه.

إضافة إلى أنه ليس في مؤلفات الجاحظ المعروفة التي بين أيدينا إشارة إلى المذهب الكلامي

---

[1]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص362.

[2]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص556.

[3]-**ينظر**:المرجع نفسه. لمزيد من التفصيل.

[4]-كتاب البديع: ابن المعتز ، ص53.

ولا ذكر لاسمه الذي أورده ابن المعتز ونسبه إليه.

و من الأمثلة التي أوردها ابن المعتز «هن هذا الفن:

قول **الفرزدق(ت 110 هـ)**:

لكل إمرئ نفسان: نفس كـريمة ** وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفع للندى ** إذا قلّ من أحرار شفيعها

و قال "إبراهيم بن المهدي " يعتذر للمأمون من وثوبه على الخلافة:

البرّ منك وطاء الغدر عندك لي ** فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم

وقام علمـك بي وعنـدك لي ** مقام شاهد عدل غير متهـم[1]

فإذا تأملنا كل مثال من المثالين وجدنا الشاعر يدعي دعوى، ثم يحاول التماس دليل مقنع عليها، كما يفعل المتكلمون بإيراد الحجج العقلية القاطعة على آرائهم.

إذن فاهتمام الجاحظ بهذا الفن يرجع إلى أصوله المذهبية وخلفيته الاعتزالية ومرجعيته الكلامية في المناظرة والاحتجاج لإثبات صحة مذهبهم ونشر آرائهم، وعليه فالجاحظ ومثله ابن المعتز الذي تبعه في هذا الفن يريدان به «اصطناع مذهب المتكلمين العقلي في الاحتجاج والجدل والتماس العلل، وذلك بأن يأتي البليغ عن صحة دعواه بحجة قاطعة أيا كان نوعها»[2].

و مما يؤيد ذلك قول الجاحظ: «لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى.. وللعقل في خلال ذلك مجال، وللرأي تقلب وتنشر للخواطر أسباب، ويتهيأ لصواب الرأي أبواب»[3].

و قد اقتفى البلاغيون أثر الجاحظ وابن المعتز، وعدوا المذهب الكلامي من فنون البديع ومن هؤلاء **أبو هلال العسكري** ، **وابن رشيق القيرواني**، إلا أنهم لم يزيدوا شيئا على ما قاله الجاحظ.

(1)-كتاب البديع: ابن المعتز ، ص43 - 57.بتصرف.

(2)-في تاريخ البلاغة العربية:عبد العزيز عتيق،ص 126.

(3)-الحيوان: الجاحظ، ج2، ص115 - 116.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-4- التقسيم:

لم يذكر الجاحظ هذا اللون البديعي بهذا الاسم، وإنما ذكر مثالا له، وبقي يدور ويتـــردد في كتب البلاغة والنقد، يستشهد به البلاغيون المتأخرون.

«والتقسيم هو استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، وذلك نحـــو قولـــه تعـــالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ **[الرعد: 12]**. فليس في رؤية البرق غير هذين القسمين: الخوف من الصواعق،و الطمع في الأمطار ولا ثالث لهما»[1].

و قد فطن الجاحظ إلى هذا اللون البديعي وأشاد بفضله في الكلام، ونوّه بجودتـــه وذلـــك في سياق تعليقه على بيت **لزهير بن أبي سلمى** الذي أنشد في حضرة **عمر بن الخطاب** يقـــول الجاحظ: «ولقد أنشدوه شعراء لزهير – وكان لشعره مقدما – فلما انتهوا إلى قوله :

وإن الحق مقطعه ثلاث ** يمين أو نفار أو جلاء

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها وإقامة أقسامها:

وإن الحق مقطعه ثلاث ** يمين أو نفار أو جلاء

يردد البيت من التعجب،و أنشدوه قصيدة " **عبدة بن الصلت** "، الطويلة التي على الـــلام فلما بلغ المنشد إلى قوله:

والمرء ساع لشيء لم يدركه ** والعيش شح وإشفاق وتأميل

قال عمر متعجبا: «والعيش شح وإشفاق وتأميل «يعجبهم من حسن مـــا قســـم ومـــا فصل»»[2].

إذن فقد أشار الجاحظ إلى هذا الفن، وإن كانت إشارته في سياق التعقيب علـــى المثـــال كعادته في تناول المادة البلاغية، إلا أن إشارته لها من الأهمية ما لا يمكن إغفاله، حتى إن المتأخرين اعتمدوا على الشاهد نفسه في التمثيل لهذا اللون البديعي.

---

[1]-**ينظر**: في تاريخ البلاغة العربية:عبد العزيز عتيق،ص 128.لمزيد من التفصيل.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص240.

1-5-الاحتراس:

لقد فطن الجاحظ لما سماه المتأخرون "الاحتراس" أو "التتميم والتكميل" وأطلق هو عليه اسم "إصابة المقدار"، وشاهده في هذا الصدد، بيت **طرفة بن العبد** (ت**60**ه) يقول في ذلك «وقال طرفة في المقدار وإصابته:

فسقى ديارك – غير مفسدها – ** صوب الربيع وديمة تهمي

طلب الغيث على قدر الحاجة لأن الفاضل ضار»[1].

وقال النبي ﷺ في دعائه: «اللهم اسقنا سقيا نافعا»، «لأن المطر جاء في غير إبان الزراعات، وربما جاء والتمر في الجرن، والطعام في البيادر، وربما كان في الكثرة مجاوزة لمقدار الحاجة. وقال النبي ﷺ: «اللهم حوالينا لا علينا»»[2].

يريد اللهم أنزل الغيث حوالينا في مواضع النبات والزروع، لا علينا في مواضع دورنا وبيوتنا.

إذن تفطن الجاحظ إلى " الاحتراس " أمر ذو بال، لأن جل البلاغيين بعده نراهم أخذوا عنه، وتبنوا شاهد " **طرفة بن العبد** "، وعلقوا عليه تعليقات لا تخرج تقريبا عما رسمه أبو عثمان وأبرز هؤلاء **أبو هلال العسكري** في صناعته.

1-6-الإفراط في الصفة:

هي من المبالغة التي تحدث عنها البلاغيون المتأخرون، وسجل حدودها المعرفية أبو هلال العسكري قائلا:

«أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، أو أبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه»[3].

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص228.

[2]-المصدر نفسه.

[3]-الصناعتين:أبو هلال العسكري، ص365.

«ويرى العلماء أن عنصر المبالغة قد يورد راكبه منهلا غير عذب، ويفضي به إلى مفازة»[1].

و قد تطرق إليه الجاحظ في سياق حديثه عن من اقتصد من الشعراء ومن بالغ، « يقول وإذ قد ذكرنا شيئا من الشعر في صفة الضرب والطعن، فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف واقتصاد من اقتصد.

فأما من أفرط فقول المهلهل:

فلولا الريح أسمع من بحجر ** صليل البيض تقرع بالذكور

و قال **الهذلي(ت80هـ)**:

والطعن شغشغة والضرب هيقعة ** ضرب المعوّل تحت الديمة العضدا

**وللقسيّ أزامير وغمغمة ** حس الجنوب تسوق الماء والقردا»»[2].

و الظاهر أن الجاحظ المعروف بمذهبه في التوسط والاعتدال في كل شيء لا يميل إلى الإفراط والمبالغة كثيرا، فمتى كانت المقادير مناسبة أصابت الهدف ، ويتضح ذلك جليا في سياق تعليقه على خبر من أخبار بخلائه، إذ يقول: «ولا يعجبني هذا الحرف الأخير، لأن الإفراط لا غاية له، وإنما نحكي ما كان في الناس وما يجوز أن يكون فيهم مثله أو حجة أو طريقة فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره»[3].

و يقول أيضا في مجاورة المقدار: «وأما المذموم من المقال فما دعا إلى الملال، وجاوز المقدار واشتمل على الإكثار وخرج من مجرى العادة، وكل شيء أفرط في طبعه وتجاوز مقدار وسعه عاد ضد طباعه فتحول البارد حارا، ويصير النافع ضارا، كالصندل البارد إن أفرط في حكه عاد حارا مؤذيا، وكالثلج يطفئ قليله الحرارة، وكثيره يحركها وكذلك القرد، لما فرط قبحه وتناهت سماجته استملح واستظرف»[4].

---

[1]-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص537.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص235.

[3]-البخلاء: الجاحظ، ص 132.

[4]-رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة البلاغة والإيجاز، ج4، ص152.

1-7-المقابلة:

ذكر الجاحظ المقابلة في سياق تعليقه على الآية الكريمة: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴾ [النجم،43-44]

وعلق عليه بقوله: «فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت»[1].

وقد سجل **أبو هلال العسكري** حدودها المعرفية قائلا: «هي إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على وجه الموافقة أو المخالفة»[2].

إذن فهذه هي المقابلة التي ذكرها البلاغيون «ففيها توازن بين العبارتين، وفيها التضاد» [3].

1-8-الإرصاد:

أورد الجاحظ هذا الفن البديعي في سياق تعليقه على كلام ابن المقفع الذي أشار إليه بقوله «وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته»[4].

فالإرصاد إذن هو«صناعة بديعة تسجل مشاركة المتلقي في إتمام سياقات المنشئ التركيبية بواسطة عناصر متقدمة تساعد على الإدراك والتواصل المعرفي، ويسمى "التوشيح"، أو"التسهيم"»[5].

وقد عرفه "الخطيب القزويني" بأنه: «أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي»[6].

وتلتقي هذه التعاريف مع ما أورده الجاحظ عند شرحه فكرة "**ابن المقفع** " ومحاولته أن يطبقها على مختلف الفنون الأخرى، يقول: «فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد

---

(1)-البخلاء: الجاحظ، ص 06.

(2)-الصناعتين:أبو هلال العسكري، ص358.

(3)-البلاغة عند الجاحظ: أحمد مطلوب، ص 106.

(4)-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص116.

(5)-الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص534.

(6)-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص345.

وخطبة الصلح وخطبة المواهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الـــذي إليه نزعت»[1].

1-9-الهزل يراد به الجد:

من أهم الفنون البديعية الهزل الذي يراد به الجد، وهو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمّه فيخرج من ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون واللائق بالحال.

وقد لهج الجاحظ نفسه بهذا الفن في أدبه، لما له من ملكة تعينه على ابتكار الصور الساخرة الضاحكة والمؤثرة، لأن هذا الفن لا يتقنه إلا من لطفت نفسه وتمتع بملكة خاصة.

وقد تحدث الجاحظ عن هذا الفـــن البديعي، لكنه لم يعرفـــه، على اعتبار أنه لم يكـــــن يعنى بالتحديدات، إنما اعتماده دائما كان على الشاهد والمثل.وقد أورده في سياق حديثـــه عـــن "إبراهيم بن هانئ" أحد معاصريه.

يقول: «وقال إبراهيم بن هانئ وكان ما جنا خليعا وكثير العبث متمردا. ولولا أن كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجد لما جعلته صلة الكلام الماضي...»[2].

ومن أمثلة «قول الشاعر:

فقبّلت رأسا لم يكن رأس سيد ** وكفا ككف الضب أو هي أحقر

فعاب صغر رأسه، وصغر كفه»[3].

ومن أمثلة كلام الجاحظ نفسه قوله في رجل يدعى "أحمد بن عبد الوهاب": «كان أحمـــد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول،وكان مربعا وتحســـبه لســـعة حفرتـــه واستفاضة خاصرته مدورا،وكان جعد الأطراف قصير الأصابع،وهو في ذلك يـــدعى البســـاطة

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص116.

[2]-المصدر نفسه، ج1، ص93.

[3]-المصدر نفسه، ص94.

والرشاقة... وكان كبير السن متقادم الميلاد،وهو يدعي أنه معتدل الشباب،حديث الميلاد. وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها...» [1].

1-10-حسن الابتداء والانتهاء:

أشار الجاحظ إلى حسن الابتداء والانتهاء عندما نقل قول "**شيب بن شيبة**" الذي يقول فيه: «الناس موكلون بتفضيل الابتداء،وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه. وحظ جودة القطع وبمدح صاحبه. وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت» [2].

ويسمى "حسن الابتداء" براعة الاستهلال، ويعتمد على المفارقة التعبيرية من العادية إلى المثالية، وهو بناء إبداعي [3].

2-المحسنات اللفظية:

2-1-السجع:

من محسنات البديع اللفظية السجع، وقد اهتم الجاحظ كثيرا به، وأفرد له في "البيان والتبيين" أبوابا مختلفة، نوّه فيها بأثره في الكلام وتأثيره في النفوس، وقد أورد عدة نماذج له وذكره في عدة مواضع [4].

والسجع كثير في كلام العرب، وقد جاء مثله في القرآن الكريم ما يسمى "الفاصلة القرآنية" إلا أن الفاصلة تكون متممة للمعنى.

وقد قيل **لعبد الصمد بن الفضل الرقاشي**: «لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: «إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك

---

[1]-رسائل الجاحظ: الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، ص82.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص112

[3]-**ينظر**: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية:عبد القادر عبد الجليل،ص563.لمزيد من التفصيل.

[4]-**ينظر**:البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص284 ، 287، 291، 297، 408 / ج3، ص06.لمزيد من التفصيل.

ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون،فلم يحفظ من المنثور عشره،ولا ضاع من الموزون عشره»»[1].

فتحسين العرب لكلامها سواء بالأسجاع أو القوافي ميزة اختصت بها الأمة العربية دون غيرها من الأمم الأخرى، باعتبار الجماهير العربية تطرب بالأسماع قبل القلوب، ولما للسجع من ميزة في امتلاك أزمة الأذان وجذب أعنة الحدق، والتسلط على ألباب المستمعين في المقامات المشهودة، إضافة إلى كون الثقافة العربية كانت إلى زمن غير بعيد تعتمد على الثقافة الشفوية في تخليد تراثها وحفظ مآثرها فكان يجب أن تكون الوسيلة التي يعتمدون عليها في ذلك سهلة وترسخ بالذاكرة.

لكن بالرغم من عناية العرب بهذا اللون من المحسنات واحتفالهم به لما له من الأهمية البالغة في الحفاظ على موروثهم الحضاري وهويتهم الثقافية إلا أن هناك من كان يعيب هذا الفن وينكره مستشهدا لرأيه بموقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – من السجع. فقد روى الجاحظ أن سائلا سأل الرسول قائلا: " يا رسول الله أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل، أليس مثل ذلك يطل؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسجع كسجع الكهان؟»"[2].

والجاحظ يرد على من فهم من هذا الحديث للرسول ﷺ كراهية السجع أو نهيه ﷺ عنه قائلا: «وكان الذي كره الأسجاع بعينها، وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كانوا أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن مثل حازي جهينة، ومثال شق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم، كانوا يتكهنون، ويحكمون بالأسجاع، كقوله: «والأرض والسماء، والعقاب الصقعاء، واقعة ببقعاء لقد نفر المجد بني العفراء، للمجد والسناء» (...) قالوا فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيهم، وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم»[3].

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص287.

[2]-المصدر نفسه، ص287.

[3]-المصدر نفسه، ص 289.

ويستدل على رأيه أيضا في جواز السجع في الكلام بإيراده لكلام "عبد الصمد الرقاشي" الذي نفى تحريم السجع، قائلا عن السائل الذي سأل الرسول ﷺ: «لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن، لما كان عليه باس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق في الكلام»[1].

كما كان " عبد الصمد الرّقاشي " نفسه سجّاعا في قصصه، وهو أحد كبار الوعاظ في البصرة، وكان العديد من الوعاظ والفقهاء والمتصوفة يختلفون إلى مجلسه أمثال: **عمرو بن عبيد أبان بن أبي عياش(ت 140هـ)**.... وغيرهم ، دون اعتراض على هذا الفن الجمالي.

إضافة الى هذا فقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء، ويكون في كلامهم أسجاع كثيرة فلا ينهوهم[2].

وقال غير "**عبد الصمد الرقاشي**" يرد على من يستشهد بحديثه ﷺعلى تحريم السجع «وجدنا الشعر:من القصيد والرجز قد سمعه النبي ﷺ فاستحسنه وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعرا، قليلا كان ذلك أم كثير، واستمعوا وأنشدوا، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل؟»[3].

وممن تبع الجاحظ من النقاد المتأخرين وأدلى برأيه في هذه المسألة **أبو هلال العسكري** الذي أجاز السجع وذم سجع الكهان.يقول في تعليقه على قول الرسول ﷺ السابق: «ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال: أسجع؟ ثم سكت، وكيف يذمه ويكرهه، وهو إذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه؟

وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام كأول شيء تكلم به لما قدم المدينة وهو قوله «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف»[4].

---

[1]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص 287.

[2]-المصدر نفسه، ص 290.

[3]-المصدر نفسه ، ص287.

[4]-الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص260.

إلا أن أصل الحسن في السجع أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني وخدما لها، فلا يجب أن يأتي من السجع إلا ما يطلبه المعنى والطبع دون تكلف ولا استكراه، فالمعاني إذا أرسلت على سجيتها طلبت لأنفسها الألفاظ و لم تكتس إلا ما يليق بها.

2-2-الازدواج:

«الازدواج أو المزدوج هو تساوي الفقرتين في الطول»[1].

و قد دفع احتفاله بأصوات الكلام إلى أن يتحدث عما يدخل في تقطيعه، فقد تحدث إضافة إلى السجع عن الازدواج الذي كان يلهج به في كلامه، وقد ربطه أبو عثمان بالسجع وعقد لـــه بابا سماه "من مزدوج الكلام"[2]، ذكر فيه بعض أمثلة هذا الفن منها:

«قالوا: قال النبي ﷺ في معاوية: «اللهم علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب»[3]

«وقال رجل من بني أسد: مات لشيخ منا ولد، فاشتد جزعه عليه، فقام اليه شيخ منا فقال «صبرا أبا أمامة، فإنه فرط إفترطته، وخير قدمته، وذخر أحرزته».

فقال مجيبا له: «ولد دفنته، وثكل تعجلته، وغيب وعدته، والله لئن لم أجزع من الـــنقص لا أفرح بالمزيد»»[4].

«وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه ليسمع شعر جرير والفرزدق، فسأله أبوه عنـــهما فقال جرير يغرف من بحر،والفرزدق ينحت من صخر.فقال: الذي يغرف من بحر أشعرهما»[5].

---

(1)-البلاغة عند الجاحظ:أحمد مطلوب، ص 106.

(2)-البيان والتبيين: الجاحظ،ج2، ص116.

(3)-المصدر نفسه.

(4)-المصدر نفسه.

(5)-المصدر نفسه، ص117.

2-3-الاقتباس:

الاقتباس هو: «أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث على أنه منه»[1].

وقد أشار الجاحظ إلى اقتباس الخطباء من آي الذكر الحكيم، يعضد بها رأيه ويستشهد بها لما يدعو إليه، وبالتالي يؤثر في المستمعين، ويتمثلوا ما في الخطبة، إضافة لما لكلام القران من حلاوة وطلاوة وموقع حسن في القلوب.

يقول الجاحظ: «وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل،وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة، وسلس الموقع»[2].

«كذلك ذكر أن أكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء»[3]، كما أشار إلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان التابعين كانوا يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي "الشوهاء" ومن ذلك ما روي عن عمران بن حطّان أنه قال:«إن أول خطبة خطبتها عند زياد أو عند ابن زياد – فأعجب بها الناس، وشهدها عمي وأبي.

ثم إني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن»[4].

وخلاصة القول: هذا عرض لما جاء متناثرا في "البيان والتبيين" من مادة بلاغية، بالاستئناس لما ورد في مؤلفاته الأخرى ؛ التي جاءت شرحا أو توضيحا أو غيرها على اعتبار أن هذه المادة جاءت خدمة لما تحتاجه السياقات الواردة فيها، فالجاحظ لم يقصد التطرق إليها قصدا ولا دراستها دراسة مفصلة تعتمد على التعريفات والتحديدات وإنما جاءت على شكل خطرات متناثرة، ولكن لها من الأهمية ما لا ينكر، على اعتبار أنه انطلاقا من هذه الإشارات شاد البلاغيون المتأخرون صرح البلاغة العربية، وأكملوا بناء البيان العربي الذي وضع أسسه أبو عثمان، الذي

---

[1]-الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، ص406.

[2]-البيان والتبيين: الجاحظ،ج1، ص118.

[3]-المصدر نفسه، ص118.

[4]-المصدر نفسه.

ظلت كتاباته وملاحظاته البيانية والبلاغية معينا لا ينضب، كل يأخذ منه حسب قدرته ومهارته الذهنية.

وقد كان للجاحظ بما قدم للبلاغة العربية، وبما فتح فيها من جوانب، وبما بث فيها من أفكاره وآرائه الذاتية تأثير كبير على من جاء بعده من البلاغين والنقاد، الذين عدوه مرجعا أصيلا ومعينا أساسيا للاغتراف من معارفه بمختلف الكيفيات.

فابن قتيبة "لم ير بأسا في أن يستلهم روحه وينهج نهجه في مؤلفه " عيون الأخبار" و"**أبو العباس المبرد** "تلميذ أبي عثمان تأثر بأستاذه، فأتبع طريقته في أدبه.

وأخذ عنه " **ابن المعتز**" "المذهب الكلامي" وعده أحد الفنون البديعية الرئيسة، كما نحسّ روح الجاحظ في كتاب " العقد الفريد" " **لابن عبد ربه** " (**ت 328 هـ**)، ونرى بعض أدبه فيه، ونقل " **قدامة بن جعفر** " (**ت 337 هـ**) في كتابيه خاصة " نقد الشعر و"نقد النثر" كثيرا عن الجاحظ، إضافة إلى تأثر " **الرماني** " (**ت 386هـ**) به في كتابه " النكت في إعجاز القرآن أما "**أبو هلال العسكري**" فإنه يقرر أنه ليس إلا شارحا للجاحظ جامعا لمتفرق عنده، ومبوبا لما جاء مشتتا، على اعتبار أن مؤلفاته أشبه بمناجم غنية من المعادن الثمينة التي تناثرت وتداخل بعضها ببعض، فعزّ على ناشدها الاهتداء إليها بيسير وخاصة من كان يجهل المنطلق الذي يقيم عليه مادته البلاغية، والرابط بين المعطيات اللسانية واللغوية وبين ارائه البلاغية، و"**ابن رشيق القيرواني**" أفاد منه كثيرا في كتابه "العمدة "،كما أفاد منه "**ابن سنان الخفاجي**" في كتابه "سر الفصاحة" وأخذ عنه "**عبد القاهر الجرجاني**" الذي لم ينج من سلطانه، وغير هؤلاء من البلغاء والأدباء كثير ولا يزالون حتى عصرنا الحالي يستفيدون من أدبه الذي يصلح لكل زمان حتى إنه وصف بالإنسانية.

ويبقى الجاحظ إذن أصيل الفكر، غزير المادة، متعدد الجوانب، وهو بما أسدى للبيان العربي من خدمة يعد مؤسس البلاغة العربية دون منازع، فالبلاغة قبله كانت مجرد إرهاصات لما كان الحدث الجاحظي كان معه التأسيس ووضع الأصول الأولى واللبنات الأساسية حتى صار كل من يأتي بعده يغرف من معينه، ولا يكاد يضيف شيئا يذكر.

خـــاتمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد هذه الرحلة الممتعة والشاقة في الوقت نفسه نخلص إلى التأكيد على جملة من الاستنتاجات تقودنا إليها الإشكالية التي طرحها علينا موضوع البحث؛ هذه الإشكالية التي تتمحور قي بحثنا حول ترتيب المادة البلاغية في البيان والتبيين عند الجاحظ وأثـــرها في الدراسات النقـــدية، بيـــد أننا لا نزعم ما توصلنا إليه من نتائج جديد كل الجدة ولا هو صحيح مطلق الصحة، وإجمالا يمكن أن نجمل هذه الاستنتاجات فيما يأتي:

-الجاحظ لا يستعمل البيان بالمعنى الاصطلاحي الضيق الذي حدده فيه البلاغيون المتأخرون فللبيان عنده مفهومان:عام وخاص، أما العام فهو سيميائي لغوي، يدخل في الرؤية العامة للعصر ويستعمله أبو عثمان في معنى معرفي شامل، وينوطه "بأي شيء بلغت الإفهام"، ويحدده بغاية "الفهم والإفهام"، ويكون بإحدى الوسائل التعبيرية. وأما الخاص فهو بلاغي، وقد خصه الجاحظ بمستوى معين من التعبير، الذي يكون بلغة راقية لتحقيق غايات فنية جمالية أو تأثيرية، فهو يدخل في إطار الهموم الشخصية المذهبية والقومية.

-يتحدد مفهوم البيان عند الجاحظ انطلاقا من السياقات التي يرد فيها، والمقامات التي يكون ضمنها، والمواقف التي تستدعيه، إضافة إلى الهدف الذي إليه يرمي المتكلم.

- يعد أبو عثمان فاتحة نمط ثقافي جديد وطريقة في المعرفة لم يسبق إليها؛ إذ يعد حديثه عن فضل الكتاب إيذانا بتحول هام في بنية الثقافة العربية، يتمثل في الانتقال من طور الشفاهية إلى طور الكتابة مؤكدا بذلك على ضرورة أن يقوم الكتاب بديلا حضاريا عن اللفظ، باعتباره يلائم المجتمع الجديد ويتماشى مع تطوراته، وبهذا يكون الجاحظ قد كسر تقاليد العقلية العربية في التواصل، موسعا بذلك هذه الدائرة، حيث تعدى ضيق المستوى القومي إلى رحابة المستوى الإنساني.

- استند الجاحظ في التأصيل لبلاغته على مرجعية عقائدية مذهبية وقومية، يؤكد ذلك اهتمامه بالجنس الخطابي، واعتباره المنطلق في تأصيل نظريته البلاغية.

-إن استطرادات الجاحظ ليست ذات دلالة تراكمية كما يزعم البعض، إنما مادته التي يسوقها في مؤلفاته تأتي خدمة للموضوع الذي هو بصدده، فهذه المادة تأتي حسب ما تستدعيه المقامات؛ أي أنه

يتعاطى معها وظيفيا.

-لم يخص الجاحظ البحث البلاغي بمؤلف مستقل، يجمع فيه مسائله ويبوبها، واكتفى بإدراجه في ثنايا مؤلفاته بنسب متفاوتة، تتحكم فيها ضرورات البحث ومحركاته، فجاءت المادة البلاغية في صورة ملاحظات وتعليقات، لا يوحّد بينها إلا السياق العام وقد أقام أبو عثمان كل مادته البلاغية على فكرة ضرورة ربط المقال بالمقام وملاءمته لمقتضى الحال، إذ تختلف المقاييس البلاغية باختلاف المقامات؛ حيث تكتسب قيمتها بمدى ملاءمتها للسياق الذي ترد فيه ولمدى غايتها لأن النظرية البلاغية عند الجاحظ تنبنى أساسا على الصواب وإحراز المنفعة، باعتبار الخلفية العقائدية التي ينطلق منها، والتصورات الفكرية التي تحركه.

-أهم ما تولد عن نظرية المقامات عند الجاحظ نسبية الأحكام الأسلوبية، فكانت عنده البلاغة بلاغات والفصاحة فصاحات، تبعا لمدى الملاءمة بين المقال والمقام، انطلاقا من مبدأ الاختيار والانتقاء حسب ما يقتضيه المقام ويستلزمه الحال، فبلاغة الخطابة مقام يستدعي أساليب معينة لتحقيق الغرض والمنفعة، تختلف عن الأساليب التي يستلزمها مقام بلاغة الشعر أو بلاغة الكتابة، أو بلاغة الأراجيز .... وغيرها .

من هنا تتضح لنا رغبة الجاحظ عن تصنيف الوجوه البلاغية وضبطها في مقاييس، لأنها متحولة بتحول المقام .

هذا جهد المقل والله أسأل القبول، فما وافق الحق فمن الله وحده، وما جانبه فمن نفسي وتقصيري وما الاعتذار وحمل النفس على الأعذار إلا لأن الكمال محال لغير ذي الجلال، فالمرء غير معصوم والنسيان في الإنسان غير معدوم، وهي على حد القول المأثور: "اختيار الكلام أشد من نحت السلام".

من الله أستمد المعونة، وإياه أسأل التوفيق لما يرضيه، والهداية إلى ما يحبه ويزلف إليه، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.

قائمة المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم برواية حفص.

1. أدب الكاتب: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محي الدين عبد الحميد دار التراث، -القاهرة-،(د.ط)،(1958م).
2. أدب المجالسة وحمد اللسان ــ وفضل البيان وذم العي وتعلـــيم الإعـــراب وغير ذلك- ابن عبد البر الحافظ أبي عمرو يوسف ابن عبد الله، تحقيق ودراسة : سمير حلبي، دار الصحابة للتراث، -طنطا-، ط1(1409 هـــ-1989 م).
3. استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية-:عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، -بيروت-، ط1 (2004م).
4. استقبال النص عند العرب : محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،-بيروت-، ط1(1991 م).
5. أسرار البلاغة في علم البيان:عبد القاهر الجرجاني،علق على حواشيه:محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، -بيروت-، ط1(1409هـــ -1988م).
6. الأسلوبية و ثلاثية الدوائر البلاغية : عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر و التوزيع، ــ عمان ــ، ط1(1422هـــ -2002م).
7. الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي:ابتسام أحمد حمدان، مراجعة وتدقيق: أحمد عبد الله فرهود دار القلم العربي،- حلب -، ط1 (1418هـــ - 1997 م).
8. إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد :يوسف وغليسي،الدار العربية للعلوم ناشرون، -لبنان -، ط1(1429هـــ-2008).
9. الإشارة الجسمية: كريم زكي حسام الدين، دار غريب، -القاهرة-، ط2، (د.ت.ط).
10. الإعجاز البياني في القرآن الكـــريم -دراسة نظرية تطبيقية في الآيات المحكمات -عمـــار ساسي، عالم الكتاب الحديث، -عمان- عالم جدار للكتاب العالمي، -إربد-ط1 (2007م).

11. إعجاز القرآن: الباقلاني أبو بكر بن الطيب، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف –مصر –، (ط.د)، (1374هـ-1954 م)

12. ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ:طيبة صالح شذر، دار قباء،– القاهرة – (د . ط)، (1998 م).

13. الإيضاح في علوم البلاغة:الخطيب القزويني، اعتنى به: محمد فاضلي، دار الأبحاث – الجزائر–، ط1(2007م).

14. البحث البلاغي عند العرب ــ تقييم و تأصيل ــ : شفيع السيد، دار الفكر العربي – القاهرة–، (د.ط)،(1986م).

15. البخلاء: الجاحظ ، تحقيق : طه الحاجري، مطبعة المعارف، –مصر–، (د.ط) (1971م).

16. البديع: أبو العباس عبد الله بن المعتز، تحقيق:محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت–، (د.ط)، (1990م).

17. البرهان في علوم القرآن:بدر الدين الزركشي، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث –القاهرة–، (د.ط)، (1957).

18. البلاغة تطور و تاريخ:شوقي ضيف، دار المعارف، – القاهرة–، ط9، (د.ت.ط).

19. البلاغة الشعرية في كتاب"البيان والتبيين" للجاحظ:محمد علي زكي صباغ، إشراف ومراجعة : ياسين الأيوبي المكتبة العصرية، – بيروت –، ط1(1417 هـ– 1997م).

20. البلاغة العربية أصولها و امتداداتها:محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، –المغرب– ط2 (2010م) .

21. البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية و نظرية السياق : محمد بركات حمدي أبو علي دار وائل للنشر و التوزيع، –عمان–، ط1(2003).

22. البلاغة عند الجاحظ: أحمد مطلوب، دار الحرية للطباعة، –بغداد–، (د.ط) (1403هـ - 1983م).

23. بنية العقل العربي –نقد العقل العربي–: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، –بيروت–، ط4(2005م).

24. بهجة المجالس و أنس المجالس و شحذ الذهن و الهاجس: ابن عبد البر القرطبي أبو عمرو يوسف، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 (د.ت.ط).

25. البيان و التبيين : الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي،ـــ القاهرة ـــ ط7(1418هـــ-1997م)

26. تاريخ ابن خلدون المسمى : كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: ابن خلدون، دار الكتب العلمية –بيروت–، ط2 (1424 هـــ-2003م).

27. تاريخ الطبري :ابن جرير الطبري،راجعه وقدم له وأعد له فهارسه : نواف الجراح دار صادر، –بيروت– ط1(1424هـــ-2000م).

28. التاريخ العباسي –السياسي والحضاري–: إبراهيم أيوب،دار الكتاب العلمي، –بيروت– ط1(1989).

29. التفكير الأسلوبي–رؤية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث–:سامي محمد عبابنة، جدارا للكتاب العالمي، –عمان–، ط1(2007م).

30. التفكير البلاغي عند العرب –أسسه وتطوره إلى القرن السادس– (مشروع قراءة) حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة، –بيروت–، ط3 (2010).

31. تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله تن مسلم تن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر،دار التراث، –القاهرة–، ط2(1393هـــ - 1973م).

32. الجاحظ ؛حياته و آثاره :طه الحاجري، دار المعارف، – مصر –،(د.ط)،(1962 م).

33. الجاحظ و مجتمع عصره:جميل جبر، المطبعة الكاثوليكية،–بيروت–، (د.ط) (1958 م).

34. الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة:محمد سالم محمد الأمين الطلبة –بحث في بلاغة النقد المعاصر–، دار الكتاب الجديد المتحدة، –بيروت–، ط1(2008م).

35. حضارة العرب: غوستاف لوبون، نقله إلى العربية:عادل زعيتر، مطبعة إحياء الكتب العربية، -نابلس-، (د.ط)، (د.ت.ط).

36. حضارة العرب في العصرالعباسي:حسين الحاج حسن،المؤسسة الجامعية للدراسات - بيروت -، ط1 (1414هـ-1994م).

37. خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب:البغدادي، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة-، ط4 (1418-1997م).

38. الخصائص: ابن جني،تحقيق :علي محمد النجار،دار الهدى، -بيروت -،ط2(د.ت.ط).

39. الحيوان:الجاحظ،تحقيق:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، -القاهرة-، ط3 (1969 م).

40. دراسات في تاريخ الدولة العباسية : حسن الباشا،دار النهضة العربية،-القاهرة- (د. ط)، (1990م).

41. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، قرأه و علق عليه :محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، -القاهرة-، ط5 (2004م).

42. ديوان الأخطل: الأخطل، عني بنشره : الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار المشرق، - بيروت- ط2 (د.ت.ط).

43. ديوان رؤبة بن العجاج: رؤبة بن العجاج، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، -بيروت-، (د.ط)، (1400هـ- 1980م).

44. ديوان زهير بن أبي سلمى:زهير بن أبي سلمى،اعتنى به وشرحه: حمدو طماس،دار المعرفة، -بيروت-، ط2 (1426هـ-2005م).

45. رسائل الجاحظ:الجاحظ، تحقيق:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي،-القاهرة- ط1 (1399هـ-1979م).

46. الروح العلمية عند الجاحظ في كتاب الحيوان : صموئيل عبد الشهيد، دار الكتاب اللبناني،-بيروت-، ط 1 (1975).

47. السخرية في أدب الجاحظ:عبد الحليم محمد حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع – ليبيا–،ط1 (1397هـ، 1988 م).

48. سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، شرح و تصحيح:عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح و أولاده، –مصر–، (د.ط)،(د.ت.ط).

49. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي، شرحه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، –بيروت–، (د.ط)، (د.ت.ط).

50. الصناعتين –الكتابة و الشعر–:أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، –بيروت–، (د.ط)، (1986).

51. ضحى الإسلام : أحمد أمين، دار نوبليس، بيروت، ط1 (2006).

52. علل اللسان و أمراض اللغة (رؤية لغوية إكلينيكية) وانعكاساتها الاجتماعية: محمد كشاش، المكتبة العصرية، –صيدا–، ط1(1419هـ– 1998 م)،

53. علم الإعلام اللغوي:عبد العزيز شرف،الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان– مصر–، ط1 (2000م).

54. علم نفس اللغة –من منظور معرفي–:موفق الحمداني دار المسيرة، –عمان–، ط1 (1425–2004 م).

55. العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده : ابن رشيق القيرواني،تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، –بيروت–، (د.ط)،(د،ت،ط).

56. فقه اللغة وأسرار العربية: الثعالبي،منشورات دار مكتبة الحياة،ـــ بيروت ـــ،(د.ط) (د.ت.ط).

57. فلسفة الأخلاق عند الجاحظ: عزت السيد أحمد، منشورات إتحاد كتاب العرب – دمشق–، (د.ط)، (2005م).

58. الفن و مذاهبه في النثر العربي : شوقي ضيف، دار المعارف، –القاهرة– ط6(1971م).

59. الفهرست: ابن النديم،حققه وقدم له : مصطفى الشويمي، وزارة الثقافة الجزائرية – الجزائر–، (د،ط) (2007).

60. في الأدب العباسي –رؤى نقدية–: فاطمة الزهراء علي الموافى، مكتبة الآداب، –القاهرة– ، ط1 (1429هـ–2008م).

61. في آفاق الكلام وتكلم النص:عبد الواسع الحميري،"مجد"المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع –بيروت–، ط1 (1431هـ– 2010 م).

62. في تاريخ البلاغة العربية:عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، –بيروت–، (د.ط) (د.ت.ط).

63. في النقد الأدبي القديم عند العرب: مصطفى عبد الرحمان إبراهيم، مكة للطباعة – القاهرة– (د.ط)، (1419هـ–1998م).

64. الكامل في التاريخ : ابن الأثير، راجعه وصححه:محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، –بيروت –، ط4 (1424هـ– 2003 م).

65. الكامل في اللغة و الأدب: المبرد،مؤسسة المعارف، –بيروت–، (د.ط)، (د.ت.ط).

66. كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج –رسائله نموذجا–: علي محمد سليمان المؤسسة العربية للدراسات و النشر، –بيروت–، ط1(2010م).

67. لسان العرب: ابن منظور، دار صادر –بيروت–، (د.ط)، (د.ت.ط).

68. اللسان و الإنسان –مدخل إلى معرفة اللغة–: حسن ظاظا، دار الفكر العربي–القاهرة–، (د.ط) (د.ت.ط)

69. اللسانيات الاجتماعية عند العرب: هادي نهر لعيبي، عالم الكتب الحديث،– إربد– ط1(1430هـ– 2009 م)

70. اللغة والحواس – رؤية في التواصل والتعبير بالعلامات غير اللسانية –: محمد كشاش، المكتبة العصرية، –بيروت–، ط1 (1422هـ–2001م)،

71. اللغة والمجتمع: علي عبد الواحد وافي، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع-الرياض-، ط4 (1423هـ-1983م)،ص 23

72. المختصر في تاريخ البلاغة العربية: عبد القادر حسين، دار الشروق، ـــ القاهرة ـــ (د.ط)، (1982)

73. مدخل إلى علم اللغة: محمد علي الخولي، دار الفلاح، -الأردن-، (د.ط)،(2000م).

74. مروج الذهب ومعادن الجوهر :المسعودي، اعتنى به وراجعه : كمال حسن المرعي المكتبة العصرية، - صيدا-، (د.ط)،(1428هـ - 2007م).

75. مفتاح العلوم: السكاكي، دار الكتب العلمية،ـــ بيروت ـــ،(د.ط)،(1937م).

76. مقدمة ابن خلدون :بن خلدون،تحقيق:درويش الجويدي، المكتبة العصرية،- بيروت-(د .ط)،(1429 هـ-2008 م).

77. معجم الأدباء: ياقوت الحموي،تحقيق: إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي، -بيروت- ط1، (1993).

78. معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر،- بيروت -،(د.ط)، (1957 م).

79. معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، -بيروت-، (د.ط) (د.ت.ط).

80. ملكة اللسان – إبداع الإنسان و عبقرية المكان – أسس علم اللغة و طرق تصنيف اللغات و اللهجات في العالم : أحمد دراج، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط2 (1430هـ- م).

81. المناحي الفلسفية عند الجاحظ:علي بوملحم،دار الهلال،- بيروت-، ط1 (2009م).

82. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، تحقيق وتقديم:محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ، -بيروت-، ط3 (1986 م).

83. الموازنة بين شعر أبي تمام و البحتري:الآمدي، دراسة و تحقيق:عبد الله حمد محارب، مكتبة الخانجي، -القاهرة- ،(د.ط)،(1990م).

84. موسوعة التاريخ الإسلامي – العصر العباسي –:خالد عزام،دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن –، ط1 (2003م).

85. نحو نظرية أسلوبية لسانية : فيلي ساندرس، ترجمة : خالد محمود جمعة، المطبعة العلمية، –دمشق–، ط1(1422هـ– 2002م).

86. النظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال " البيان و التبيين ": محمد الصغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية، –الجزائر– ،(د.ط)، (1994م).

87. نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي:محمد عبد المغني المصري دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، –عمان–، ط1(1407هـ– 1987م).

88. نظرية اللغة في النقد العربي: عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، –القاهرة–،(د.ط) (د.ت.ط).

89. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر – بيروت–، (د.ط)، (د.ت.ط).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات:

مقدمـــــة..... أ

مدخـــل:عصر الجاحظ ، ترجمته ، و حضوره البلاغي

أولا: لمحة تاريخية حول الحياة العامة في عصر الجاحظ 2

1/ الحياة السياسية و الاجتماعية..... 2

2/ الحياة الاقتصادية 12

3/ الحياة العلمية و الثقافية..... 13

ثانيا : ترجمـــــة الجاحـــــظ..... 17

1/ سيرته و حياته..... 17

2/ صنعته و أسلوبه..... 25

3/آثاره و بعض الآراء فيه 28

ثالثا : كتاب البيان و التبيين 32

1/ تعريفـــــه..... 32

2/ تأليفـــــه..... 33

3/ مضمونه..... 35

الفصل الأول:البيان عند الجاحظ بين الغاية الإبلاغية و الصيغة الإبداعية

أولا : البيان بمفهوم العلامية مطلقا..... 39

1/ البيان باللفظ..... 46

2/ البيان بالإشارة، بالعقد، والخط..... 52

3/ البيان بالحال..... 61

ثانيا:البيان بمفهوم العلامة اللغوية..... 64

1/ خصوصية اللفظ و فضله على باقي العلامات..... 64

2/ وظيفة البيان اللغوي اجتماعيا..... 66

3/ آلة البيان و دورها في العملية اللغوية..... 69

ثالثا:البيان بمفهوم الصيغة الإبداعية..... 82

1/ البيان من الفهم و الإفهام إلى الإقناع و الإمتاع..... 82

2/ مفهوم الكلام البليغ..... 66

3/ مقومات الكلام البليغ..... 90

الفصل الثاني:مقومات المتكلم عند الجاحظ

أولا:مقتضيات الوظيفة..... 98

1/ وظائفية الكلام..... 100

2/النواميس اللغوية الضرورية للتواصل..... 110

3/ نظرية المقامات..... 118

ثانيا:مقتضيات الإبانة..... 130

1/الطبع و الميل الفطري للإبداع..... 131

2/ الدربة و دورها في حذق الصناعة..... 137

3/ التحصن بباع من العلم و المعرفة..... 141

ثالثا:مقتضيات المقام..... 144

1/ مستلزمات المقام..... 145

2/ منزلة المتلقي الاجتماعية و انتماؤه الطبقي..... 151

3/ مقتضيات الحال..... 154

الفصل الثالث: مقومات الكلام عند الجاحظ

أولا:دائرة فن الصياغة التركيبية(المعاني)..... 162

1/ الخبر ، الوصل و الفصل..... 164

2/ الإيجاز ، الإطناب ،و المساواة..... 169

ثانيا:دائرة فن الصياغة التعبيرية(البيان)..... 177

1/ التشبيه و الاستعارة..... 177

2/ المجاز و الكناية..... 185

ثالثا:دائرة الجماليات البنائية(البديع)..... 195

1/ المحسنات المعنوية..... 199

2/ المحسنات اللفظية..... 209

خاتمة..... 215

فهرس المصادر و المراجع..... 218

فهرس الموضوعات..... 227

الملخص

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص

بعد هذه الجولة المتأنّية في بيان الجاحظ لا يسعنا إلا الشّهادة بسموّ مقامه وندرة نوعيتـــه،وعلوّ شأنه فقد عاش الرجل حقبة طويلة من الزمن أثبت فيها مكانته، وصور عصره أروع وأصدق تصوير بأرقى وأجمل تعبير؛حيث تفجّر عقله نبوغا فتسنّم عصره وبزغ نجمه وعلا قدره حتى صار يمثل حضارة قرن وثقافة أمّة ؛فقد كان ذا فكر عميق وبديهة لمـــّاحة وطبيعة نفّـــاذة إلى الـــدقائق، مميـــزة بـــين اللّطائف؛فترجم قلمه كل ما طاولته عيناه وسمعته أذناه،حتى غدا مؤسس البيان العربي ومرجع كل من جاء بعده دون منازع،و صار كل يأتي بعده يتبعه ويغترف من معينه الذي لا ينضب علـــى تفـــاوت بينهم؛ فقد أنتجت قريحته علما كثيرا بقي منارة للسّالكين،و بسط على ظلام المدنيّات المتهافتـــة نـــورا وفيرا.

وقد تناولنا في هذا البحث ترتيب المادة البلاغية في البيان والتبيين عنـــد الجـــاحظ وأثرهـــا في الدراسات النقدية. وقسمناه إلى مدخل وثلاثة فصول، سبقتهم مقدمة وتبعتهم خاتمة.

أما المقدمة فكانت وصفا لمجمل القضايا التي خلص إليها البحث.

وجعلنا المدخل مهادا نظريا للبحث؛ وتناولنا فيه الحديث عن عصر الجاحظ من حيـــث الحيـــاة السياسية، الاجتماعية، الأدبية، والفكرية، وما شهده العصر من حركة علمية ثرية كان لها بالغ الأثـــر في تكوين شخصية الرجل؛ حيث اشتدّت الصّراعات الفكرية واحتدّ حوار الحضارات، وتشعّبت مناهج العصر، فانفتح الجاحظ على مختلف اهتمامات الفكر وكان للكلمة مفعولها في معترك العصر، فكتـــب في مجمل تلـــك الاهتمامـــات، وأثّـــرت علـــى فكـــره وظهـــرت واضـــحة جليـــة في مؤلفاتـــه. وبعد ذلك تطرقنا إلى حياته مبرزين مولده ونشأته وأدبه، مع الوقوف على منزلته بين معاصريه؛ فقد جمع كل العلوم ومختلف الاختصاصات حتى صار فكره دائرة معارف، وأصبح درّة المتقدمين والمتأخرين، كتبه رياض زاهرة ورسائله أفنان مثمرة، جمع بين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين الذكاء والفهم.

وعالجنا في الفصل الأول البيان عند الجاحظ بين الغاية الإبلاغية والصيغة الإبداعية محاولين بذلك ضبط مفهوم البيان عنده؛فالجاحظ لا يستعمله بالمعنى الاصطلاحي الضيق الذي حدده فيـــه البلاغيـــون المتأخرون، فللبيان عنده مفهومان عام سيميائي، وخاص بلاغي ؛ والعام يدخل في الرؤية العامة للعصر وينوطه "بأي شيء بلغت الإفهام"، ويحدده بغاية "الفهم والإفهام"، ويكون بإحدى الوسائل التعبيريـــة الخمسة التي حددها، وأما الخاص فيدخل في إطار الهموم الشخصية القومية عامة والمذهبية خاصة، وقد خصّه الجاحظ بمستوى معين من التعبير، ويكون بلغة راقية لتحقيق غايات محددة.

وناقشنا في الفصل الثاني مقوّمات المتكلّم عند الجاحظ،باعتبار الظاهرة اللغوية تستدعي من المتكلم احترام مجموعة من النواميس الضرورية لنجاح العملية التواصلية وتحقيق غاياته وبلوغ مآربه المنشودة من تصريف كلامه، وعمدنا فيه توضيح نظرية المقامات لما لها من أثر واضح في تفكيره البياني، فالبلاغة عند الجاحظ مبنية أساسا على الفن الخطابي ؛ فهو ينطلق تأصيلها على مرجعية مذهبية عقائدية. فقد اهتم المعتزلة على وجه الخصوص بهذه المقومات التي تؤدي إلى بلوغ المقاصد وتحقيق المآرب، وتضمن التأثير والإقناع.

كما أدى اهتمامه بالمقام ورعايته بالسياق إلى أنه صار لا يرى للكلام مزية في ذاته ؛ إنما يكتسب حسنه وجماله من سياقه، وتقاس نجاعته بمدى ملاءمته للمقام الذي يكون فيه والحالة التي تستدعيه. وفي إطار اهتمامه بالمقام سعى الجاحظ إلى تقديم تصور شامل لبلاغة إقناعية نفعية قائمة أساسا على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في صورة من المقام الذي اعتبره أساس الفهم والإقناع.

ولعل أهم ما تولد عن هذه النظرية نسبية الأحكام الأسلوبية ؛ فكانت عنده البلاغة بلاغات، والفصاحة فصاحات تبعا لمدى الملاءمة بين المقال والمقام.

و خصصنا الحديث في الفصل الثالث عن مقومات الكلام عند الجاحظ؛وقد حاولنا يفيه تنظيم المادة البلاغية عنده، وربطها بالسياقات الواردة فيها،للفهم السليم لنظريته البيانية. ومعاني البلاغة عند أبي عثمان تدور أولا حول البلاغة الشفوية النثرية،و خصوصا بلاغة الخطابة، وقد كانت فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال الأصل الأول الذي عليه انبنت البلاغة عند الجاحظ، لاحتفاله بنظرية المقامات كما سبق القول، ولهذا جاءت المادة البلاغية في صورة ملاحظات وتعليقات تتحكم فيها ضرورات البحث ومحركاته، من هنا تتضح لنا رغبة الجاحظ عن تحديد الوجوه البلاغية في قوالب معينة وعزوفه عن تصنيفها في تعاريف محددة، باعتبارها متغيرة بتغير الحال ومتحولة بتحول المقام.

و بيّنا في نهاية هذا الفصل أثر هذه المادة البلاغية في الدراسات النقدية .

وأما الخاتمة فقد جاءت مجملا لنتائج البحث.

Résumé

Après ce tour prudent dans BAYEN El Jahiz nous ne pouvons certificat souverainement à sa place et de la rareté de la qualité, et l'altitude aurait vécu un homme une longue période de temps a prouvé sa stature, et des photos de plus belle et la plus vraie représentation plus fine et la plus belle expression de son époque; où l'épidémie d'esprit. et il sera le premier dans son temps et a émergé étoiles et Ola de jusqu'à ce qu'il devienne une civilisation d'un siècle et la culture d'une nation; était une pensée profonde et intuitive spéciale et la nature perméable aux minutes, la distinction entre les subtilités; sa stylo traduit tout que ses yeux ont vu et entendu de ses oreilles, jusqu'à sera le fondateur de la déclaration de l'ensemble arabe et de référence qui sont venus après lui incontesté , et est devenu tout vient après lui et le suivi et le prend de certains inflexible sur la disparité entre eux; a produit beaucoup acte resté un phare de la marche, et l'extension de l'éducation civique de l'obscurité contradictoire Nora et Vera.

Nous avons abordé dans cet article de recherche arrangement rhétorique dans EL BAYEN et ATTABYIN chez El Jahiz et son impact sur les études critiques. Et divisée par l'entrée de trois chapitres, une introduction et suivi par une finale.
La description a été fournie à toutes les questions conclusions de la recherche.

Nous avons fait de l'étendue d'entrée théoriquement à chercher, et nous avons eu une conférence sur l'ère du temps de El Jahiz en termes de la vie politique, sociale, morale intellectuelle, et témoin de l'époque du mouvement des scientifiques riches ont eu un impact profond sur la composition de la personnalité d'un homme, où l'intensification des conflits intellectuels et construit un dialogue des civilisations, et ramifiée ère de programmes, ouvert sur les différentes préoccupations de thon obèse et pensait que c'était la parole de l'effet dans le domaine de l'époque, il a écrit que dans l'intérêt général, et a influencé la pensée et est apparu évident dans ses écrits. Et puis nous avons parlé de sa vie en soulignant sa naissance et de l'éducation et de la littérature, avec le support de son statut parmi ses contemporains; peut recueillir toutes les sciences et de disciplines diverses jusqu'à ce qu'il devienne une idée Encyclopédie, et devenus les candidats et les retardataires Dora, écrits par Riad Zahi ra et ses lettres Anand fructueux, alliant sens des affaires et sciences , et entre l'opinion et de la littérature, et entre l'intelligence et la compréhension.

Et traitée dans la première déclaration EL BAYEN chez El Jahiz entre les obligations d'information objectives et formule de création, en essayant de faire régler la déclaration concept chez l'homme. El Jahiz ne pas l'utiliser dans le sens idiomatique ensemble restreint par les scientifiques le tard, EL BAYEN avoir des concepts dans générale Sémiotique et spéciale rhétorique particulière, et le public entre dans la vision globale de l'époque et Binot "mala s'élevait à rien", et a déterminé la plus grande "compréhension et mala", et est l'un des moyens d'expression des cinq identifiés, et soit entre vos préoccupations personnelles dans le cadre de partenariats public national et confessionnel privé, et peut se résumer obèse d'un certain niveau d'expression, et sera langue haut de gamme pour atteindre des objectifs spécifiques.

Nous avons discuté au chapitre constituants II orateur chez El Jahiz ,parce que le phénomène linguistique nécessitant le haut-parleur à respecter un ensemble de normes nécessaires à la réussite de l'opération de communication et d'atteindre les objectifs et réaliser ses objectifs souhaités de l'exercice de ses mots, et Amand à clarifier la théorie du classement car ils ont un impact évident sur sa pensée et explications, parce que le rhétorique chez El Jahiz basée principalement sur l'art rhétorique; Elle émane établir sur référence idéologique sectaire. Mu'tazila a pris en charge ces ingrédients particuliers qui conduisent à la réalisation des objectifs et les réalisent, et assurer influence et de persuasion.

Il a également un intérêt dans le remodelage et le contexte de parrainage qui est devenu la coqueluche ne voit pas un avantage en soi, mais acquiert sa beauté et classé hors contexte,

et son efficacité est mesurée par l'étendue de sa pertinence pour le sanctuaire lorsque l'affaire et que intérêt. Et dans le contexte de son intérêt dans le remodelage, le thon obèse a cherché à fournir une vue d'ensemble de l'éloquence persuasive liste utilitaire principalement sur le médiat linguistique et rhétorique droit à l'image de l'endroit, qu'il considère comme la base de la compréhension et de la persuasion. Peut-être la chose la plus importante à propos de cette théorie générer des jugements comparatifs stylistiques; étaient rapports ont rhétorique et l'Oratoire information en fonction de la pertinence de l'article et le lieu.

Et mettre de côté au troisième trimestre pour parler des éléments de la parole chez El Jahiz; a tenté d'organiser un matériau fibreux lui rhétorique, et contextes liés qui y sont contenues, pour une bonne compréhension de la théorie des graphes. Et le sens de la rhétorique à Abou Uthman tournent principalement autour de la rhétorique de la prose orale, et oratoire particulier éloquent, était l'idée de correspondance cas de la parole peut être la première origine qu'il a prévu rhétorique quand obèse, pour célébrer la théorie de sanctuaires comme indiqué précédemment, et cela s'est article rhétorique sous la forme de notes et Les commentaires sont contrôlés par les nécessités de la recherche et de ses moteurs, de là, nous avons une volonté claire de thon obèse pour identifier les visages rhétoriques dans certaines moisissures et la réticence à être classés dans des définitions spécifiques, aussi variés que le cas et la transformation de la place mutant.

Nous avons discuté et à la fin de ce chapitre, l'impact de cet article études rhétoriques sur les études critiques.

Et La finale est venue aperçu des résultats de la recherche.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Summary

After this round careful in BAYEN El Jahiz we can only certificate supremely in his place and the scarcity of quality , and the altitude would have lived a man a long period of time has proved its stature , and photos of his era 's finest and truest depiction finest and most beautiful expression ; where the outbreak of mind. he will be the first on his time and emerged star and Ola of until he became a civilization, a century and a culture of a nation ; was a thought deep and intuitive and nature permeable to the minutes, distinguished between subtleties ; his pen traduce all what he saw his eyes and heard his ears , until tomorrow, the founder of the statement of the Arab and reference all who came after him unchallenged , and became all comes after him followed and take of certain unyielding on the disparity between them ; he has produced much note remained a beacon of walking , and the extension of the darkness civics contradictory many of light .

We have addressed in this research article rhetorical arrangement in EL BAYEN and ATTABYIN for El Jahiz and its impact on critical studies.

And divided by the entrance to the three chapters, before them an introduction and followed them a finale.

The description was provided to all the issues findings of the research.

We made the entrance expanse theoretically to search ; and we had a talk about the time of El Jahiz in terms of political life , social , moral , intellectual, and witnessed of the movement of scientific wealthy have had a profound impact on the composition of a man's personality ; where intensified conflicts intellectual and built up a dialogue of civilizations , and branched curricula the time , opened up on the various concerns of bogey and thought it was the word of the effect in the realm of the era, he wrote that in the overall interests , and influenced the thought and appeared evident in his writings . And then we talked to his life highlighting his birth and upbringing and literature, with the stand on his status among his contemporaries; may collect all the sciences and various disciplines until he became an idea Encyclopedia, and became Dora applicants and latecomers, his books are very beautiful and his letters are trees fruitful , combining business acumen and science , and between opinion and literature , and between intelligence and understanding .

And dealt with in the first quarter EL BAYEN to El Jahiz between objective reporting obligations and formula creative , trying to do so adjust the concept statement has ;because El Jahiz not use it in the sense idiomatic narrow set by the later rhetoricians , EL BAYEN have concepts general Semiotic , and special rhetorical ; and the public enters into the overall vision of the era and he identifies it " mala amounted to anything ," and determined utmost " understanding and mala " , and is one of the expressive means of the five identified , and either enters your personal concerns in the context of national public and private confessional and may be summed by a certain level of expression , and will be upscale language to achieve specific goals .

We discussed in the second Chapter constituents speaker at El Jahiz , as a linguistic phenomenon requiring the speaker to respect a set of norms necessary for the success of the operation communicative and achieve goals and attain its objectives desired from the discharge of his words , and we clarify the theory of the standings as they have a clear impact on his thinking and explanations , because EL BAYEN to El Jahiz based mainly on the rhetorical art ; It emanates establish it on sectarian ideological reference . Mu'tazila has cared for these particular ingredients that lead to the achievement of objectives and achieve them, and ensure influence and persuasion.

It also has interest in remodeling and sponsorship context that has become the talk does not see an advantage in itself; but acquires its beauty and classed as out of context, and its effectiveness is measured by the extent of its relevance to the shrine when the case that requires it. And in the context of his interest in remodeling sought to provide a comprehensive

view of persuasive eloquence utilitarian list primarily on the right linguistic and rhetorical mediate in the image of the place, which he considered the basis of understanding and persuasion. Perhaps the most important thing about this theory generate comparative judgments stylistic ; were reports have Rhetoric and Oratory disclosures depending on the relevance of the article and place .

And set aside in the third quarter to talk about the elements of speech when El Jahiz has tried to organize fibrous material rhetorical him, and linked contexts contained therein, for a proper understanding of the theory of graphs. And the meaning of Rhetoric at Abu Othman revolve primarily around the rhetoric of oral prose , and especially eloquent oratory , was the idea of matching speech case may be the first origin which it foresaw rhetoric when El Jahiz , for celebrating the theory of shrines as previously stated , and this came article rhetoric in the form of notes and comments are controlled by the necessities of search and its engines , from here we have a clearer El Jahiz desire for identifying faces rhetorical in certain molds and reluctance to be classified into specific definitions , as varied as the case and the transformation of the mutant place .

And we discussed at the end of this chapter, the effect of this article rhetorical studies on critical studies.

And the finale came overview of the search results.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية